مجلة
إسلامية
شهرية
جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السابعة والعشرون . العدد ٢٩٦ . ربيع الثاني ١٤٣٢ هـ . مارس ٢٠١٢ م

الإنتخابات الأمريكية
وسراب التغيير

الاتجاه الباطني
في تشكُّله الجديد

لغة السياسة

نَاشِئَةَ اللَّيْلِ

هيمنة مراكز الأبحاث الصهيونية

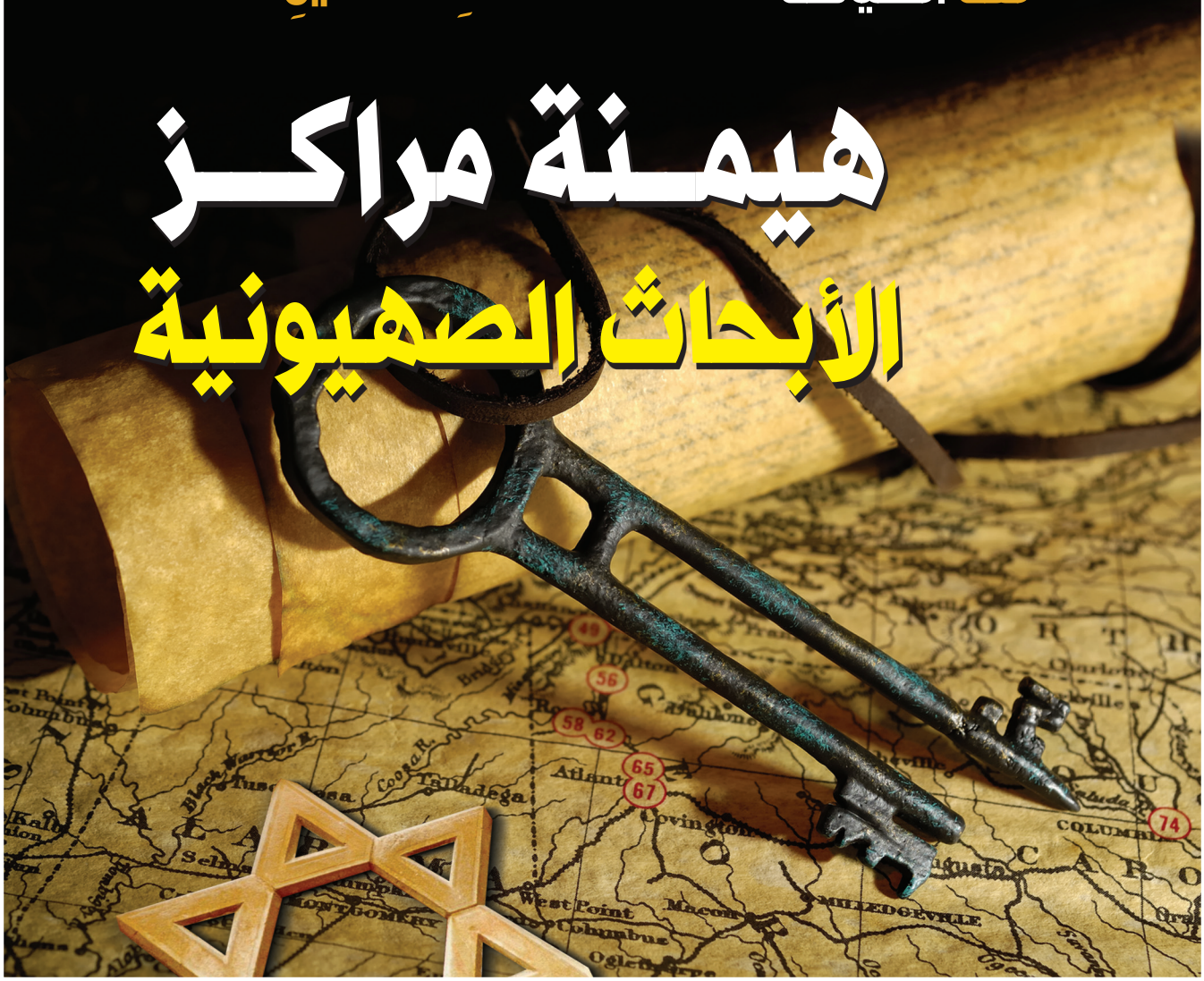

الرضيع

طفلي الرضيع
خصائصة ـ صحته ـ تربيتة

مشـروعنـا
وظـف مختلف
المتخصصين

مشروعنا:

- بناء علمي منهجي.
- تنويع في شكل المعلومات.
- توظيف المتخصصين بكافة مجالاتهم في مراحل المشروع.
- توسيع دائرة المشرفين في منتجات المشروع.
- تنويع بيئات المشاركين وتجاربهم.

www.albayan.co.uk

الريـــاض: ـ هـــاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــاكس: ٤٥٣٢١٢١
التـوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جـدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكـة والمدينـة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقـة الجنوبيـة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقـة الشرقيـة: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقـة القصيـم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

Abha Private Hospital
مستشفى أبها الخاص

أحدث تقنية لعلاج القرنية المخروطية
مع تصحيح النظر بواسطة الأشعة فوق البنفسجية

جهاز كروسي لينكينج

- يمكن اصلاح النظر مهما كانت درجة الضعف ودرجة انحراف القرنية بواسطة أحدث أجهزة الكروسي لينكينج للأشعة فوق البنفسجية لعلاج القرنية المخروطية
- بادر لعلاج القرنية المخروطية مبكراً مع تصحيح النظر خلال ساعة واحدة ...

المملكة العربية السعودية - أبها - شمال الخطوط السعودية هاتف: ٢٢٩٢٢٢٢ فاكس: ٢٢٤٤٨٠١ ص ب: ١٧٩٤
www.aph.med.sa info@aph.med.sa : البريد الإلكتروني

حوار

٤٨ حوار مع الدكتور صلاح الصاوي
أجرى الحوار: مجلة البيان

المسلمون والعالم

٥٦ إغلاق مضيق هرمز بين التهويل والتهوين...
جمال سالم

٦٠ الإسلاميون والتحديات المرتقبة
مولاي المصطفى البرجاوي

٦٤ الشعارات الدينية بين الكونجرس الأمريكي واللا دينيين في البلدان الإسلامية
مصطفى مهدي

٦٦ مرصد الأحداث — جلال سعد الشايب

قصة قصيرة

٧٢ المسافر — د. حسين علي محمد

عين على العدو

٧٤ هشاشة الاستخبارات الصهيونية
د. عدنان أبو عامر

في دائرة الضوء

٧٦ هيمنة مراكز الأبحاث الصهيونية
جهاد العايش

فكرية

٨٢ خريطة طريق... لقيادة الحراك الفكري
إبراهيم بن عبد العزيز الخميس

تاريخية

٨٦ من أئمة الإصلاح العلاَّمة المحقق مُحب الدين الخَطيب (١٣٠٥ - ١٣٨٩هـ)
محمد توفيق زين العابدين

الباب المفتوح

٩٢ من بديع فقه الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله -
خالد بن صالح الغيص

الورقة الأخيرة

٩٤ لغة السياسة
أحمد فهمي

[كلمة صغيرة]

من إنجازات البيان

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فبحمد الله – تعالى – وفضله لا زالت مؤسسة البيان تحقق نقلات فكرية ودعوية كبيرة تدلُّ على حيويتها وتجدُّدها، ومن أبرز هذه النقلات النوعية التي حصلت في هذا العام الجديد:

أولاً: تطوير الموقع الإلكتروني لمجلة البيان شكلاً ومضموناً، والبدء في تشغيل نافذة باللغة الإندونيسية، وهي ترجمة لبعض مواد المجلة التي تناسب القارئ الإندونيسي، ونرجو أن يكون في نجاح هذا المشروع تحقيقاً لطموحنا في ترجمة بعض مواد المجلة إلى لغات أخرى بعون الله تعالى.

ثانياً: صدور التقرير الارتيادي التاسع لعام ١٤٣٣هـ بعنوان (الأمة... واقع الإصلاح ومآلات التغيير)، وقد احتوى هذا التقرير على ثلاث وعشرين دراسة محكمة.

ثالثاً: أصدر مركز البحوث والدراسات في مؤسسة البيان في هذا العام (١٤٣٣هـ) أكثر من عشرين كتاباً في موضوعات فكرية وسياسية ودعوية متعددة، من أبرزها:

١ – كتاب (الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح)، لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتحقيق فضيلة العلاَّمة الدكتور سفر الحوالي.

٢ – تجديد الدين لدى الاتجاه العقلاني المعاصر.

٣ – السنة التَّرْكِيَّة... مفهومها، حجيتها، أثرها، الأسئلة الواردة عليها.

٤ – موقف الليبرالية في البلاد العربية من مُحْكَمَات الدين دراسة تحليلية نقدية.

٥ – العلاقة بين الصوفية والإمامية... جذورها، واقعها، أثرها على الأمة.

٦ – موسوعة الشمائل المحمدية (ثلاث مجلدات).

٧ – قراءة في تحوُّلات الإسلاميين من سبتمبر إلى الثورات، ومن الدراسات السياسية نذكر – على سبيل المثال –:

١ – مصر عام ٢٠١٢هـ دراسة تحليلية لعملية التحوُّل السياسي في مصر.

٢ – العرب السنة في العراق، تاريخهم، واقعهم، مستقبلهم.

رابعاً: طباعة خمسين ألف نسخة من تفسير الإمام عبد الرحمن السعدي على هامش المصحف الشريف بقراءة حفص عن عاصم، وقراءة قالون.

ونحن إذ نبشر قراءنا الكرام بهذه الإنجازات، نبتهل إلى الله – تعالى – أن يحسن النيات، ويبارك في الأعمال، ويستعملنا في طاعته، ويجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى.

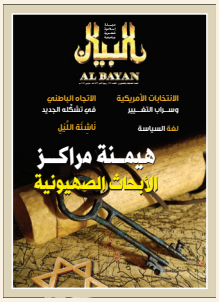

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

YouTube | | |

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA1380000296608010021007

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

الافتتاحية

٤ **الانتخابات الأمريكية وسراب التغيير**
التحرير

العقيدة والشريعة

٦ **الحكم بما أنزل الله** د. هاني بن عبد الله الجبير

الغرب: قراءة عقدية

١٠ **النصيرية والحدَب الأمريكي**
فيصل بن علي الكاملي

بلغوا عني ولو آية

١٢ **نَاشِئَةَ اللَّيْلِ** عبد اللطيف التويجري

قضايا دعوية

١٨ **الميزة التنافسية للمؤسسات الخيرية**
عاصم محمد حسن
٢٤ **المؤسسية بين التنظير والممارسة**
د. محمد ناجي عطية

قضايا تربوية

٢٨ **من كان يرجو لقاء الله**
عبد العزيز الشامي
٣٢ **مراكز مقترحة لرعاية الشباب الموهوبين**
د. مصطفى عطية جمعة

معركة النص

٣٦ **فاحكم بينهم... أو أعرض عنهم**
فهد بن صالح العجلان

مسارات فكرية

٤٠ **الاتجاه الباطني في تشكُّله الجديد**
سلطان العميري

نص شعري

٤٦ **هاجس الرحيل في شعر د. حسين علي محمد**
محمد شلال الحناحنة

الانتخابات الأمريكية

وسـراب التغـيير

«مِت رومني» Mitt Romney مرشـح رئاسي جمهوري، وأحد الساسة الأثرياء، وحاصل على درجة الدكتوراه في القانون من جامعـة هارفارد، هذا ما يهم الإعلام من شـخصية هذا الرجل الذي قد يصبح يوماً من الأيام رئيسـاً للولايات المتحدة. لكنَّ ما لا يعرفه – بل لا يهتم له – كثير من المتابعين للانتخابات الأمريكيـة هو أن «رومني» أحد دعاة النِّحلة المورمونية، كما أن زوجته تعتنق المذهب نفسه منذ عام ١٩٦٦م.

تقوم المورمونية الباطنية على خيالات «جوزيف سميث» التي أسسها عام ١٨٣٠م بالولايات المتحدة. زعم «جوزيف سميث» أنه دُلَّ مـن قِبَل مـلاك يدعى «موروني» على ألـواح من ذهب فوق تل قريب من مدينة «باميرا» بولايـة نيويورك. كانت تلك الألواح التي سـطرت منذ ألف عام كما يزعم المورمون تحكي أخبار قوم اسـتوطنوا القارة الأمريكية في الأزمنة الغابـرة. ترجمت هذه الألواح وأصبحت تُعرَف باسـم «كتاب مورمون» The Book of Mormon وهي اليوم جزء مهم من كتب المورمونية المقدسة.

تختلف المورمونية في بعض عقائدها الرئيسـية عن عقائد النصرانيـة؛ فهي لا تعتبر الأقانيم الثلاثـة التي تؤلِّف التثليث عند النصارى (الآب، الابن، روح القدس) إلهاً واحداً كما يصنع النصارى، بل تعدُّها ثلاثة آلهة مسـتقلة عن بعضها بعضاً. كما أنهـا تبيح تعدُّد الزوجات، وهو مـا لا يقول به عامة النصارى. وهناك عقائد أخرى ليس هذا موضع بسطها. لكن الذي يهمنا هنا هو إلقاء بعض الضوء على أسـرار هـذه العقيدة الباطنية التي يعتنقها ويدعو إليها أحد أشـهر المرشـحين الجمهوريين للانتخابات الأمريكية «مِت رومني» كما يعتنقها كثير من أعضاء الكونجرس الأمريكي وغيرهم من الساسة والرياضيين والفنانين.

تتجلى طقـوس المورمونية الباطنية داخـل «هيكل المصير المحتـوم» The Temple of Doom الذي يُعَد مثابة لأتباع هـذه العقيدة؛ ففيه تُعقَـد الزيجات ويـوَدَّع الأموات وتجري

أكثر العقائد الباطنية غرابة. يقول المورموني السابق «ويليام شنوبيلين»: «قبل أعوام من لقائي بدعاة المورمون كان أستاذي في فنون السحر – كبير السحرة الدرويديين في أمريكا الشمالية – قد أعلمني أن أعلى أشكال السحر تمارَس في هياكل المورمون». وإذا علمنا أن المرشح الجمهوري «مت رومني» ليس مجرد تابع لهذه العقيدة بل هو أحد دعاتها – missio ary تبيَّن الارتباط المطَّرد بين ساسة الغرب والجماعات السرية الباطنية كالماسونية ونحوها.

تُحدِّثنا الوثائق الرسمية لجماعة المورمون أن «جوزيف سميث» مؤسس الجماعة مُنِح درجة «أستاذ ماسوني» في السادس عشر من مارس عام ١٨٤٢م[١]. كما أن أخاه «حيرام سميث» تلقَّى ثلاث درجات ماسونية في محفل جبل موريا رقم ١١٢ في «باميرا» بولاية نيويورك في الوقت الذي كان فيه «جوزيف سميث» يتلقَّى الوحي على حد زعمه[٢]. فكبار المورمون هم في حقيقتهم أتباع للتنظيم الماسوني. وقد ظن البعض أن ارتباط المورمون بالهيكل الماسوني دليل على أنهم أصابع خفية لليهود، لكن المتفحص لكتاباتهم يجد أنهم أقرب إلى النصرانية، بل هم من باطنية النصارى.

إن طقوس الهيكل المورموني تتطابق مع طقوس الهيكل الماسوني حتى في رموزها وطرق المصافحة. والسبب في ذلك هو أن «جوزيف سميث» مدَّعي النبوة كان يسعى إلى نشر الماسونية في حُلَّة جديدة كما يصنع أتباع البهائية. فقصة وجوده للألواح الذهبية نجد سلفها في «أسطورة أخنوخ» الماسونية التي تقول: إن «أخنوخ» هُدي إلى ألواح من الذهب والنحاس تحكي قصصاً قديمة على إحدى الروابي. وهذه الأسطورة تدرَّس للمرشحين للدرجات ١٣ و ١٤ و ٢١ من ماسونية الطقس الإيكوسي (الاسكتلندي).

هذه هي حقيقة المورمونية التي تبرع «رومني» بملايين الدولارات من ثروته لأجلها، بل صرَّح بانتمائه إليها بكل حماس فقال في أحد خطاباته: «يتمنى البعض أن أُقصِي نفسي ببساطة عن ديني – يقولون: إنه مجرد تراثٍ وليس قناعة شخصية – أو أن أتنكر لبعض مبادئه. إن هذا لن يحدث. إنني أؤمن بعقيدتي المورمونية وأسعى إلى أن أحيا بها. إن عقيدتي هي عقيدة آبائي، وسأظل وفياً لهم ولعقائدي... قد يعتقد البعض أن هذا الاعتراف بعقيدتي سيفقدني ترشُّحي؛ إن كانوا على حق، فليكن ذاك!»[٣].

وماذا عن بقية المرشحين؟ أما المرشح الجمهوري «نيوت جِنجريتش» (بالجيم المصرية) Newt Gingrich فقد اعتنق الكاثوليكية عام ٢٠٠٩م، وهو يحمل الدرجة الـ ٣٣ في «ماسونية الطقس الاسكتلندي» – Scottish Rite Freem sonry، كما أنه أحد أعضاء «الأيكة البوهيمية»، وعضو في «مجلس العلاقات الخارجية» سيئ السمعة.

وأما المرشح الجمهوري الآخر «ريك سانتورَم» – Rick Sa torum فهو من مشاهير «فرسان مالطة» (أو «الإسبتارية» كما يعرفون في التاريخ الإسلامي)؛ أولئك الجنود الصليبيين الذين كان صلاح الدين الأيوبي يعطي من ظفر بأحدهم أو أحد جنود «الداوية» (فرسان الهيكل) أكثر مما يعطي من ظفر بغيرهم من الصليبيين.

ألا ترى أن سياسة أمريكا الخارجية لا تتغير بتغير الرئيس؟ إن الزعماء مجرد واجهة لواقع أكثر عمقاً لا يُتوصل إليه بمجرد النظر إلى الظاهر من العلاقات النفعية بين الولايات المتحدة وغيرها من بلاد العالم. فما الفرق بين سياستَي «بوش» الصليبي الحاقد و«أوباما» الذي تغنى به الشعراء؟ وما الفرق بين سياسة الديمقراطيين والجمهوريين؟ مجرد تفاصيل يلهث وراءها المتابع دون أن يجد اختلافاً ذا بال.

لقد قال «بيل كلنتون» ذات مرة: «منذ عام ١٩٤٥م نهايةِ الحرب [العالمية الثانية] إلى ١٩٨٩م نهايةِ الحرب الباردة... كانت لدينا «نظرة عالمية»، الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء...»[٤].

وهو ما تفسره «كاثي أوبراين» بقولها: «في نظري أن أولئك الذين كانوا يؤسسون للنظام العالمي الجديد من خلال السيطرة على عقول العامة لم يفرقوا بين حزب ديمقراطي وحزب جمهوري. كانت أطماعهم دولية وليست أمريكية»[٥].

إن سياسة أمريكا لن تتغير ما دام الإسلام قائماً. ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [**البقرة** : ٢١٧].

(1) Joseph Smith Jr., History of the Church (The Church of Jesus Christ of Latter-day Saints), vol. IV, p. 552.

(2) Reed C. Durham, No Help for the Widow's Son (Martin Publishing Co., Nauvoo, IL, 1980), p. 25.

(3) http://famousmormons.net/Romney.html

(٤) http://www.youtube.com/watch?v=1etgsNU46s4

(5) O>Brien, Cathy & Mark Philips. Trance-Formation of America, p. 152.

الحكم بما أنزل الله

هاني بن عبد الله الجبير(*)

الحمدلله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن الله – تعالى – أرسل رسله، وأنزل عليهم الكتاب بالحق ليكون حاكماً بين الناس؛ ولذا أمر الله بطاعة رسله واتباع كتبه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]. وجعل ذلك علامة للإيمان ودليلاً عليه: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. [النساء: ٦٥]

وبيَّن أنه لا يجتمع الإيمان بالله ورسله مع التحاكم لغير شرع الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾. [النساء: ٦٠]

وأخبر أن رغبات الناس وأهواءهم بخلاف ما جاء في شرعه: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٧١].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤].

وجعل اتباع الهوى مضاداً للحق وعدَّه قسيماً له: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

فلا يكون عبد مؤمناً حتى يحكم بشريعة الله – تعالى – راضياً بها مطمئناً إليها.

ونحن في هذه الوريقات نعرض لهذا الأصل العظيم من أصول الإيمان، وهو تحكيم الشرع ضمن محاور نعرضها تباعاً.

(*) قاضٍ شرعيٌّ في محكمة الرياض.

تحكيم الشريعة من أصول الإيمان وأهم الواجبات:

الحكم بما أنزل الله – تعالى – فرض من فروض الدين العظيمة، فقد جعله الله غاية إنزال الكتب كما قال – تعالى –: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

ومن أصول العقيدة الإسلامية أن الحكم والتشريع حق لله وحده كما قال – تعالى –: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال – تعالى –: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. [النساء: ٦٥]

(وفي هذا الوعيد الشديد ما تقشعرُّ له الجلود وترجف له الأفئدة؛ فإنَّه أولاً أقسم بنفسه مؤكداً لهذا القسم بحرف النفي بأنهم لا يؤمنون، فنفى عنهم الإيمان، الذي هو رأس مال صالحي عباد الله حتى تحصل لهم غاية هي تحكيم رسول الله ﷺ، ثم ضم إلى التحكيم أمراً آخر وهو عدم وجود حرج في صدورهم، فلا يكون مجرد التحكيم والإذعان كافياً حتى يكون من صميم القلب عن رضاً واطمئنان وانثلاج صدر وطيب نفس، ثم ضم إليه قوله: (ويسلِّموا)؛ أي: يذعنوا، وينقادوا ظاهراً وباطناً فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم، ولا يجد الحرج في صدره بما قضى عليه، ويسلم لحكم الله وشرعه تسليماً لا يخالطه ردٌّ، ولا تشوبه مخالفة)[1].

(١) فتح القدير للشوكاني: (١/ ٤٨٤).

والتحاكم إلى غير ما أنزل الله من صفات المنافقين؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧].

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

فهذه الآيات وأمثالها (ناطقةٌ بأنَّ من صَدَّ وأعرض عن حكم الله ورسوله عمداً، ولا سيما بعد دعوته إليه وتذكيره به، فإنه يكون منافقاً لا يُعتَدُّ بما يزعمه من الإيمان وما يدعيه من الإسلام)[1].

فمن كان يعتقد أن الحكم بما أنزل الله ليس من فروض الدين ولا من واجباته، أو أن للناس خيرةً في اتباع الشرع أو تركه فقد ناقض النصوص الشرعية القطعيَّة، بل قال ابن تيمية: (ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر؛ فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر؛ فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرها، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله: كسواليف البادية وأوامر المُطاعين فيهم، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر)[2].

والمقصود أن الحكم بالشرع أحد واجبات الدين الظاهرة التي لا تخفى؛ وإلا فإذا كان للناس اختيار الحكم بالشرع أو بغيره، فلِمَ أنزل الله كتبه المشتملة على شرائعه وأمر فيها بطاعته وأمر رُسُله بتعليمها للناس؟ وهذا كله من مقرر عقائد المسلمين الذي لا ينكره إلا مكابر.

من مقاصد الكفار ألا يطبق المسلمون شريعتهم:

وهذا الأمر وضَّحه الله - تعالى - بأجلى صورة؛ فإن أهل الكفر لا يرضون عن قيام المسلمين بدينهم: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٣].

وقد جاء وفد ثقيف للنبي ﷺ وطلبوا أن يعفيهم من بعض تشريعات الإسلام: (قالوا: أفرأيت الزنا فإنا قوم نغترب ولا بد منه. قال: هو عليكم حرام؛ إن الله يقول: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]. قالوا: أفرأيت الربا، فإنه أموالنا كلها. قال لكم رؤوس أموالكم؛ إن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨]. قالوا: أفرأيت الخمر فإنه لا بد لنا منها. قال: إن الله - تعالى - قد حرَّمها. ثم سألوه أن يعفيهم من الصلاة فقال: لا خير في دين لا صلاة فيه، فسألوه أن يدع لهم اللات ثلاث سنوات، فأبى أن يدعها لهم)[3].

وكذلك فعل المشركون في مجادلتهم للنبي ﷺ في مسألة أكل الميتة، وأكل ما لم يُذكَر اسم الله عليه، فقد أنزل الله فيهم: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فبين أنهم مشركون بطاعتهم، وهذا الإشراك في الطاعة واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله - تعالى - هو المراد بعبادة الشيطان المذكورة في القرآن[4].

ومقصود المشركين ترك تسمية الله تحايلاً على المسلمين للتمويه عليهم، فإذا توصَّلوا منهم إلى تخطئة أحكام الإسلام أو الشك في صحتها، بأن لا فرق بين ما سُمِيَ عليه اللهُ وما لم يذكَر عليه اسمُه، وقعوا في الشرك، وإن لم يدَّعوا لله شركاء[5].

ويدل على هذا أيضاً قوله - تعالى -: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

فمن مرادات أعداء الإسلام أن يترك المسلمون الحكم بما أنزل الله، وهذا سبب لضعفهم وتخاذلهم ووقوع بأسهم بينهم. قال ابن تيمية: (وإذا خرج ولاة الأمر عن هذا، فقد حكموا بغير ما أنزل الله ووقع بأسهم بينهم. قال ﷺ: «ما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم»[6]. وفي رواية: «إلا فشا فيهم الفقر»[7]. وهذا من أعظم أسباب تغيُّر الدول، كما جرى مثل هذا مرة بعد مرة في زماننا وغيرِ زماننا، ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره فيسلك مسلك من أيَّده الله ونصره)[8].

وقد جاء في تقرير مؤسسة راند (RAND

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: (٥/٢٢٧).
(٢) منهاج السنة النبوية: (٥/٢٣٠).
(٣) سبيل الهدى والرشاد: (٦/٢٩٨)، زاد المعاد: (٣/٥٩٨)، ابن سعد في الطبقات: (٥/٣٧٠). قال الدكتور أكرم ضياء العمري: إن أكثر تفصيلات أخبار الوفود بدون أسانيد أو أسانيدها واهية. السيرة النبوية الصحيحة: (٢/٥٤٤).
(٤) أضواء البيان: (٤/٨٣).
(٥) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: (٤/٤٢).
(٦) سنن البيهقي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (١/٣٢١).
(٧) معجم الطبراني الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (١/٣٢١).
(٨) مجموع الفتاوى (٣٥/٣٨٧).

Corporation). الصادر عام ٢٠٠٧م وهي التي تحاول رسم خطة السياسة الأمريكية في التعامل مع الأحداث، والدعاء لبناء شبكات مسلمة معتدلة، وجعلت معيار المسلم المعتدل هو الذي لا يرغب تطبيق الشريعة، وأما المتطرِّف فهو الذي يطبق الشريعة.

ومَن كان من رعايا هذه المؤسسة وفروعها في العالم العربي[1] لا عجب أن يسعى في إبعاد المسلمين عن تطبيق الشرع، والله متمُّ نوره ولو كره المشركون.

الشرع مع تضمُّنه مصالح العباد فهو على خلاف كثير من أهوائهم:

فلا إشكال أن الشريعة الإسلامية وُضِعَت لمصالح العباد في العاجل والآجل، وأن كلَّ ما أمرت به فهو خير ومصلحة، وكلَّ ما نهت عنه فهو شر وفساد، لكن هذه المصالح قد تخفى على بعض الناس لارتباطها بالآجل، أو لتداخلها مع مفاسد أخرى هي أرجح منها، أو لفساد القلوب، أو ضعف العلم أو غير ذلك، ولذا قد لا تدرك هذه المصالح.

كما أن الهوى غالب على الإنسان؛ ولذا فقد يدرك المصلحة، ولكنه لا يراعها لغلبة الهوى عليه (فمخالفة ما تهوى الأنفس شاق عليها، وصعب خروجها عنه؛ ولذلك بلغ أهل الهوى في مساعدته مبالغ لا يبلغها غيرهم، وكفى شاهداً على ذلك حال المحبين، وحال من بُعِثَ إليهم رسول الله ﷺ من المشركين وأهل الكتاب، وغيرهم ممن صَمَّم على ما هو عليه، حتى رضوا بإهلاك النفوس والأموال، ولم يرضوا بمخالفه الهوى، حتى قال – تعالى –: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]. والشرع قصد بوضعه للشريعة إخراج المكلَّف عن اتباع هواه، حتى يكون عبداً لله)[2].

ولا شك أن اتباع الهوى مضاد للحق؛ ولذا قال – تعالى –: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، و (عُلِمَ بالتجارب والعادات أن المصالح الدينية والدنيوية لا تحصل مع الاسترسال في اتباع الهوى والمشي مع الأغراض، حتى أن من سبقنا من الأمم ممن ليس لهم شريعة يتبعونها كانوا يكفُّون من اتبع هواه؛ علماً أن ذلك يضاد المصلحة وهذا أظهر من أن يستدل عليه.

ولذا ليس لأحد أن يدَّعي أن الشريعة توافق تشهيات العبادة وأغراضهم، بل هي تصادمها، فسبحان الذي أنزل في كتابه: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾. [المؤمنون: ٧١]

وما سبق ينبني عليه قواعد منها: أن كل عمل كان المتَّبَع فيه الهوى فهو باطل؛ لأنه خلاف الحق، ومنها: أن اتباع الهوى طريق إلى المذموم، وسببٌ لتعطيل الأوامر والنواهي الشرعية)[3].

ومن هنا امتنع إحالة الناس في تطبيق الشريعة إلى رغبتهم وأهوائهم؛ فإن ذلك إبطال – أولاً – لاختصاص الله بالحكم والتشريع، ثم هو تعطيل للشرع؛ إذ لا توافق بين الشرع والهوى، وهما إن اتفقا فالعمل باطل؛ إذ لم يكن اتباعاً للتشريع بل للهوى العاجل.

تقنين الشريعة الإسلامية – عند من يجيزه – تيسير لأسلوب عرض الحكم الشرعي:

فالمراد بالتقنين عند من يدعو إليه أن تكون الأحكام الواجبة التطبيق محدَّدة مبينة للقاضي والمتقاضي، وهو ما يكون أدعى لتحقيق العدالة والتيسير على الناس، مع أن هذه الأحكام مستنبَطة من الكتاب والسنة، مأخوذة من كتب فقهاء الإسلام، فليست تحكُّماً أو تحكيماً لغير الشريعة.

وملحظُ من يمنعه أن في الإلزام بالحكم بالشرع المقنَّن إلجاءً للقاضي أن يحكم أحياناً بخلاف ما يعتقده صواباً، واحتمال إدخال التعديل على القانون، أو اختيار بعض الآراء فيه بناءً على الهوى وحظوظ النفس لا باعتباره طُرُق الترجيح الشرعية، وهو ما يؤدي للحكم بغير ما أنزل الله[4].

فليس الخلاف الدائر بين الداعي لتقنين الأحكام الشرعية، أو تدوينها، وبين المانع، خلافاً في أصل تحيكم الشرع من عدمه، بل في اختيار ترجيحات معينة يُلْزِم بها القضاة في المسائل الخلافية، مع اتفاق الجميع على أن المرجع في الترجيح هو الاستنباط من الشرع.

فالخلاف في هذه المسألة خلاف بين المقرِّين بوجوب تطبيق الشريعة.

---

(١) مركز كارنيجي للسلام الدولي تأسست عام ٢٠٠٦م في بيروت، ويسعى لرصد ودراسة التغيرات في الشرق الأوسط ومواكبة الأحداث، وقد يجري أبحاثاً بواسطة مراكز شريكة له، وباحثين متعاونين في القضايا الفكرية، وهو من فروع مؤسسة كارنيجي في واشنطن.

(٢) الموافقات: (٢/١٥٣).

(٣) الموافقات: (٢/١٦٧).

(٤) التقنين والإلزام، بكر أبو زيد، ضمن فقه النوازل: (١/٣١ فما بعدها).

ارتكاب بعض المخالفات اضطراراً أو عجزاً أو لمعارض راجح ليس من عدم تطبيق الشريعة.

معلوم أن المصالح والمفاسد قد تتقابل فلا يمكن تحصيل مصلحة إلا بارتكاب مفسدة، وكذلك العكس، وقاعدة الشرع في هذا التعارض: ترجيح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة.

ويفصِّل ابن تيمية هذه القاعدة بأمثلة واقعية طويلة نجتزئ منها ما يلي: (إذا كان القائم بالمُلك أو الإمارة يفعل من الحسنات المأمور بها ويترك من السيئات المنهي عنها ما يزيد ثوابه على عقوبة ما يتركه من واجب أو يفعله من محظور، فهذا قد ترجَّحت حسناته على سيئاته. ويتفرع من هنا ما إذا كان لا يتأتَّى له فعل الحسنة الراجحة إلا بسيئة دونها في العقاب ولم يمكنه إلا ذلك فهنا لا يبقى سيئة، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وكثير من الناس يستشعر سوء الفعل ولا ينظر إلى الحاجة المعارضة له التي يحصل بها من ثواب الحسنة ما يربو على ذلك. وعلى هذا ينبني جواز العدول أحياناً عن بعض سنة الخلفاء، كما يجوز ترك بعض واجبات الشريعة وارتكاب بعض محظوراتها للضرورة؛ وذلك في ما إذا وقع العجز عن بعض سنتهم أو وقعت الضرورة إلى بعض ما نهوا عنه، بأن تكون الواجبات المقصودة بالإمارة لا تقوم إلا بما مضرته أقل.

وإذا كان يمكن فعل الحسنات بلا سيئة لكن بمشقة لا تطيقه نفسه عليها، أو بكراهة من طبعه؛ بحيث لا يفعل إلا بأن يبذل لنفسه بعض المنهيات... فهؤلاء خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فليس حظ النفس عذراً لهم في فعلهم، لكن يؤمرون بما فعلوه من الحسنات ولو علم أنهم لا يفعلونه إلا بالسيئات المرجوحة. ويكون الحال حينئذٍ مثل ترك الإنكار إذا ترتب عليه مفسدة أكبر...)[1].

ويقول أيضاً: (العالم قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكُّن كما أخَّر الله - سبحانه - إنزال وبيان أحكام إلى وقت التمكُّن من بيانها، فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء والأمراء كان بيانه لما جاء به الرسول شيئاً فشيئاً بمنزلة بيان الرسول لما بُعِث به شيئاً فشيئاً، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأتِ الشريعة جملة، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع.

فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته لا يبلِّغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، وكذلك التائب من الذنوب لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين، فإنه لا يطيقه، وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم أو الأمير أن يوجبه جميعه، بل يعفو عنه إلى وقت الإمكان، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات؛ لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط)[2].

ومثل ذلك يقال حال الاضطرار وقد قال - تعالى -: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٩٩]، والعجز عن فعل الواجبات: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ولذا يقول الطاهر بن عاشور: إن من الأمور التي ينبغي أن لا يُغفَل عنها عند النظر في الأحوال العامة: الضرورة العامة المؤقتة، حين يعرض الاضطرار للأمة أو لطائفة عظيمة منها، تستدعي إباحة الفعل الممنوع لتحقيق مقصد شرعي، مثل: سلامة الأمة، واعتبار هذه الضرورة أَوْلَى وأجدر من اعتبار الضرورة الخاصَّة[3].

ويقرر ذلك الشيخ ابن سعدي في ذكره لفوائد قصة شعيب من سورة هود: (ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها، وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، وأهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعيَّن ذلك لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا، لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية، يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والمدنية، لكان أَوْلَى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية وتحرص على إبادتها، نعم، إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام فهو المتعين. ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة)[4].

وفَّق الله الجميع لما يحبه ويرضاه، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٣٥). بتصرف قليل واختصار.

(٢) مجموع الفتاوى: (٥٩/٢٠ - ٦٠).
(٣) مقاصد الشريعة، ص ٣٨١.
(٤) التفسير، ص ٣٤٥.

النصيرية والحدَب الأمريكي

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

في الرابع والعشرين من أكتوبر عام 2011م نشر «مجلس العلاقات الخارجية» تقريراً وجيزاً بعنوان (American Options in Syria) أو «الخيارات الأمريكية في سورية»(1). انفرد بإعداد هذا التقرير «إليوت أبرامز» النائب الأسبق لمستشار الأمن القومي لشؤون الشرق الأوسط في إدارة بوش، والباحث في شؤون الشرق الأوسط بالمجلس.

القارئ للتقرير يلمس بين سطوره حَدَباً وقلقاً أمريكياً على النِّحلة النصيرية الباطنية التي تتولى كِبر المذابح الشنيعة التي ترتكب بحق أهل السنة في سورية. فقد استهل الكاتب تقريره بالحديث عن تزايد احتمال نشوب حرب أهلية

واسعة النطاق بين «نظام تابع للأقلية العلوية(2) [النُّصيرية] يقاتل من أجل البقاء، وتمرُّد مسلح من قِبَل قوات متمركزة في المناطق ذات الأغلبية السُّنية». هكذا اختزل الكاتب نضال الشعب السوري المسلم في «تمرُّد مسلح» في وجه «أقلية علوية تقاتل من أجل البقاء».

ولما عيل الصبر وهبَّ بعض أهل السنة يذودون عن حياضهم رفعت الولايات المتحدة عقيرتها زاعمة أنها يئست من وعود الحكومة السورية بالإصلاح والتحول الديمقراطي وأن السياسة الأمريكية ينبغي أن توجَّه – كما ينصح التقرير – لتحقيق الأهداف التالية: أولاً: وقف العنف؛ وكأن قتل الأبرياء طوال عام لم يكن عنفاً. ثانياً: إسقاط نظام الأسد، وليس النظام النصيري. وأخيراً: «وضع الأسس لنظام ديمقراطي مستقر يضمن حماية الأقليات العلوية والكردية والنصرانية».

ثم يشير الكاتب إلى أن «الهدف الأمريكي والأوروبي والتركي» المشترك أصبح «إنهاء حكم عائلة الأسد» على وجه التحديد دون النظام النصيري. ثم يتساءل الكاتب: ولكن كيف يتمكن صناع السياسة الأمريكية من تحقيق هذا الهدف في أقصر وقت وبأقل قدر ممكن من العنف؟ والجواب هو انتهاج «إستراتيجية تهدف إلى إضعاف قواعد الدعم لدى النظام وتشجيع المعارضة على إبراز رغبتها في سورية ديمقراطية غير طائفية». وهذه مناورة غربية لاستنقاذ الأقلية النصيرية الباطنية المجرمة وإخراجها من قفص الاتهام في ظل شعارات ديمقراطية زائفة.

ثم يضيف التقرير أن الخطوة الأُولَى التي ينبغي أن

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(1) http://www.cfr.org/syria/american-options-syria/p26226.

(٢) هكذا يرد اسم الطائفة النصيرية عند الكتَّاب الغربيين، وهو من التلبيس.

تقوم بها الولايات المتحدة لإسقاط نظام الأسد هي عزل أسرة الأسد عن بقية «العلويين» الذين «ليس لهم نصيب في الثروة التي وزعها الأسد بين المقربين إليه». وحتى تذوب الخلافات بين الشعب السوري السني المجاهد وعصابات النصيرية الباطنية فإن على الولايات المتحدة أن تستمر في الضغط على الجماعات المعارضة لنظام الأسد لتظهر بـ «وجهٍ موحَّد». وهذا الوجه قد بدت إرهاصاته في «المجلس الوطني السوري» برئاسة «برهان غليون».

أما مهام «المجلس الوطني السوري» كما يريدها الغرب الصليبي فلا تعدو دور الوسيط بين الغرب والشعب. ومن أهمها «التأكيد المتكرر على التزام المجلس المساواةَ في معاملة كل السوريين دون اعتبار للطائفة أو العقيدة، وأن يُدخِل في صفوفه بشكل واضح علويين وغيرهم ممن ليسوا من أهل السنة. وعلى المجلس أن يشجب بصوتٍ عالٍ وحماسٍ عاطفيٍّ كل أشكال العنف ضد المواطنين أو المجتمع العلوي، فقد يتزايد هذا العنف بتزايد المواجهات المسلحة بين النظام والمعارضة. كما أن على المجلس أن يتعهد بأن «سورية ما بعد الأسد» ستحمي كل الأقليات: العلوية والكردية والجاليات النصرانية القلقة جداً. كما أن عليه أن يوافق الآن على دورٍ دولي لتقديم هذه الحماية والضمانات [وهذا يعني التدخل الأجنبي]. وكلما كانت هذه التعهدات أكثر تفصيلاً، وحظيت بالدعم إعلامياً ودولياً، كلما كانت أبلغ إصلاحاً في الداخل السوري». هذا إذن هو دور المجلس الوطني الذي تُعلَّق عليه الآمال.

أما على صعيد الجيش والشرطة فإن على المسؤولين الغربيين والأتراك أن يضغطوا على جنرالات العلويين للانشقاق عن النظام، وأن يقنعوهم بأنه بإمكانهم «إنقاذ مستقبلهم ومستقبل طائفتهم بعد سقوط نظام الأسد إذا ما امتنعوا الآن عن قتل مواطنيهم».

ثم يزعم الكاتب أن الجيش الأمريكي لا تربطه علائق بهؤلاء الجنرالات النصيريين؛ لكنه قد يستعين بالأتراك والأردنيين وربما الفرنسيين الذين يمتلكون قنوات خاصةً لإيصال تلك الرسائل إلى أولئك الجنرالات. فينبغي أن يؤكدوا على رسائل مثل: «لِم تُضَحي بنفسك من أجل عصابة الأسد الهالكة على أي حال؟» أو «انج بنفسك!» مع الاستعانة بتصريحات مطَمْئنة من قبل المجلس الوطني السوري؛ «فلا بد أن يصرح المجلس بأنه لن يكون ثمة تطهير شامل للضباط العلويين» بل ستُجرى محاكمات للمتورطين فقط في قتل المدنيين، وهكذا تضيع دماء الأبرياء في دهاليز المحاكم المحلية والدولية، فيكون المجرمون أسعد حظاً بالحنان الدولي من الضحايا.

أما الخطوة الثانية لإسقاط نظام الأسد فهي إثارة طبقة رجال الأعمال من السنة والنصارى والنصيريين ضده عن طريق إقناعهم بأن نظام الأسد ورقة محترقة – كما يقال – وأن التعلق بها سيعود بالضرر الاقتصادي على الموالين له من أصحاب رؤوس الأموال مهما كانت انتماءاتهم العقدية. وهو سعي لفصل الطائفة النصيرية عن النظام الحاكم قبل أن يفوت الأوان.

غير أن التقرير لا يُغفِل خياراً يعدُّه ممكناً؛ وهو قيام نظام علوي (نصيري) بديلٍ لا يرأسه بشار ولا غيره من عائلة الأسد. وقد يتحقق هذا الخيار إذا ما قام انقلاب على الحكم من داخل الطائفة النصيرية، لكن لا ينبغي أن يكون هذا هدفاً أمريكياً. يعلل التقرير العزوف عن هذا الخيار أو على الأقل عدم جعله من الأولويات أن نظام الأسد قد خسر ثقة الشعب السوري، ومن الصعب أن يُتصور نجاح نظام نصيري بديل في استعادة هذه الثقة، كما أن قيام نظام نصيري سيضم عناصر ذات سابقة إجرامية ضد الشعب السوري، وهكذا سيظل الحكم بيد أقلية نصيرية لن تفوز في انتخابات نزيهة، بل قد تضطر إلى استعمال القوة ثانية، وهو ما سينتج عنه استمرار الاضطرابات والعنف. لكن «نظاماً علوياً بديلاً يزيل عشيرة الأسد من السلطة ويخطو خطوة انتقالية واضحة نحو الديمقراطية يمكن له أن يكون نافعاً في إنهاء العنف ودفع عجلة التقدم، لكن بشرط تحديد مدَّته وطموحاته. وسيكون المسؤولون [في ذلك النظام النصيري البديل] بحاجة إلى أن يبينوا للجماهير والتحالف الدولي – الذي يفرض عقوباته على سورية وينتقدها – صدق نواياهم وجدولهم الزمني القصير، وليس هذا ببعيد».

إن ورقة الأقليات داخل المجتمعات السنية ستبقى ورقة ثمينة في أيدي الدول الغربية الصليبية، ولن تسمح تلك الدول بإحراقها مهما كلف الأمر. والطائفة النصيرية إحدى تلك الأقليات التي سيُحرَص على إبقائها داخل جسد الأمة السورية وإن سقط بشار، ولن تنتعش هذه الفرق الضالة إلا في ظل حكومة مدنية علمانية لا تقيم للدين وزناً ولا تطبق شرع الله فيتساوى فيها أهل الإيمان وأهل الأهواء، وهذا ما يسعى إليه الغرب باسم الديمقراطية والحرية.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾

نَاشِئَةَ اللَّيْلِ (*)

عبد اللطيف بن عبد الله التويجري
a44t@hotmail.com

(ما شيء أجده في قلبي ألذُّ عندي من قيام الليل)[1] ما كان للإمام التابعي الجليل ثابت البناني[2] – رحمه الله تعالى – أن يقول هذا إلا بعدما زكت نفسه، وصَلَح قلبه، وطابت حياته، بعدما تعرَّض لنفحات الله في أسحار الليالي، وذاق لذة مناجاته في الأوقات الخوالي؛ فسبحان من تفضل على عباده بهذا النعيم قبل لقائه، وبصَّرهم بطريق السعادة، ورزقهم لذة هذه العبادة، فَهُم بليلهم ألذُّ من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحبُّوا البقاء بالدنيا[3]!

قومٌ إذا جنَّ الظلامُ عليهمُ
باتوا هنالك سجَّداً وقياماً
خُمصُ البطونِ من التعفُّف ضمَّراً
لا يعرفون سوى الحلالِ طعاماً[4]

فنعمة قيام المسلم بالليل، هي من توفيق الله له، وإعانته على طاعته، والتقرب إليه بعبادته، فهي شعار الصالحين، ومن سمات عباد الله المتقين، ومن الأسباب العظيمة الموجبة لدخول الجنة بعد رحمة أرحم الراحمين.

(*) قال الأزهري: ناشئة الليل: قيام الليل. وقال الحسن البصري: كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهي ناشئة الليل. ينظر: معالم التنزيل، للبغوي: (٤/٤٩٣).

(١) صفة الصفوة، لابن الجوزي: (٢/١٥٥).

(٢) قال الإمام الذهبي في السير: (٥/٢٢١) في ترجمة ثابت البناني: (الإمام، القدوة، شيخ الإسلام، أبو محمد البناني مولاهم، البصري، ولد: في خلافة معاوية (وحدث عن جمع من الصحابة)، وكان من أئمة العلم والعمل، رحمة الله عليه. قال أنس: إن للخير أهلاً، وإن ثابتاً هذا من مفاتيح الخير، وعن ابن أبي رزين، أن ثابتاً قال: كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة. قال شعبة: كان ثابت البناني يقرأ القرآن في كل يوم وليلة. وعن محمد بن ثابت، قال: مات ثابت سنة سبع وعشرين ومائة، وهو ابن ست وثمانين سنة).

(٣) قاله أبو سليمان الداراني – رحمه الله – كما في حلية الأولياء: (٩/٢٧٥).

(٤) تفسير القرطبي: (١٣/٧١).

وإن الناظر في النصوص الشرعية عن حقيقة هذه العبادة تتجلى له مقاصدها في عدة إشراقات قرآنية، وفضائل نبوية

تظهر أولاً في كتاب الله - عز وجل - بكون التهجد بالصلاة هو الصلة الدائمة بالله المؤدية للمقام المحمود الذي وعده محمداً ﷺ فما أحوج الآخرين من أمته للاقتداء به لينالوا علوَّ المقام ورفعة الدرجات؛ ففي سورة الإسراء: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ [الإسراء: ٧٩]!

وفي آيات أخرى تبرز عدة أوامر إلهية لرسولنا الكريم ﷺ للقيام بهذه العبادة الجليلة؛ ففي سورة المزمل نداء للرسول ﷺ بترك التزمل - وهو التغطي بالليل - والنهوض إلى القيام بالليل والعبادة[1] ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ١ - ٤] فكان خيرَ مثال في ذلك، بأبي هو وأمي ﷺ.

وفي آية المزمل الأخرى بينت أن القيام بالليل أجمع للخاطر وأجدر لفقه القرآن: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦] كما قاله ابن عباس، رضي الله عنهما[2].

وفي سورة الشرح خطاب له ﷺ بعدم القيام إلا بعد الفراغ من أمور الدنيا وأشغالها؛ لكي يكون نشيطاً فارغ البال مخلصاً الرغبة والنية لله عز وجل[3]: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧ - ٨].

وفي سورة آل عمران ورد الثناء على طائفة من أهل الكتاب بسبب هذا الفعل: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] وفي سورة الذاريات يبرز في سمات عباد الله المتقين التي استحقوا بها جنة الآخرة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨].

وفي إشراقة أخرى في سورة الزمر يأتي تفضيل القانت الخاشع على غيره: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾. [الزمر: ٩]

ويتضح الأمر ثانياً في الأحاديث النبوية؛ حيث جاء الحثُّ عليها في صورة بهية وجزاء وافر في عدة أحاديث كريمة من رسولنا الكريم ﷺ؛ تارة في الفضل والشفاعة لصاحب هذا القيام: «فيقول القرآن: منعتُه النوم بالليل»[4].

ومرة في حثٍّ وتربية شباب الأمة على ذلك: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل»[5]. وأخرى في حثٍّ صريح للأمة بكونه أفضل الصلاة بعد الفريضة الصلاة في جوف الليل[6].

وفي حديث آخر بيَّن ﷺ أنه به تكون الغبطة الحقيقية: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»[7].

وفي بيان عذب منه ﷺ بيَّن لأمته أنَّ فاعل ذلك محبوب عند الله؛ فبين أن اللهَ يُحِبُّ ثَلَاثَةً، وذكر منهم: «رَجُلٌ سَافَرَ مَعَ قَوْمٍ، فَارْتَحَلُوا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْكَرَى، أَوِ النُّعَاسُ، فَنَزَلُوا، فَضَرَبُوا بِرُؤُوسِهِمْ، ثُمَّ قَامَ، فَتَطَهَّرَ، وَصَلَّى رَغْبَةً لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَرَغْبَةً فِي مَا عِنْدَهُ»[8].

وفي حثٍّ آخر يبيِّن ﷺ أنه اقتداء وقربة وتكفير ومنهاة عن الإثم، كما في حديث أبي أُمامة مرفوعاً: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ»[9].

وتتضح هذه الحقيقة ثالثاً في سيرة سلفنا الصالح - رحمهم الله - في إحياء ليلهم بالصلاة وتدبُّر القرآن والدعاء والاستغفار، فقد وصفهم صاحبهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بقوله: (لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً؛ قد باتوا لله سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله،

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٥٧).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب التطوع، باب نسخ قيام الليل والتيسير فيه، حديث رقم: (١٣٠٦). وحسن إسناده الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود: (٥/ ٤٨).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٦٨٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند، في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - حديث رقم: (٦٦٢٦)، وغيره، وصححه السيوطي في الجامع الصغير: (٥٢٠٣)، والشيخ: أحمد شاكر في تعليقه على المسند: (١٠/ ١١٨)، والشيخ: الألباني في صحيح الجامع: (٣٨٨٢).

(٥) قال ذلك لعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً. ينظر: صحيح البخاري، باب فضل قيام الليل، حديث رقم: (١١٢٢).

(٦) ينظر: صحيح مسلم، كتاب: الصيام، باب: فضل صوم المحرم، حديث رقم: (١١٦٣).

(٧) ينظر: صحيح مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: باب فضل من يقوم بالقرآن. حديث رقم: (٨١٥).

(٨) أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي ذر - رضي الله عنه - باب: ومن غرائب مسند أبي ذر رحمه الله، حديث رقم: (١٦٣٧)، والحاكم في المستدرك، في كتاب الجهاد، حديث رقم: (٢٤٤٦). وصححه ووافقه الذهبي.

(٩) أخرجه الترمذي في جامعه، حديث رقم: (٣٥٤٩)، والبغوي في شرح السنة وحسنه: (٢/ ٤٥٨). وحسنه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: (١/ ٤٦٦)، والألباني في الإرواء، حديث رقم: (٤٥٢).

يراوحون بين جباههم وأقدامهم...)[1].

وقال عنهم أيضاً ابنه الحسن - رضي الله عنهم أجمعين -: (إن من كان قبلكم رأو القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار)[2].

بل كانوا يحرصون على ذلك حتى بالسفر. قال ابن أبي مليكة سافرت مع ابن عباس - رضي الله عنهما - من مكة إلى المدينة فكان يقوم نصف الليل فيقرأ القرآن حرفاً حرفاً، ثم يبكي حتى تسمع له نشيجاً[3].

ولقد كانوا مع ذلك يحرصون أيضاً على أمر أهلهم بالصلاة والقيام، كما كان يفعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حيث كان يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة، يقول لهم: الصلاة الصلاة، ثم يتلو قوله - تعالى -: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ﴾ [طه: ١٣٢][4].

وكانوا يتعاهدون مع نسائهم وخدمهم حتى مع وجود ما يشغلهم من أضياف ونحوه، ونعم البيت القرآني الذي يتربى على هذا؛ فعن أبي عثمان النهدي قال: (تضيفت أبا هريرة - رضي الله عنه - سبعاً، فكان هو وامراته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثاً، يصلي هذا ثم يوقظ هذا ويصلي هذا ثم يوقظ هذا)[5]. حتى إن الأمر بلغ ببعضهم كسفيان الثوري أنه يفرح إذا جاء الليل لأجل القيام بهذه العبادة الجليلة، وإذا جاء النهار حزن[6].

وكان قتادة يقول: (ما سهر الليل منافق)[7] إمعاناً لثقل هذا الأمر على المنافقين والمرائين، وحثاً لعباد الله الصادقين.

وبما أن النساء شقائق الرجال فللعابدات المتهجدات

ذكر عالٍ في هذا المقام يزينه فعل أمهات المؤمنين اللاتي تربَّين على ذلك في مدرسة محمد ﷺ فقامت معه خديجة - رضي الله عنها - في أول الأمر حين جاء الأمر بـ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، وهذه الصديقة عائشة - رضي الله عنها - الصوامة القوامة روي عنها أنها قامت في آية واحدة، وهي قوله - تعالى -: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، تردِّدها وتتدبرها وتبكي[8]، وهذه حفصة بنت الفاروق - رضي الله عنها - تظفر بتزكية عالية من الروح الأمين لمداومتها على هذه العبادة؛ فقد روي أن جبريل - عليه السلام - قال للنبي ﷺ: «راجع حفصة فإنها صوامة قوامة»[9].

وهنا وصية مهمة لمن يريد إحياء هذه العبادة بالتزام منهج محمد ﷺ في هديه فلا يغالي ولا يجافي، ولقد جاءت أحاديث كثيرة في بيان هذه العبادة، ونقلت لنا كتب السنة شيئاً كثيراً عن فضلها وأحكامها وهيئتها[10]، وقد حكى لنا الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - حال الرسول ﷺ في هذه العبادة بوصف بليغ؛ حيث يقول - رضي الله عنه -: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ. ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ. فَمَضَى فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا. ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا؛ يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْواً مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». ثُمَّ قَامَ طَوِيلاً قَرِيباً مِمَّا رَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى». فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيباً مِنْ قِيَامِهِ»[11].

إن هذا الوصف المؤثر الذي وصفه حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - في بيان صفة قيام الرسول ﷺ بالليل، يظهر للأمة المنهج العملي السليم في كيفية إحياء الليل، وهو يوضح أيضاً لمريد التدبر المحور العملي الذي ينبغي أن يقتدي به ويراعيه؛ فالمتأمل في هذا الحديث العظيم تظهر له ثلاثة مقاصد غاية في الكمال والإجلال:

---

(١) حلية الأولياء: (١/ ٧٦).
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي: (١/ ٢٩).
(٣) مختصر قيام الليل، (ص١٣١).
(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، باب: ما جاء في صلاة الليل، حديث رقم: (٢٨٩)، وصحح إسناده الشيخ: عبد القادر الأرناؤوط في التعليق على جامع الأصول.
(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي: (٢/ ٦٠٩)، وصحح إسناده ابن حجر في الإصابة: (٤/ ٢٠٩).
(٦) الجرح والتعديل، للإمام ابن أبي حاتم: (١/ ٨٥).
(٧) الزهد والرقائق، لابن المبارك: (١/ ٣١).
(٨) مختصر قيام الليل، (ص١٤٤).
(٩) أخرجه الحاكم في المستدرك: (٦٧٥٣)، وسكت عنه الذهبي، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٩/ ٢٤٨): (رجاله رجال الصحيح)، وصححه السيوطي في الجامع الصحيح: (٦٠٧٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٥/ ١٧).
(١٠) ذكرت هذه الأحاديث والآثار في أكثر دواوين السنة من الصحاح والسنن والمسانيد والمصنفات، وهناك كتب ألفت مستقلة في هذا الباب، مثل: قيام الليل، للإمام المروزي المتوفى سنة: ٢٩٤هـ، وقد اختصره المقريزي المتوفى سنة: ٨٤٥هـ، وكتاب: التهجد وقيام الليل، لأبي بكر ابن أبي الدنيا المتوفى سنة: ٢٨١هـ، وكتاب: فضل قيام الليل والتهجد، للآجري المتوفى سنة: ٣٦٠هـ، وغيرها. أمَّا الكتب المعاصرة فكثيرة، ومن أشهرها وأجمعها كتاب: رهبان الليل، للدكتور: سيد العفَّاني، مطبوع في ثلاثة مجلدات.
(١١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَاب اسْتِحْبَابِ تَطْوِيلِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ، حديث رقم: (٧٧٢).

أولها: طول القراءة في التهجد: حيث قرأ ﷺ في ركعة واحدة البقرة وآل عمران والنساء، وطول القيام من أفضل الصلاة كما جاء ذلك مفسَّراً من حديث جابر - رضي الله عنه - قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ الصَّلاةِ أفْضَلُ؟ قَالَ: «طُولُ القُنُوتِ»[1] والمراد بـ «القنوت»: القيام. فكان أفضل لكون ذلك محل قراءة القرآن[2].

وثانيها: التدبر في القراءة: حيث كان ﷺ يقرأ مترسلاً بتمهُّل وتدبُّر معايشاً الآيات التي يقرؤها كما جاء في الحديث: «إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ». وهذه الأمور ليست خاصة بقراءة الليل، كما قال النووي: (استحباب هذه الأمور لكل قارئ في الصلاة وغيرها)[3].

ثالثها: الكمال في الأداء: حيث حرص ﷺ على الكمال في أداء هذه العبادة؛ فجمع فيها بين القراءة وبين الذكر وبين الدعاء وبين التفكُّر؛ لأن الذي يسأل عند السؤال ويتعوذ عند التعوذ ويسبِّح عند التسبيح، يتأمل قراءته ويتفكر فيها، فيكون هذا القيام روضة من رياض الذكر، قراءة وتسبيحاً ودعاءً وتفكُّراً[4].

فيا من يريد التدبر والانتفاع والتأثُّر والخشوع والشفاء؛ الزم هذا الباب العظيم الذي وصَّى به ربُّ العزة في كتابه، وحثَّ عليه محمد ﷺ وداوم على فعله، وتبعه أصحابه وتابعيهم؛ ففي ذلك من الكنوز العظيمة، والخيرات الكثيرة ما لا يحصيه إلا الله، ويكفي فيه شرفاً أنه وقت نزول الرب - تبارك وتعالى - إلى السماء الدنيا:

يا بَاغِيَ الإِحْسَانِ يَطْلُبُ رَبَّهُ
لِيَفُوزَ مِنْهُ بِغَايَةِ الآمَالِ
انْظُرْ إِلَى هَدْيِ الصَّحَابَةِ وَالذِي
كَانُوا عَلَيْهِ فِي الزَّمَانِ الخَالِي
دَرَجُوا عَلَى نَهْجِ الرَّسُولِ وَهَدْيِه
وَبِهِ اقْتَدَوْا فِي سَائِرِ الأَحْوَالِ
القَانِتِينَ المُخْبِتِينَ لِرَبِهِمْ
النَّاطِقِينَ بِأَصْدَقِ الأَقْوَالِ
يُحْيُونَ لَيْلَهُم بِطَاعَةِ رَبِهِمْ
بِتِلاوَةٍ، وَتَضَرُّعٍ، وَسُؤَالِ
وعُيُونُهُمْ تَجْرِي بِفَيْضِ دُمُوعِهِمْ
مِثْلَ انْهِمَالِ الوَابِلِ الهَطَّالِ
فِي اللَّيْلِ رُهبَانٌ، وَعِنْدَ جِهَادِهِمْ
لِعَدُوِهِمْ مِنْ أَشْجَعِ الأبطَالِ
بِوُجُوهِهِمْ أَثَرُ السُّجُودِ لِرَبِهِمْ
وَبِهَا أَشِعَّةُ نُورِهِ المُتَلالي[5]

وإن من الأمور المهمة في هذا الموضوع أن يحرص العابد على فعل مقومات هذا الأمر من **الإخلاص، والمتابعة، والمجاهدة**، كما حرص السلف الكرام عليها؛ فقد سأل رجل تميماً بن أوس الداري - رضي الله عنه - فقال له: كيف صلاتُك بالليل؟ فغضب غضباً شديداً ثم قال: (والله! لركعة أصليها في جوف الليل في السر أحب إليَّ من أن أصلي الليل كلَّه، ثم أقصُّه على الناس)[6]. وكان أيوب السختياني يقوم الليل كله، فإذا قرُب الفجر رجع فاضطجع في فراشه، فإذا طلع الصبح رفع صوته كأنه قد قام تلك الساعة[7].

أمَّا مجاهدة النفس على القيام فهي من أعظم الوسائل المعينة على قيام الليل؛ لأن النفس البشرية بطبيعتها أمَّارة بالسوء تميل إلى كل شر ومنكر، فمن أطاعها في ما تدعو إليه قادته إلى الهلاك والعطب، وقد أمرنا الله - تعالى - بالمجاهدة فقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] وقال - سبحانه -: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال - تعالى -: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [السجدة: ١٦] وقال ثابت البناني: كابدت نفسي على قيام الليل عشرين سنة وتلذذت به عشرين سنة[8]. وقال إبراهيم بن شماس: كنت أرى أحمد بن حنبل يُحيي الليل وهو غلام[9].

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت، حديث رقم: (٧٥٦).
(٢) ينظر شرح النووي على مسلم: (٤/ ٢٠٠).
(٣) شرح النووي على مسلم: (٦/ ٦٢).
(٤) ينظر: شرح رياض الصالحين، للشيخ: محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى -: (٢/ ٩٤).
(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم: (٢/ ٢٣٧).
(٦) الجزء المتمم لطبقات ابن سعد، الطبقة الرابعة، بتحقيق: د. عبد العزيز السلومي، (ص١٦٥).
(٧) حلية الأولياء: (٣/ ٧).
(٨) سير أعلام النبلاء: (٥/ ٢٢١).
(٩) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٢٢٨).

وكان الإمام البخاري يقوم فيتهجد من الليل، فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال[1].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية في ليله منفرداً عن الناس، خالياً بربه، ضارعاً مواظباً على تلاوة القرآن، مكرراً لأنواع التعبدات[2].

إن هذه الفضائل والتأكيدات من الشارع الحكيم جعلت علماء الشريعة يبحثون عن سر هذا الوقت الذي حث الشارع على إحيائه بالقرآن، فنجد أن النووي يشرح ذلك بقوله: (إنما رجحت صلاة الليل وقراءته؛ لكونها أجمع للقلب وأبعد عن الشاغلات والملهيات، وأصوَن عن الرياء وغيره من المحبطات، مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلاً)[3].

ويشاركه ابن حجر العسقلاني بقوله: (لأن الليل مظنة ذلك لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية)[4].

ويوافقهم ابن كثير بقوله: (قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة؛ وأجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهُّمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش)[5].

وهنا تأتي مسألة - قد يستفيد منها المتدبر - جاء ذكرها في الفتاوى الكبرى، وهي مسألة: أيهما أفضل إذا قام من الليل: الصلاة أم القراءة؟

وأجاب عنها شيخ الإسلام ابن تيمية بما يلي: بل الصلاة أفضل من القراءة في غير الصلاة، نص على ذلك أئمة العلماء، وقد قال: (استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن)[6]. لكن من حصل له نشاطٌ وتدبُّرٌ وفهمٌ للقراءة دون الصلاة فالأفضل في حقه ما كان أنفع له[7].

ومن خلال ما سبق يتبين أن المداومة على القراءة في التهجد فيها خيرات عظيمة، وهي معينة جداً على التدبر وتأثُّر القلب وخشوعه، فلا يثبت القرآن في الصدر ولا يسهل حفظه وييسر فهمه إلا القيام به في جوف الليل كما يقوله الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[8]، ويقول السري السقطي: (رأيت الفوائد ترد في ظلام الليل)[9].

إن الاتصال بالمصدر الرباني الذي نزَّل القرآن هو زاد المتقين، وشعار المخلصين. الاتصال به ذكراً وعبادةً ودعاءً وتسبيحاً؛ حيث يلتقي العبد بربه في خلوة وفي نجاء، وفي تطلُّع وفي أُنْس، تفيض منه الراحة على التعب والمشاق الدنيوية، والهموم الحياتية، وتفيض منه القوة على الضعف والقلة.

حيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل، وترى عظمة التكليف، وضخامة الأمانة. فتستصغر ما لاقت وما تلاقي من متاعب الحياة؛ فالله - عزو جل - الرحيم كلف عبده الدعوة، ونزل عليه (القرآن) الزاد الصالح لهذه الرحلة المضنية في هذه الحياة.

نعم هو زاد لأصحاب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل. إنها حقيقة كبيرة لا بد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق من الأتقياء والمصلحين والدعاة إلى الله في هذا الزمن؛ خاصة في هذه المرحلة الانتقالية الحرجة التي تعيشها الشعوب الإسلامية اليوم، فالتعبد لله - عز وجل - في هذه العبادة الليلية؛ نجاح وفلاح للدعوات والمشاريع النهارية.

فالتعرض لنفحات الله - عز وجل - في هذا الوقت وقراءة كتابه والاستعانة بالدعاء والتسبيح؛ هي زاد مضمون يعين على جميع مشاق الحياة وأتعابها.

وبعد، ففي النفس حياء وخجل، وخوف ووجل، فالتقصير حاصل، والفعل دون ذلك بمراحل، والله المستعان، ولكن هو التبليغ ولو بآية، والتذكير إن نفعت الذكرى، ولسان الحال، كشأن ابن الجوزي حين قال: (إلهي وسيدي إن قضيت عليَّ بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي؛ صيانة لكرمك لا لأجلي، لئلا يقولوا: عذب من دلَّ عليه)[10].

فاللهم اجعلنا من عبادك المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، والصابرين على ما أصابهم، والمقيمي الصلاة ومما رزقتهم ينفقون.

---

(١) طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى: (١/ ٢٧٦).
(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للبزَّار، (ص ٣٦).
(٣) التبيان، للنووي، (ص٦٤).
(٤) فتح الباري: (٩/ ٤٥).
(٥) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٥٩).
(٦) يشير إلى حديث ثوبان - رضي الله عنه - الذي أخرجه ابن ماجه: (٢٧٧)، والدارمي: (١/ ٦٨)، والحاكم: (١/ ١٣٠)، والبيهقي (١/ ٤٥٧)، وغيرهم مرفوعاً إلى النبي ﷺ.
(٧) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية: (٢/ ٤١).
(٨) مقدمة أضواء البيان، (ص٤).
(٩) ينظر: الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي، جمع: طارق بن عوض الله: (٢/ ١٨٦).
(١٠) صيد الخاطر، (ص٢٤٩).

الميزة التنافسية للمؤسسات الخيرية

عاصم محمد حسن

الميزة التنافسية هي القيمة المضافة التي تبني عليها المنظمات إستراتيجيتها، فتُميزها عن غيرها، وهي الفرقُ الذي يُحدِثُ الفرقَ، بل تُعرَّف الإستراتيجية بأنها: (الميزة التنافسية)[1]؛ لأن الغاية من وضع إستراتيجية ما، هي: تحقيق التقدُّم على المنافسين في مجال معيَّن، في وقت محدَّد، وأيما مؤسسة اختارت التخطيط الإستراتيجي طريقةً من طرق التخطيط[2]، فعليها أن تفكِّر بجدٍّ في موضوع التنافس.

في عالم المنظمات الربحية يتضح مفهوم الميزة التنافسية بجلاء، وتدرك الشركات أن الزبائن لا يُقْدِمون على شراء سلعهم مع وجود سلع شبيهة؛ إلا لوجود ميزة: إما في السعر، أو الوفرة، أو الجودة، أو خدمات ما بعد البيع، أو في العلامة التجارية، أو غير ذلك. فيظل شغلها الشاغل هو التفكير في المواقف الإستراتيجية التي تضمن لها تفوقاً مستمراً على المنافسين، على المدى القريب والبعيد. وتصبر على ذلك، وتنفق كثيراً لأجله؛ لعلمها أنَّ الفشل في هذا يلزم منه التأخُّر، أو الخروج من لعبة التنافس بالكلية.

وتدقُّ مفاهيم صناعة الميزة التنافسية عند مؤسساتنا الخيرية، فتكاد ترى أغلبها نسخاً متطابقةً، على مستوى ما تقدمه من برامج ومشروعات، ومستوى جودة تقديم هذه البرامج، وطريقة التعامل مع المستفيدين، والمستوى المهني لعامليها. وإذا ذُكر التنافس، تظهر أدبيات مثبطة، منها – على سبيل المثال –:

١ – القول بأن المؤسسات الخيرية تقدم خدمات مجانيةً:

وأن القطاع المجاني لا داعي فيه لإظهار ميزة تنافسية! فأيّاً ما كان فسيجد من ينتفع به، وهذا مزعم تنقصه الدقة؛ فالقطاع الخيري لا يقدِّم خدمات مجانية، بل يأخذ مقابل الخدمة التي يؤديها قيمةً معنويةً تربو في كثير من الأحيان على القيمة المادية التي يأخذها القطاع الربحي مقابل السلعة: من بهجةٍ في الروح وهناءةٍ في البال، وطمأنينةٍ في النفس، وإيواءٍ إلى عون الله – تعالى – الذي يعين من يعين عباده، وإن القيمة النهائية المنتظرة من تلقِّي المستفيد خدمات

(١) شارلز هل وجارديث جونز، الإدارة الإستراتيجية مدخل متكامل، تعريب محمد سيد أحمد عبد المتعال، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة السادسة ٢٠١٠م، ص ٣٠.

(٢) من الاعتبارات المهمة التي يجب أن يستحضرها من اختار طريقة التخطيط الإستراتيجي: التنافس وبيئة العمل؛ حيثُ أصل التخطيط الإستراتيجي هو الحرب، وجذر الكلمة – أصلاً – يعني علم الجنرال أو فنَّ الحرب، فتظهر في طريقة التخطيط الإستراتيجي بوضوح الاعتبارات نفسها التي يعتبرها القادة في الميدان العسكري وهم يتوجهون نحو تحقيق غرض معيَّن. وهناك مناهج أخرى في التخطيط يرتبط بعضها بالتخطيط الإستراتيجي كالتخطيط بالسيناريوهات أو المشاهد المستقبلية وتحليل الاتجاهات والتخطيط بعيد المدى، وبعضها لا يرتبط به كالتخطيط بمتابعة خط الزمن وتحليل التاريخ والاستقراء؛ إذن فمناهج التخطيط كثيرة، والتخطيط الإستراتيجي هو أحدها.

المؤسسات الخيرية – في تقديري – أوفر في احتياجها إلى قيمة مميزة، من تلك التي تقدِّمها المنظمات الربحية. ومع هذا كله فإن كثيراً من العاملين في المؤسسات الخيرية يتقاضَوْن على أعمالهم أجوراً ورواتب. إن خطورة هذا الاعتقاد بعضه يكمن في أنه لن تراعي المؤسسات التي يسود فيها مثله جودةَ الخدمة، وربما تتعامل مع المستفيدين المباشرين على أنهم يتسوَّلون خدماتها، لا أنهم (زبائن) حقيقون بخدمةٍ أنيقةٍ تستبقيهم، وأنهم يستحقون الشكر إذ خصُّوا المؤسسة بحاجتهم، كما قد يظهر تشويه لمن يحرص على بناء ميزةٍ تنافسيةٍ، وصفاً بالتكلف أو (اللعب) بأموال المانحين! ومن ثَمَّ يكون مستوى عام من تدني الكفاءة، بداعي التقشُّف والورع، وهو وازعٌ مطلوب ولا شك؛ إلا أن يتجاوزَ حدَّه، ويدخل في التقتير حتى على الموارد الضرورية التي لا يتم الواجب إلا بتحسينها.

٢ – العمل الخيري عمل تكاملي ولا يجب أن يكون فيه تنافس:

لعل هذا الطرحَ ينظرُ فيه قائلُه إلى ما يُتوَقع من جراء المنافسة دون تفريق بين (آثار التنافس) و (الميزة التنافسية)، أمَا غير ذلك فلا يُظنُّ أن من شروط التكامل أو الشراكات الفاعلة أن لا تحوز الأطراف المتشاركة ميزات تنافسية. إن من أهم الدواعي التي تحمل الأطراف القوية على التحالف هو ظهور ميزات تنافسية تميز شركاءهم عنهم؛ وإلا فلا يرغب أحدٌ في شريك ضعيف يقعد به عن التقدم، بل يرجو غالب من يعمل في إطار يتطلب شراكة حقيقية أن يعقدها مع شريك قويٍّ يفيد من ميزاته. وعلى هذا فمحرِّض التميُّز في إطار الشراكة والتكامل أقوى منه في الأطر التي لا تتطلب ذلك؛ إذ الشراكةُ لا تعني الذوبان في كيان واحد، بل تعني وجود كيانين مميزين. ومن جانب آخر، ما من مؤسسة خيرية إلا وترغب – حقاً – في دعم سخي يصلها من المتبرعين، وتبذل من أجل ذلك أعمالاً، وتقدم تقاريرَ، وتضع موازناتٍ مناسبةً لمشروعاتها خشية أن يرفضها المانح، وترى أنها تقدِّم خدمةً للمستفيدين تجعلها جديرة بتلقي الدعم كغيرها، ولربما أجدر من غيرها. فهي إذن تمارس بشكل أو بآخر طرائق تُظهر بها ميزة تنافسية عن غيرها من المؤسسات، ومع ذلك، يدخل بعضها في شراكات قوية وفاعلة؛ فأين معيقات التكامل إذن؟

٣ – يواجه المسلمون تحديات كبيرة، وسنحتاج لأي مؤسسة – مهما كانت – لسد الحاجة:

وهذا كالأول يستند على حاجة المستفيد، فيشجع على نشوء أجسام – وإن ضعفت – لتغطية الفراغ الكبير في ديار المسلمين، ويُنسى أن كياناتٍ كثيرةً ضعيفةً، لا تنهض بميزاتٍ؛ إنما هي في الختام عبءٌ على مجموع العمل الخيريِّ؛ إذ ستتحول في الغالب أمثال هذه المجموعات – التي تنشأ بأي شكل كان وتعمل كيفما اتفق – إلى عيال على المؤسسات الخيرية الكبيرة، وستجهد هذه الكيانات الضعيفة لإثبات وجودها، وسيتحول الجهد الذي ينبغي صرفه إلى القيام (بالخدمة) وتحقيق الرسالة، إلى جهد يبذل من أجل البقاء فحسب، والرهق لتحصيل الموازنات التسييرية.

٤ – قد يورث تحري الميزة التنافسية شقاقاً بين المؤسسات الخيرية في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى الوحدة:

وهذا كالثاني، يستند إلى احتمال نشوء آثارٍ سلبيةٍ من الميزة التنافسية كالتحاسد والتنافر، وهي احتمالاتٌ واردةٌ كاحتمال ورودها في سائر أحوال الناس التي تتفاوت قرباً وبعداً من النِّعَم، غير أنَّ خوف أثر الحسد لم يكن في يوم داعياً إلى ترك العمل الحسن، أو دافعاً إلى البقاء على وضع يسوء، بل سائر مواقف سادات البشر من الأنبياء والأصحاب – وهم خير من عمل لهذا الدين خدمة وفداءً – إنما هي تمثُّلٌ للمسارعة والمسابقة في الخيرات، وعندما نقرأ المعوذتين نستحضر أن هذه النوازع التي ترتبط بجنس البشر لا سبيل إلى دفعها إلا بحسن اللجوء إلى رب الفلق والناس سبحانه، فإن ظهرت معالم التباغض والحسد بدافع الطبع، فلا مناص من مدافعتها بوازع الشرع كسائر الآفات التي تعتري الناس، فتقعد بهم عن سواء الصراط؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

ويجدر التنبيه على أنه ثمة فروق جلية بين مفهوم التنافس عند المؤسسات الخيرية وتلك التي تتعامل بالربح المادي، نأمل أن تظل عاصمات مما يحذرُه المشفقون على العمل الخيري أن يصيبَه مثل ما يصيب المنظمات الربحية، منها:

١ – أن المؤسسات الخيرية حينما تتنافس، يستحضر عاملوها – وهو الظنُّ بهم والله حسيبهم – الأجرَ المترتبَ على عبادة خدمة

الناس، وأن «أحب الناس إلى الله أنفعهم»[1]، و (أنفع) هذه: صيغة تفضيل كما لا يخفى، تدعو إلى التفكير في التميُّز في الخدمة المقدَّمة.

٢ - أن تنافسها في ما بينها بعيد كل البعد عما قد يذهب إليه بعض المتجهين ربحياً، من عمل لإفناء المنافس وإخراجه من نطاق المنافسة، وبذل مجهودات كبيرة تجسساً لتقصي أحوالهم وكشف أسرارهم، وغيرها من أمراض، بل تنافُسها هو تنافس تربح فيه كل الأطراف، كلٌّ على قدر توفيق الله - تعالى - له، ثم جده واجتهاده في تحصيل عوامل استدامة التفوق.

٣ - معرفة العاملين في المؤسسات الخيرية أن الناس في الآخرة - على قدر أعمالهم - درجات، وأنَّ الجنة درجات وجنان، وأن الترقي في درجاتها - بعد رحمة الله وفضله - رهين إحسان العمل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وأن التنافس بينهم ليس في حطام ولُعاعات؛ إنما في (معالي الأمور وأشرافها)[2]: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

٤ - استحضارهم لأحوال خير البشر بعد الأنبياء: أصحاب رسول الله ﷺ في الجهاد، وهم يصطفون جسماً واحداً للقاء عدوِّهم، ومع ذلك يظهر بينهم من التفاوت في الشجاعة والرغبة في الشهادة والشوق إلى الجنة، ما يحمل على النظر في تنافسهم على الخير بتأمل، رغم مقابلتهم لعدو واحد، وهذه الحال أراها شبيهة بحال المؤسسات الخيرية وهي تقابل فئاماً من المنصِّرين والمفسدين، أو تواجه عدوّاً غير منظور كالكفر أو الفقر أو الجهل أو المرض.

كيف تَنْتُج الميزة التنافسية:

يذكر المتخصصون في الإستراتيجية أنَّ الميزة التنافسية للمنظمات الربحية - خدمية كانت أو انتاجية - تتأتى عن حالتين:

الأولى: التميز في التكلفة.

الثانية: التميز في اختلاف المنتج عن غيره.

وتنتج عن هاتين الحالتين ثلاث إستراتيجيات كبرى للتنافس، هي:

١ - إستراتيجية التكلفة المنخفضة: وتُتَخذ هذه الإستراتيجية عندما تكون هناك فرص مساعدة على تقليل التكلفة، مع وجود زبائن واعين للسوق.

٢ - إستراتيجية تميز المنتج أو الخدمة: تقديم سلعة متميزة، وخدمات ما بعد التقديم، وغيرها من ميزات يصعب على المنافسين محاكاتها.

٣ - إستراتيجية التركيز: استهداف شريحة محددة، أو التركيز على مجال محدد تتميز فيه المؤسسة، أو نطاق جغرافي معين وغيرها[3].

وتختار المنظمات إستراتيجيتها من الخيارات الثلاثة، أو من مزيج منها؛ وهو ما يُحدث لها تفوقاً على منافسيها حسب ما لها من إمكانات، ووفق نتائج تحليلها للبيئة التي تحيط بها، والتي منها: ضغط قوى التنافس.

وغالباً ما تتجه المؤسسات الخيرية إلى الإستراتيجية الأولى: وهي التكلفة المنخفضة. والواقع أنَّ القيمة التنافسية الحقيقية التي تبنى على مدى طويل لا تقتصر على التنفيذ بكلفة منخفضة فحسب؛ بل سيهتم أصحاب المصلحة بالاعتبارات الأخرى، إن عاجلاً أو آجلاً؛ لا سيما مع ظهور تقنيات جديدة تمكِّن من التنفيذ بجودة أكبر وتكلفة أقل، أو مع وجود سياسات أكثر تحديداً للمؤسسات الخيرية لتنفذ أعمالها على مستوى معيَّن من الجودة، أو ظهور فئات تتطلب أعمالاً مخصوصة، وغيرها، كما أن سياسة خفض التكاليف - إلى جوار أنها مدعاة للتنفيذ منخفض الجودة - هي كذلك مدعاة لتحول التنافس إلى صراع؛ إذ سيتجه المانحون إلى دعم المؤسسات التي تعطي تكلفة أقل دائماً! وكما سبق، أيّاً ما اتجهت المؤسسة إلى التركيز على إستراتيجية ما فإنها ستتعرض بشكل أو بآخر إلى ضغط من القوى المؤثرة على التنافس.

القوى المؤثرة على التنافس في المؤسسات الخيرية:

كما تتنافس المنظمات الربحية على طرفين هما: الموردون والزبائن، وتصمم عملياتها لجذب أكبر قدر من الزبائن، ولاستبقاء علامتها التجارية حاضرة عند كل زبون، وتستهدف موردِّين ثابتين يتعاملون معها بقدر جيد من التسهيلات، كذلك تتنافس المؤسسات الخيرية على طرفين مهمين:

١ - المستفيدين المباشرين: وهي المجموعات المستفيدة من خدمة المؤسسة الخيرية، وتتلقى دعمها المباشر.

(١) جزء من حديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، حسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ١٧٦

(٢) جزء من حديث عن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما وهو: «إنّ الله يحبُّ معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها». صححه الألباني في صحيح الجامع برقم ١٨٩٠

(3) Michael E.Porter, Competitive Strategy,The free press, New York, first edition 1980, p: 34

٢ – المانحـــين: وهي المجموعات المانحة التي تســـتفيد من المنظمة في توصيل دعمها إلى المستفيدين.

وتعتبر المؤسســـات الخيرية وســـيطاً فاعـــلاً بين المانحين والمســـتفيدين المباشـــرين؛ حيث تتلقى الدعم من المانح لتقوم بتوصيله إلى مستفيدين محدَّدين.

وتعمل المؤسســـات الخيرية لإيجاد قيمة تجعل المانحين يثقون بها باستمرار، وتجعل المســـتفيدين المباشرين يرضون عن خدماتها التي تقدِّمها لهم، ومن ثَمَّ تضمن مزيداً من الدعم من المانحين،الذين صار بإمكانهم – مع تطور وســـائل الاتصـــال – متابعة أثر دعمهم مباشرة لدى المســـتفيدين المباشرين، ويمكن أن نتصوَّر العلاقة بين المانحين والمؤسسة الخيرية والمستفيدين المباشرين كالتالي:

١ – يتدفق الدعم إلى المؤسسة الخيرية من المانحين، ويصل إلى المســـتفيدين المباشرين على شـــكل برامج ومشروعات عن طريق المؤسســـة من خلال متابعة موظفيها، وتسخير إمكاناتها لذلـــك. وهو ما يجعل حجم الدعم القادم من المانح يذهب جزءٌ منه في ما يسمى «بالمصروفات الإدارية»، ويُعَوَّض هذا النقص في صورة معنوية، تظهر على شـــكل قيمة يتلقاها المستفيدون، وهـــذه النقطـــة فارقة في تنافـــس المؤسســـات الخيرية على المانحين: أيُّ المؤسســـات تســـتهلك مصاريف إدارية أقلَّ لتنتج قيمة أعلى للمستفيد؟

٢ – يتلقى المانحون تقارير الأداء من المؤسســـات الخيرية عن مسار دعمهم، ولكنهم لا يكتفون في الغالب بهذه التقارير؛ بل توافر عندهم من الوعي ما يجعلهم يَقْدُمون مباشرة إلى حيث المستفيدون المباشرون ليقفوا على درجة استفادتهم، الأمر الذي سينعكس على العلاقة بينهم وبين المؤسسة الخيرية، سلباً أو إيجاباً.

٣ – يتواصل المســـتفيدون المباشرون مع المؤسسة الخيرية لكونهم مصدر الدعم المباشـــر لهم، ولكن قـــد يغريهم تواصل المانحين معهم أحياناً بأن يتواصلوا هم كذلك معهم، الأمر الذي سيســـبب (في بعض الحالات) ضغطاً على المؤسسة الخيرية . ولكن المانحين في الغالب لا يســـمحون بتواصل مســـتمر بينهم وبين المستفيدين المباشرين؛ لكونهم ينفقون على إدارة التواصل تكاليف معيَّنـــة للمؤسســـات الخيرية، ويرضـــون باقتطاعها مصروفـــاتٍ لتكفيهم مؤنة المتابعة المباشـــرة، وهـــو ما يوازن الضغط في هذا الجانب. وعلى هذا فإن القوى التي تؤثر على مسار التنافس لدى المؤسسات الخيرية، هي:

١ – ضغط المانحين: وتؤثر عليه عوامل، منها: حجم التكاليف، وجودة المخرجات، وفاعلية التواصل، وسمعة المؤسسة الخيرية.

٢ – ضغط المستفيدين المباشرين: وتؤثر عليه درجة الرضا عن الخدمة المقدمة.

٣ – ضغط المنافســـين المحتملين: وتؤثر عليه درجة مناسَبَة التكاليف التي تنفِّذ بها المؤسســـة برامجها، وســـمعة المؤسسة الخيرية وصورتها الذهنية لدى المانحين.

ويمكـــن تلخيص القـــوى المؤثرة على مســـار التنافس في المؤسسات الخيرية في الشكل التالي:

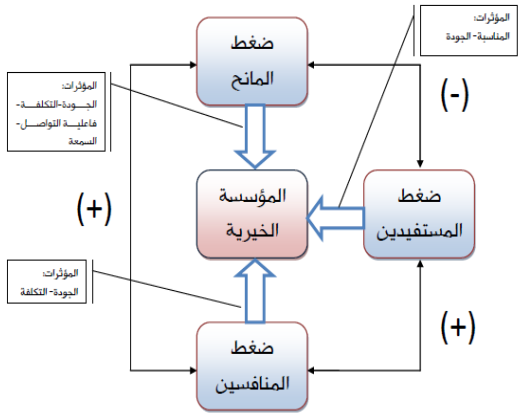

وعنـــد النظـــر إلى هـــذا العلاقـــات على أنهـــا منظومة ترتبط أجزاؤها ويؤثر بعضها على بعض، فسنجد ما يلي:

١ – العلاقة بين ضغط المانحين وضغط المستفيدين طردية (+)، إذا زاد أحدهـــا زاد الآخر، وإن نقص أحدها نقص الآخر، مثلاً: عندما تنفذ المؤسسات التي تتخذ سياسة الجودة أعمالها بتكلفة أكبر، يزيد ضغط المانح المطالب بتقليل التكاليف، ويزيد احتمال تحوُّل المانح إلى مؤسســـة أخرى منافسة تطرح تكاليف أقل، والعكس صحيح؛ فعندما يقل ضغط المانح لكون المؤسسة تنفذ بتكاليف مناســـبة وجودة معقولة، فإن ضغط المؤسســـات المنافسة يقل، وستحاول المؤسسات المنافسة دائماً طرح عروض أفضل للمانحين لتجتذب دعمهم.

٢ – العلاقـــة بين ضغـــط المانحين وضغط المســـتفيدين عكســـية (–)، إذا زاد أحدها نقص الآخـــر، وإن نقص أحدها زاد الآخـــر؛ فعندما تقوم المؤسســـة الخيرية بتنفيذ مشـــروع بجودة عالية وتكلفة أكبر، فإنها تزيد من ضغط المانحين عليها، ولكنها تُرضي المســـتفيدين المباشرين، والعكس صحيح، عندما تنفذ المشـــروعات بتكلفة أقل وجودة أقل، فإنها تزيد من ضغط المستفيدين المباشرين وتقلل من ضغط المانحين.

٣ – العلاقة بين ضغط المستفيدين المباشرين والمنافسين المحتملين طردية (+) كذلك، وهنا نقطة فارقة بين العلاقة بين المستفيدين المباشرين والمانحين، وهي نقطة لالتقاء عوامل متداخلة ولكنها حاسمة، وهي: مناسبة الخدمة وجودتها وتكلفتها، إلى جوار عامل مهم آخر وهو سمعة المؤسسة.

إذن لا مناص للمؤسسات الخيرية إن رغبت في تحقيق ميزة تنافسية متكاملة أن تعتبر كل القضايا آنفة الذكر، وتضيف عليها القيمة الحقيقية التي تميز المؤسسات الخيرية عن المنظمات الربحية؛ ألا وهي قيمة صحة المقصد والتوجُّه، لتصير المعادلة المتكاملة المقترحة للميزة التنافسية للمؤسسات الخيرية كالتالي:

الميزة التنافسية المتكاملة = مقصد صحيح + قيمة عالية للخدمة + عمليات كفؤة + قدرة إنتاجية مستمرة.

حيث يتجه المقصد الصحيح إلى تخليص المؤسسة من مشكلات التنافس آنفة الذكر، وتتجه القيمة العالية للخدمة إلى الاهتمام برضا المستفيدين من خلال مكونات محددة، وتتجه العمليات الكفؤة إلى الجودة، وتتجه القدرة الإنتاجية إلى استدامة النجاح.

ولنقف مع مكونات هذه المعادلة:

المكون الأول: تصحيح المقصد الكلي وتحري نية التعبُّد ورجاء ما عند الله – تعالى – من ثواب:

وهذا فرق جليٌّ بين من يعمل في سبيل الله، وذلك الذي يعمل لغرض وإن أجاده، وعند استحضار قول الحقِّ – سبحانه –: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]، يظهر الفرق المذكور، حيث ينبغي على المؤسسات الخيرية أن تستفرغ جهدها في الإعداد، وتجد في أمورها الفنية، وتبذل ما يعينها على التفوق،وتنفق على ذلك، كما يبذل غيرها من الذين لا يرجون لله وقاراً سياحة على الكوارث واستغلالاً للبسطاء، ولكن يظهر الفرق في المقاصد والغايات، وأيّاً ما كان التنافس بين المؤسسات الخيرية في ما بينها، فعليها أن تتذكر مقاصدها النهائية، وأنَّ الأعداء الذين يجب صدهم ودفعهم كثر، فلا يشغلها التنافس على التحسين، عن الواجب في المواجهة. وتقي صحةُ المقصد العاملينَ في المؤسسات – إن شاء الله – من الوقوع في آفات الفرقة والتنازع، وتجعل قيامها على التجويد والتحسين قربةً لا رياءَ فيها ولا سمعة.

المكون الثاني: صناعة قيمة عالية للخدمة عند المستفيدين:

وتنتج القيمة العالية من الخدمة لدى المستفيد عند الاهتمام بأجزاء ثلاثة، تستهدف المانحين والمستفيدين المباشرين، وهذه الأجزاء هي:

١ – سمات الخدمة.

٢ – السمعة والصورة الذهنية.

العلاقات.

ولكل جزء من أجزاء هذه المعادلة مكونات داخلية يمكن تلخيصها في الجدول التالي:

الأجزاء	المكونات	التفاصيل
سمات الخدمة	المناسبة	ويعني بها في هذا الإطار تحري مناسبة الخدمة التي تقدمها المؤسسة الخيرية للقطاع الذي اختارته لتعمل فيه.
	الجودة	مراعاة مستوى الجودة الذي تقدم به الخدمة للمستفيد المباشر ومستوى جودة العمليات.
	التكلفة	مناسبة تكلفة العمليات التي تنتج الخدمات (كلفة المشروعات – كلفة الخدمات والبرامج...).
السمعة	الصورة الذهنية	حُسْن سمعة المؤسسة لدى كافة أصحاب المصلحة.
العلاقات	الاستجابة	درجة استجابة المؤسسة لحاجيات المستفيدين المباشرين، ودرجة استجابتها لحاجيات المانحين.
	الوقت	سرعة تقديم الخدمة للمستفيدين المباشرين، وسرعة تلبية متطلبات المانحين (الوصول لمنطقة محددة، التقارير، سرعة تنفيذ البرامج والمشروعات...).

المكون الثالث: الاهتمام بالعمليات التي تحقق ميزة تنافسية حقيقية:

لا يتأتى لمؤسسة ما أن تحقق ميزة تنافسية عالية ما لم تهتم بالطرُق والأساليب التي تؤدي بها العمل؛ وهو ما يعرف في أدبيات التخطيط الإستراتيجي بالعمليات الداخلية Internal Business Processes وهو أحد أهم الأركان التي يتأسس عليها العمل الإستراتيجي المتوازن. وهناك جوانب مهمة في هذا المنظور يجب مراعاتها وهي:

الجانب	تعريف مختصر	الخطوات المطلوبة في الجانب
جانب العمليات الأساسية	**هي الأعمال الأساسية، التي يقوم العاملون بالمؤسسة الخيرية بادائها من خلال مواقعهم الوظيفية**	• التصميم: لبرامج ومشروعات يهتم بها المانح، وتفيد المستفيد المباشر، وتتبع من رؤية المؤسسة. • التسويق: وضع البرامج والمشروعات في قوالب متميزة تجذب المانحين، وتعظّم قيمة الخدمة التي تقدمها المؤسسة الخيرية عند أصحاب المصلحة (الحكومة، المواطنين، الجهات المساندة، الشركاء...). • التنفيذ: تنفيذ المشروعات والبرامج من خلال وحدات العمل داخل المؤسسة بالجودة المطلوبة والتكلفة المناسبة . • المتابعة: أثناء تقديم الخدمة وبعدها.
جانب المستفيدين	**هي الأعمال التي تقوم بها المؤسسة الخيرية لتحقيق رضا المستفيدين بتعميق العلاقة معهم**	• الاختيار: اختيار الفئة المستهدفة من العمل (المستفيدون المباشرون)، وتحديدهم بدقة، وتحديد الداعمين والمانحين المتوقعين للبدء في إحداث علاقة مستمرة معهم. • كسب الفئة المستهدفة: وذلك من خلال تلبية متطلباتهم، اختيار مستوى الخدمة المقدمة ومناسبتها لنوعية المستفيدين ومناسبة كلفتها للمانح. • استبقاء المستفيدين: وذلك من خلال تمتين العلاقة مع المانحين والمستفيدين المباشرين، بالتواصل الفاعل، والإشراك في القرارات.
جانب التطوير والابتكار	**وهي الأعمال التي تمكّن المؤسسة من ابتكار خدمات ومبادرات جديدة وتطويرها، أو تطوير عمليات نوعية**	• الاكتشاف المستمر: البحث عن المستفيدين أو المجالات التي يمكن للمؤسسة أن تغطيها. • الاهتمام بالبحوث والدراسات: بحيث تجعل المؤسسة وحدة مهتمة بالبحوث والدراسات والإحصاءات التي تساعد على تطوير الخدمة. • التطوير: التفكير في الأنماط التي يمكن أن تجعل المشروع أو الخدمة أو المنتج الخيري أكثر فائدة للمستفيد المباشر وأقلّ كلفة على المانح.

المكون الرابع: الاهتمام بالقدرات الإنتاجية للمؤسسة:

وذلك من خلال:

١ - بنـــاء قدرات العاملين: وذلك بتدريبهم وتأهيلهم باســـتمرار لما يمكّنهم من تحقيق غايات المؤسسة، وتعزيز هذه المهارات بالتعلم المستمر.

٢ - تأسيس بنية معلوماتية شاملة: وذلك بتجويد النظم المعلوماتية الداخليـــة، وإتاحة المعلومات المطلوبة وتيســـيرها وقت الطلب والحاجة واختيار البرامج الحاسوبية التي تقلل من هدر الوقت والمساحات العمياء.

توفيـــر بيئة عمل منظمة: بتعزيز قدرة المؤسســـة على الاســـتجابة للمتغيرات بوعي، من خلال نظم داخلية فاعلة، وهياكل مرنة ومناســـبة، وبيئة صحية للعمل.

والعلاقة بين هذه المكونات الأربعة هي علاقة سبب ونتيجة؛ حيث: يُمكّنُ الاهتمامُ بالقدرات الإنتاجية الأساســـية للمؤسســـة عامليها من القيام بالعمليات بصورة كفؤة، فيتحقق بذلك رضا المســـتفيدين، من مانحين ومستفيدين مباشرين، فتتحقق للمؤسسة ميزة تنافسية متكاملة.

ولعلنـــا نلخص العلاقـــات بين هذه المكونات الأســـاســـية الأربعة وتحقيق ميزة تنافسية متكاملة في الشكل التالي[1]:

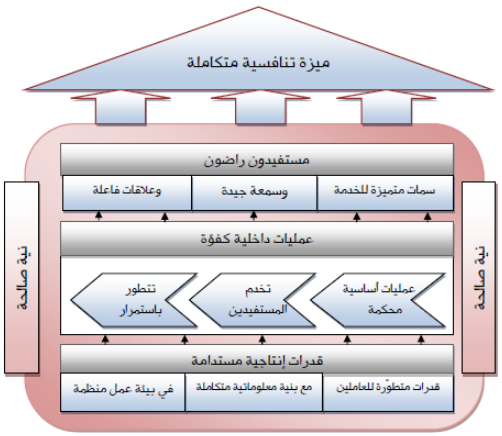

ختاماً:

يمكن تلخيص القول في أنه إذا أرادت المؤسســـة الخيرية تحقيق ميـــزة تنافســـية متكاملة، فـــإن عليها تجاوز قصور الميـــزة الواحدة (تقليل التكاليـــف)، وصناعة القيمة الحقيقية من خلال تمتين بنيتها الداخلية بتهيئة بيئة منظمة، ومســـاعدة على الإنجاز،وإعداد عاملين مؤهلين، قادرين على تنفيذ عمليات داخلية كفؤة، تصنع قيمة حقيقية للمستفيدين، يســـتصحب عاملوها في ذلك كله نيّة التقرّب إلى الله العزيز الرحيم، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَـــيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧] . والله الموفق وعليه التكلان.

(١) مطوَّر من: Robert S.Kaplan.Daveid P. Norton.The Strategy Maps.Harvard Business School Publishing Corporation،٢٠٠٤،p.٣١

المؤسسية بين التنظير والممارسة

د. محمد ناجي عطية(*)
abo_gassan@hotmail.com

المفهوم المعاصر للعمل الجماعي هو العمل المؤسسي. فقد دخلت المؤسسة في وقتنا الحاضر إلى كل مناشط حياتنا اليومية؛ حتى أصبحنا - صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً - نمارس حياتنا كلَّها ليلاً ونهاراً في مؤسسات، وذلك منذ أن ترى عيوننا نور الحياة حتى نغادرها. ولا عجب في ذلك؛ فإن السمة العصرية الأبرز لهذا الزمان هي المؤسسية.

وكثير منا اليوم يمارسون قيادة المؤسسات أو بعض أجزائها، وقد تكون تلك المؤسسات من التي يعوَّل عليها في إصلاح أوضاع الأمة؛ سواء كانت تلك المؤسسات حكومية أو غير حكومية. ومع ذلك فكثير من قادة تلك المؤسسات لا يسعفون أنفسهم بالتعرف على أسس ومبادئ إدارة المؤسسات، والطرق الميسرة الكفيلة بجعلها قادرة على تحقيق أهدافها وَفْقَ ما هو مأمول منها. لذلك يلجأ أكثرهم إلى تقليد أقرانهم في إدارتهم للأمور، وربما اجتهدوا من خلال الخبرة والواقع العملي والعمل بمبدأ التجربة والخطأ، حتى تمضي السنون وقد قطعوا شوطاً هائلاً أُهدِر خلاله كثير من الموارد، مقابل نتائج ضعيفة وربما تكون مخيبة للآمال.

لهذا السبب نجد أن الناجح والموفَّق من مؤسساتنا قليل. بينما كثير منها تعاني من مشكلات جسيمة ومعوقات كبيرة. والسبب في ذلك يرجع إلى الإهمال في تعلُّم أبجديات طرق إدارة المؤسسات، التي هي ثمرة الخبرة الإنسانية المتراكمة عبر العصور. وقد باتت في هذا الزمان - بفضل الله - ميسَّرة الطرق للحصول عليها وتعلُّمها، بل أصبحت عملية التدريب عليها متاحة بأيسر وأفضل وأمتع الأساليب والوسائل. ونتيجة لذلك ظهرت المنافسة بين المؤسسات الجادة على مستوى العالم باحترام المعايير المؤسسية، حتى أصبحت تلك المعايير مؤشراً على نجاح أو فشل المؤسسات، ومقياساً على مدى تقدُّمها أو تأخُّرها أمام أقرانها ومنافسيها.

(*) مساعد رئيس جامعة الأندلس - صنعاء.

وفي مقابل موجة الاهتمام بالمؤسسية في الأعمال، برز صنف من القادة جمع بين الجهل بمبادئ العمل المؤسسي والتلبُّس بشعاراته ادعاءً، في حين أنهم لم يسلكوا السبيل السهل المتاح لتحقيق هذه المبادئ. لقد أبدى هؤلاء إظهار قناعتهم بهذه المبادئ والمعايير والإعلان عن التزامهم بها، عن جهل ودون وعي ودراية، في الوقت الذي تفتقد فيه مؤسساتهم إلى روح الفريق الجماعي فضلاً عن التنظيم. فوقعوا في خطر داهم؛ إنه مزلق التنظير غير المسنود بالتطبيق العملي، فتراهم يرفعون الشعارات الجوفاء عن المؤسسية وهم عنها بعيدون كل البعد. لقد صاروا للمؤسسات كاسين عارين؛ كاسين برفع شعاراتها، عارين عن حقيقتها، مائلين بسلوكهم العملي عن جادة طريقها، مميلين لمؤسساتهم عن سبيل النجاح والتطور. فهم بذلك لم يجيدوا قيادة مؤسساتهم ولم يتيحوا المجال لغيرهم من العارفين بتولي قيادة تلك المسؤوليات الجسيمة.

فما أحوجنا في هذه الحالة للوقوف أمام معنى المؤسسة والمؤسسية والعمل المؤسسي، واستلهام المعاني منها حتى تتضح حقيقة الفرق في معنى المؤسسية بين النظرية والتطبيق.

تعريف العمل المؤسسي:

عرَّف كتَّاب الإدارة العملَ المؤسسي بأنه: «شكل من أشكال التعبير عن العمل التعاوني بين الناس، والميل بقبول العمل الجماعي وممارسته، شكلاً ومضموناً، نصاً وروحاً، وأداء العمل بشكل منسق قائم على أسسٍ ومبادئ وأركان وقيم تنظيمية محددة»[1]. وعرَّفوه أيضاً، بأنه: «التجمع المنظم بلوائح يوزع العمل فيه على إدارات متخصصة ولجانٍ وفِرَق عمل؛ بحيث تكون مرجعية القرارات فيه لمجلس الإدارة، أو الإدارات في دائرة اختصاصها؛ أي أنها تنبثق من مبدأ الشورى، الذي هو أهم مبدأ في العمل المؤسسي»[2]. وقال آخرون هو: «كل تجمع منظَّم يهدف إلى تحسين الأداء وفعالية العمل لبلوغ أهداف محددة، ويقوم بتوزيع العمل على لجان كبيرة، وفِرَق عمل، وإدارات متخصصة (علمية ودعوية واجتماعية)؛ بحيث تكون لها المرجعية وحرية اتخاذ القرارات، كلٌّ في دائرة اختصاصاته»[3].

حقيقة العمل المؤسسي:

ولو تأملنا التعريفات الوارد ة أعلاه، لوجدنا أنها اشتملت على مجموعة من الحقائق تُبرِز بمجملها مفهوم المؤسسية الذي نناشد به، وهي ما نرجو من قادة المؤسسات الاعتبار بها؛ لأنها أصبحت من ضرورات العمل الجماعي الذي يحترمه الجميع ويناشد به الكل، وإن تهرَّب بعض الناس من لوازمه وضاقوا بمقتضياته ذرعاً، فمن تلك الحقائق:

١ - أن العمل المؤسسي يعني ممارسة العمل الجماعي نصّاً وروحاً: فلا جدوى لمن يدَّعي العمل المؤسسي وهو لا يمارسه على أرض الواقع؛ فإنه حينئذٍ يكون سالكاً لطريقة الشعارات الجوفاء التي يبهرك بريقها، بينما يغيب الحد الأدنى من ممارستها في الواقع.

وربما يمارس مجرد التنظير، فيغرقك بسيل من النظريات والحلول غير العملية بينما تجد ممارسته في الواقع خلاف ما يكتب أو يقول.

٢ - إن ممارسة العمل الجماعي لا بد أن تكون نابعة من قناعة ذاتية ترتبط معها الأقوال بالأفعال، وإلا دخلت في الذم المقصود بقوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

٣ - وهنا يأتي مبدأ التعاون أساساً معبراً عن روح العمل الجماعي: فليست العبرة من اجتماع القوم هي مجرد الاجتماع فحسب؛ بل إن الغاية من ذلك هي أداء العمل بروح الفريق الواحد المتعاون، الذي تكون فيه مصلحة المجموعة أو المؤسسة أو ربما المبادئ أعلى من مصلحة الفرد، مع الاعتراف الكامل بحقوق الأفراد المعنوية قبل المادية، باعتبار أن الفرد الصالح هو اللَّبنة الأساسية في العمل الجماعي السليم.

إن هذا التعاون هو ثمرة من ثمرات حُسْن القيادة واحترام مشاعر أفراد الفريق وكسب رضاهم باستمرار؛ ليس بالمال والمادة فحسب؛ بل ببذل المعروف والكلمة الطيبة والثناء الحسن وعدم التهميش أو ظهور القادة على حساب الأفراد، أو تسلُّق بعض المستقوين على حساب بعض المستضعفين، وممارسة بعض الأخلاقيات المشينة؛ مثل: الالتفاف على مصالح الأفراد، أو تمييز بعضهم على بعض، أو الاستئثار بالمصالح والمميزات دون مراعاتهم، أو تمييز القادة لأنفسهم أو مقربيهم على حساب بقية أفراد الفريق.

---

(١) انظر: محمد ناجي عطية، البناء المؤسسي في المنظمات الخيرية، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٦م، متوفر على الإنترنت، موقع الإسلام اليوم.

(٢) انظر: المرجع السابق.

(٣) انظر: المرجع السابق.

٤ – العمل المؤسسي هو العمل المبني على النظام والأسس والمبـادئ والأركان والقيم التنظيميـة الواضحة والمحددة، مع احترام العمل وأدائه بشكل منسق، والتوازن بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، وبين متطلبات الأفراد ومتطلبات العمل، في بيئة من الوضوح والشـفافية، تحكمها المعايير الدقيقة واللوائح العادلة والمرنة، وتصبـح كل الفرص متكافئة أمام الجميع، في العطاء والمنـع، محكومة بمدى القرب أو البعد من تلك المعايير أو الإخلال بتلك اللوائح.

وتلك المعايير والأنظمة تكون منبثقة عن منظومة من القيم والمبادئ التي تهيمن على حياة الجميع؛ فالجميع (قادة وأفراداً) يجب أن يكونوا محكومين بتلك القيم والمبادئ التي صيغت بعد اقتناع وإيمان. ويجب أن يثقف الأفراد بها، وأن تتم حراسـتها وصيانتها من عبث العابثين وتأويلات المتأولين. ويجب أن تكون هذه من أشـهر وظائف القائد في العمل المؤسسي، فإن لم تكن هـذه البدهية واضحة لدى قادة المؤسسـات؛ فماذا تعني لهم المؤسسية إذن؟

٥ – تقسـيم وتوزيع الأعمال والأدوار والمهام على المجالس القيادية والإدارات والأقسام واللجان وفِرَق العمل؛ بحيث يراعى في التقسيم التخصص لكل جزء من العمل، وحدود الصلاحيات الممنوحة بحسـب حجم المسـؤولية التي تحمَّلها ذلك الجزء. على أن تبقى وظيفة المجلس القيادي هي التنسـيق والتشجيع والتحفيز والتطوير وحل المشـكلات، فضلاً عن قيادة المؤسسة باتجاه المسـتقبل الذي تطمح إليه، ويطمح أن يبلغَه الأفراد من خلال مؤسستهم (المحبوبة)، التي نالت رضاهم واحترامهم بعد أن أشبعت احتياجاتهم المادية والمعنوية، وشاركتهم كما شاركوها في الأفراح والأتراح.

٦ – مرجعية القرارات في العمل المؤسسي لمجالس الإدارة: فالمؤسسـية تعني أن تُتَّخذ القرارات بصورة جماعية لا فردية، سـواء في ذلك القـرارات التي تهم الأفراد أو المؤسسـة؛ فلا مجال لتسـلط الأفراد إلا بحدود من الصلاحيات الممنوحة من تلك المجالس وَفْق ضوابط وآليات محددة للرقابة على سـلطة صاحب القرار.

إن القيادة عن طريق المجالس هي ضمان سـلامة وصمام أمان لحماية المؤسسات من شطحات الأفراد واجتهاداتهم غير المنضبطة، وصَهْـر كلِّ اجتهادات الأفراد وإبداعاتهم في بوتقة من الفكر الجماعي المنضبط والمبارك بالبركة التي تحل عليهم، لقول النبي ﷺ: «يد الله مع الجماعة»[1].

كما أن المجالس صمام أمان لحماية الفرد من هواه ومزاجه ونفسـه الأمَّارة بالسوء. فكلما راودته نفسـه بالميل إلى هواه، أو الاسـتقواء بمكانتـه أو منصبه، أو الميـل إلى رؤاه الخاصة ومصالحه الشـخصية بعيـداً عن مصلحة المؤسسـة وخلافاً لأهدافهـا أو قيمها، راجعه الآخرون فـي تلك المجالس وردُّوه إلى جادة الصواب.

وقد تُظهِر بعض المؤسسـات مشـكلة الفرد المهيمن على الأعضاء بشكل يجعل منهم ستاراً لفرديته ويعمد إلى تهميشهم عـن مواطن صنع القرار. وهذا الأمر يفضي بطول ممارسـته وسكوت الأعضاء عنه رغباً ورهباً إلى الدبيب الهادئ لمبدأ (ما أريكم إلا ما أرى).

٧ – للإدارات الفرعية نصيب من تلك المجالس بما يجسد التخصصيـة واللامركزية: فأما التخصصيـة فلأن تفاصيل عملهـا لا يعلمه من هو أعلـى منها، وهو سـر تميُّزها. وأما اللامركزية فلأن توسـيع دائرة القائمين بالعمل والمشاركة في صنع القرار وتحمُّل المسـؤولية تعطي المجالـس العليا فرصة للتطويـر والتجديد والرقابة والتوجيـه، وللآخرين قدرة على التطور والمشاركة الفاعلة في تحمُّل المسؤولية.

ختاماً:

نحـن نؤمن بـأن الله – تعالى – يدعـو للاجتماع ويبارك ثمرته. قال رسـول الله ﷺ: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة، وإن الشـيطان مع الواحد وهـو من الاثنين أبعد»[2]. وقال ﷺ: «إياكم والفرقة فإن الشـيطان مـع الواحد وهو مع الاثنـين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فَلْيلزم الجماعة»[3]. وقد جاءت أغلب العبادات لتعزز روح الجماعة المسلمة بكافة صورها (السياسية والاجتماعية والسلوكية).

تأمَّل في هـذا تعرف معنى البركة فـي عمل الجماعة، وما هو السـر المحذور في عمل الأفـراد المنفصم عن عمل الجماعة.

---

(١) صححه الألباني.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان. وفي الأحاديث المختارة للضياء المقدسي من خطبة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – في الجابية، أن رسول الله ﷺ قال: «من سرَّه أن ينال بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة؛ فإن يد الله على الجماعة، وإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد»، وأخرج الطبراني في المعجم الكبير عن عرفجة قال: سمعتُ رسول الله يقول: «يَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَالشَّيْطَانُ مَعَ مَنْ خَالَفَ الْجَمَاعَةَ يَرْكُضُ»، وهو في كنز العمال برقم: ١٠٣١.

(٣) رواه أحمد والترمذي والحاكم، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع: ٢٥٤٦.

تسجيلات الراية الإسلامية

تعلن عن صدور الجديد من

أشرطة الدروس والمحاضرات العلمية

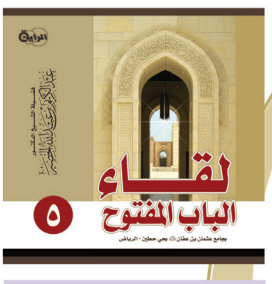

متوفر على كاسيت وسي دي

وقريباً بإذن الله...

شرح كتاب أخصر المختصرات
للشيخ صالح الفوزان

شرح كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري
للشيخ عبد الكريم الخضير

تسجيلات الراية الإسلامية

الرياض - الربوة - شارع عمر بن عبد العزيز - ص.ب ٤٠١٢٤
الرمز ١١٤٩٩ - هاتف ٤٩١١٩٨٥ - ٤٩٢١٣٩٣ فاكس ٤٩٣١٨٦٩

من كان يرجو لقاء اللّه

عبد العزيز الشامي(*)
Omarez1973@hotmail.com

عجيب أمر هذا الإنسان؛ يبحث عما يضره، ويترك ما ينفعه، ويرجو من لا يملك، ويناى عمَّن بيده كلُّ شيء، ويتطلع إلى كلِّ عاجز فقير مثله، ويأمل من الضعيف الذي لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وتتقطع نفسه حسرات على دنيا يرجوها، وأمنيات زائلة، وأحلام بائسة، يطرق كلَّ الأبواب إلاَّ باب ربه، ويخاف من كل أحد إلا منه، ويطمع في كل عطاء إلا عطاءه؛ فما أجهل ابن آدم بربه! وما أظلمه!

ومن العجيب حقّاً أن الإنسان قد يموت أبواه أو أحدهما، أو يرحل عنه ابن أو بنت، أو قد يفارق أخاً له بسفر أو عمل أو موت، أو يفارق امرأته بموت أو طلاق بعد عشْر سنين، وعندما يتذكر هؤلاء يشتاقُ إليهم، ويتمنى أن لو عاد به الزمن إلى الوراء فينظر في وجوههم، ويصغي إلى حديثهم، ويلبِّي مطالبهم، ويستبد به الشوق إلى رؤيتهم، وقد يأخذه البكاء والحنين إليهم! والأعجب من ذلك أنه لا يأتي في باله يوماً أن يرجو لقاء ربه، أو أن يشتاق إلى النظر إلى وجهه الكريم! فلا تحدِّثه نفسه بذلك؛ بل إذا ذُكِّر بالموت أو وُعظ به ربما ساءه ذلك، ولم يتطلع يوماً أو يشتاق إلى النظر إلى وجه ربه، فضلاً عن تمني لقائه.

ولا يرجو لقاء الله ويشتاق للنظر إلى وجهه الكريم إلا العبد المحسن الموفَّق. قال الله - تعالى - يقول في كتابه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]. في الآية كما يقول سيد قطب - رحمه الله -: «تطمئن الذين يرجون لقاء الله، ووصل قلوبهم به في ثقة وفي يقين ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]. فلتقرَّ القلوب الراجية في لقاء الله ولتطمئن، ولتنتظر ما وعدها الله إياه انتظار الواثق المستيقن، ولتتطلع إلى يوم اللقاء في شوق ولكن في يقين. والتعبير يصور هذه القلوب المتطلعة إلى لقاء الله صورة موحية. صورة الراجي المشتاق، الموصول بما هناك. ويجيب على التطلع بالتوكيد المريح. ويعقب عليه بالطمأنينة الندية، يدخلها في تلك القلوب. فإن الله يسمع لها، ويعلم تطلعها: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾»(١).

وفي مقابل شوق القلوب الصالحة والأنفس المطمئنة ورجاؤها للقاء ربها، هناك فريق لا يرجو ولا يطمع في لقاء الله. قال - تعالى -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]. قال سيد - رحمه الله -: «إن المشركين لا يرجون لقاء الله؛ أي لا ينتظرون هذا اللقاء، ولا يحسبون حسابه، ولا يقيمون حياتهم وتصرفاتهم على أساسه. ومن ثَمَّ لا تستشعر قلوبهم وقار الله وهيبته وجلاله، فتنطلق ألسنتهم بكلمات وتصورات لا تصدر عن قلب يرجو لقاء الله»(٢).

وقد بيَّن النبي ﷺ أحوال الخلق في هذا الأمر بألفاظ واضحة؛ فبيَّن أن رجاء لقاء الله وتمني لقائه يختلف باختلاف أحوال الناس الإيمانية والعبادية، وأن العبد كلما كان أكمل توحيداً وأخلص عملاً، وأفضل حالاً، وأتبع للسنة، فسيتمنى

(*) باحث شرعي وكاتب ومدقق لغوي - مصر.

(١) في ظلال القرآن: ٥/٤٥٢.
(٢) في ظلال القرآن: ٥/٣١١.

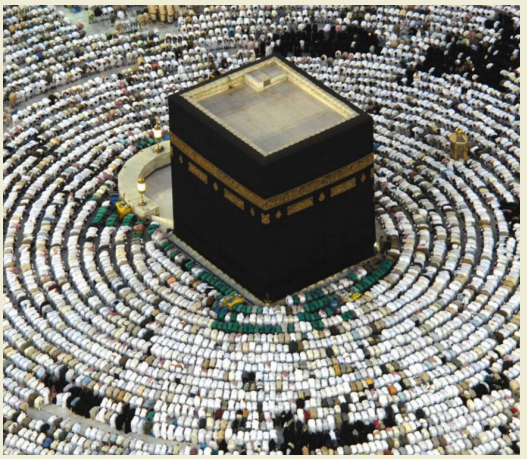

لقاء الله ويحبه إذا بُشِّر به بخلاف غيره؛ فعَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ». فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ. فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»(١).

وللإمام ابن القيم - رحمه الله رحمة واسعة - كلام نفيس في رجاء لقاء الله، وبيان أحوال أهل هذه المنزلة والدرجة من عباد الله. قال - رحمه الله - في منزلة الرجاء: (قال الله - تعالى -: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب والخوف والرجاء. قال - تعالى -: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال - سبحانه -: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال - تعالى -: ﴿أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وفي صحيح مسلم عن جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»، وفي الصحيح عنه: «يقول الله - عز وجل -: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء»(٢).

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.

الرجاء (تعريفه وأقسامه):

الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو الله والدار الآخرة، ويطيِّب لها السير، وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه، وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى. والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل؛ فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها. والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع. ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم؛ فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راجٍ لثوابه، ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها فهو راجٍ لمغفرة الله - تعالى - وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب. وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله يفتح عليه باب الخوف إلى سعة فضل ربه وكرمه وبرِّه. ونظر يفتح عليه باب الرجاء؛ ولهذا قيل في حدِّ الرجاء: هو النظر إلى سَعة رحمة الله.

وقال أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير، وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

علامات صحة الرجاء:

قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء: حُسن الطاعة. وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر؛ راجياً لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة، وتمام عفوه عنه في الآخرة.

واختلفوا أي الرجائين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه أو رجاء المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه؟ فطائفة رجَّحت رجاء المحسن؛ لقوة أسباب الرجاء معه، وطائفة رجحت رجاء المذنب؛ لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب.

قال يحيى بن معاذ مناجياً لربه - تبارك وتعالى -: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال؛ لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحرزها، وأنا بالآفات معروف؛ وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف. وقال أيضاً: إلهي أحلى العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الساعات إليَّ ساعة يكون فيها لقاؤك» اهـ[1].

بل الرفيق الأعلى:

وكان نبينا ﷺ أبعد الناس عن الدنيا، دائم التطلع للقاء ربه، يشتاق لرؤية الله - تبارك وتعالى - ويدعو ربه أن يرزقه حقيقة الشوق وأعلاه، فعن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقول في الصلاة: «اللَّهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي! اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرَّة عين لا تنقطع، اللهم، إني أسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم، زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[2].

ولهذا لما خُيِّر ﷺ بين الدنيا والآخرة، اختار لقاء الله؛ فعن عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ - وَهُوَ صَحِيحٌ -: «إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرَ»، فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى»، فَقُلْتُ: إِذاً لَا يَخْتَارُنَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ، قَالَتْ: فَكَانَتْ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى»[3].

وعَنْ أَبِي مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ، فَانْطَلِقْ مَعِي، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ! لَيَهْنِ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمُ اللَّهُ مِنْهُ، أَقْبَلَتِ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَتْبَعُ أَوَّلُهَا آخِرَهَا، الْآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الْأُولَى، قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ! إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي - عَزَّ وَجَلَّ - وَالْجَنَّةَ. قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ. قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، لَقَدْ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَنَّةَ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَبُدِئَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِيهِ حِينَ أَصْبَحَ»[4].

كيف يرجو العبد لقاء ربه؟

شرع الله محكم لا يحابي أحداً، ولا يفضِّل أحداً على أحد لمجرد لونه أو جنسه أو حَسَبِه ونسبه، بل جعل الإسلام الناس متساويين في أصل التكليف، وشرع لهم سبل القرب من ربهم، وفتح لهم آفاق zمعرفته ومحبته وطاعته والاقتداء بسنة نبيه ﷺ، ونبَّه ربنا - جل وعلا - عباده إلى أن طريق الرجاء الحقيقي طريق بذل وعمل، وجد واجتهاد، وتضحيات، وليس مجرد أمنيات فارغة. قال - تعالى -: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣ - ١٢٤].

فالرجاء في الله والشوق إلى لقائه ليس عبر أماني الحالمين؛ بل لا بد لهذا الشوق والرجاء من عقيدة صافية،

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣٤ ٣٥ بتصرف يسير.
(٢) أخرجه الحاكم (١٩٢٣) وابن حبان، وصححه الألباني.
(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري (٤٤٦٣).
(٤) مسند أحمد (١٦٠٤٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٣١٢): رواه أحمد والطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات، وضعفه الألباني.

وأعمال صالحة، ونيات صادقة. قال - تعالى -: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]. فالرجاء في الله والشوق إلى لقائه لا بد فيه من تعب وكدٍّ، وإنفاق وواجبات، وبعد البذل والإحسان تأتي منزلة تمني ما عند الله والرجاء فيه. قال - تبارك وتعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فبعد الإيمان والهجرة والجهاد والإنفاق في سبيل الله، بعد هذا كله تأتي درجة رجاء رحمة الله.

ووضَّح لنا ربنا - جل وعلا - أن من صفات الراجين لفضل الله ورحمته، المتطلعين للقائه، المشتاقين لربهم أنهم يقتدون برسل الله وخيرته من خلقه، ويقتفون آثرهم في الإيمان والعمل الصالح. قال - تعالى -: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقال - جل وعلا -: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة: ٦].

فلا يكون المسلمُ راجياً لله حقّاً حتى يكون عمله صالحاً، فالرجاء لله لا يكون إلا بعد الأعمال الصالحة، فيرجو من الله قبول ذلك العمل، والإثابة عليه؛ أما مجرد رجاء مع تهاونٍ وتعطيلٍ للأوامر وارتكاب للنواهي، فتلك الأماني والغرور. قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فبأعمالهم الصالحة التي عملوها إخلاصاً لله، وقياماً بالواجب، صاروا ممن يرجون رحمة الله؛ فالرجاء بلا عمل أمانٍ كاذبة. قال - تعالى - مبيِّنا فساد الرجاء مع ترك العمل الصالح: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]، فما داموا في الحياة متفاوتين فهم كذلك بعد الموت متفاوتون. قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦].

وإذا كان النبي ﷺ قد فضَّل الرفيق الأعلى، واختار لقاء الله، فعلى دربه سار أصحابه الذين كانوا يرحبون بالموت، ويحسنون استقباله؛ فهذا بلال بن رباح مؤذن النبي ﷺ يأتيه الموت، فتبكي زوجته وتولول وتقول: وا كرباه وا حزناه عليك يا بلالاه! فقال بلال: لا تقولي وا كرباه، بل قولي: واطرباه... غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه.

وهذه أسماء بنت عميس - رضي الله عنها - تقول: إنَّا لَعِنْد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بعد ما ضربه ابن ملجم؛ إذ شهق ثم أغمى عليه ثم أفاق، فقال: مرحباً مرحباً، الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الجنة. فقيل له: ما ترى؟ قال هذا رسول الله، وأخي جعفر، وعمي حمزة، وأبواب السماء مفتحة، والملائكة ينزلون يسلمون عليَّ ويبشرون، وهذه فاطمة قد طاف بها وصائفها من الحور، وهذه منازلي في الجنة ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١]. وعن كثير بن زيد قال: كبر حكيم بن حزام - رضي الله عنه - حتى ذهب بصره، ثم اشتكى فاشتد وجعه، فقلت لأحضرنه ولأنظرن ما يتكلم به، فإذا هو يهمهم ويقول: لا إله إلا الله، أحبك وأخشاك. حتى مات. ولما مرض معاذ بن جبل - رضي الله عنه - مَرَض وفاته قال في الليلة التي تُوفي فيها: أعوذ بالله من ليلةٍ صباحها إلى النار، مرحباً بالموت حبيباً جاء على فاقة، اللهم! إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم! إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الليل ومزاحمة العلماء بالركب عند حِلَقِ الذكر.

وقيل للحافظ عبد الغني النابلسي - رحمه الله - عندما أتته الوفاة ما تشتهي؟ قال: أشتهي النظر إلى وجه الله الكريم.

وقيل لبعضهم: أين نطلبك في الآخرة؟ قال: في زمرة الناظرين إلى الله، قيل له : كيف علمت ذلك؟ قال: بغَضِّ طرفي له عن كل محرم، واجتنابي فيه كل منكر ومأثم، وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه.

وبعدُ أخي الكريم! فهذه هي أماني الصالحين، وتلك أعمالهم، تُرى ما الفارق بيننا وبينهم؟ كانوا يرجون لقاء الله ويشتاقون إليه لفضلهم وأعمالهم، ونحن لا نرجو لقاء الله، ولا نشتاق إليه، وصرنا نكره قدوم الموت ونخاف زيارته ويرتعد القلب وجلاً من ذكره، فتدارك أخي نفسك طالما في العمر أنفاس..

اللهم! أسألك برَد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم! زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين.

مراكز مقترحة لرعاية الشباب الموهوبين

د. مصطفى عطية جمعة
mostafa_ateia123@yahoo.com

يسلط هذا المقال الضوء على اقتراح بفكرة عن المراكز الوقفية لرعاية الموهوبين والعباقرة الشباب، تحاول أن تكمل دور وزارات التربية والشباب والرياضة وسائر الهيئات التي ترعى الشباب، وهي تنطلق من فكرة مبسَّطة أساسها السؤال التالي:

كيف يتم احتواء وإرشاد وتوجيه ورعاية الشباب الموهوب في المجالات المختلفة؟ وكيف يتم توجيه جهوده نحو خدمة المجتمع وتحقيق إضافات علمية واختراعات وابتكارات؟ ومن ثَمَّ توثيق هذا، وإيجاد الحافز والدافع لدى الشاب الموهوب حتى لا تأكله مشكلات الحياة، وهمومها، ومن ثَمَّ تتلاشى مواهبه أو تظل دون صقل أو رعاية، وتضيع على المجتمع عقول لو تمكنت وأخذت فرصها لغنم المجتمع كثيراً جداً، ويكفي أن هناك بعض الدول الغنية والمتقدمة تعيش على ريع اختراع واحد أو اختراعين لأبنائها، وأن هناك دولاً حلت مشاكلها العويصة بأفكار أبنائها البسطاء الذين يعيشون الهمَّ المجتمعي، ويفكرون في سبل الحل، بدلاً من استيراد الحلول من الآخرين مقابل أموال طائلة. ومن هنا تأتي أهمية هذه الفكرة التي تحمل اقتراحاً محدداً، وهو: تأسيس مراكز وقفية لاكتشاف المواهب ورعايتها وتبنيها، وفي حالة تطبيقها ونجاحها يمكن تطوير الفكرة، ونقلها إلى سائر الدول العربية والإسلامية.

تعاني الفئة العمرية من سن الثامنة عشرة سنة إلى سن ثلاثين سنة تهميشاً واضحاً، وعدم رعاية من قِبَل المعنيين في كثير من القِطاعات التربوية؛ حيث نلاحظ في الواقع الفعلي ظواهر كثيرة؛ فمن المعروف أن المواهب تُكتَشَف لدى الشباب في سن مبكرة، تبدأ عادة من سن الرابعة عشرة أو ما قبلها بقليل، وهو سن تكوين الشخصية، وبروز ملامحها، ومعرفة اتجاهاتها، صحيح أن الموهبة لا تظهر بشكل فاعل في هذه السن، ولكن تبدو طلائعها مبكراً، وتحتاج إلى المزيد من الرعاية والاهتمام من قِبَل القائمين على رعاية الشباب والطلاب. فهذه السن سن انطلاق وانفتاح على العالم والمجتمع، والرغبة في التغيير. ومن هنا تبدو كثرة الأفكار لدى الشباب، وهي أفكار تكون متحسسة لهموم ومشاكل مجتمعه وأبناء جيله، وقد تكون متكررة أو متشابهة، ولكننا سنجد المخترعين والموهوبين والابتكاريين، الذين هم في أمسِّ الحاجة إلى المتابعة والرعاية والتوجيه.

ولا بد أن نسلم أن توجه التربية الحديثة في رعاية الموهوبين واكتشاف العلماء ينظر إلى حصيلة العملية التربوية بدرجة: كم مخترعاً وموهوباً يمكن اكتشافه في كل مليون نسمة؟ أي أنه يسلِّم بقدرات البشر بشكل عام، ويركز على سبل الاكتشاف، والرعاية والصقل، والاستفادة والتطوير، والإضافة العلمية والابتكارية والبحثية والاختراعية. في حين أن الواقع الفعلي يشير إلى أن هناك أزمة في المجتمعات العربية والمسلمة؛ فهناك عدم اهتمام واضح بالموهوبين والحالمين لدى فئة الشباب، وتكاد البرامج الموضوعة تقف عند الحدود الورقية أو التطبيقات الاحتفالية أو الرعاية المحدودة في أحسن الأحوال.

وهذا نجده واضحاً في قطاعين معنيين برعاية هذه الفئة بداية، وهما: قطاع الشباب، وقطاع التربية والمدارس. فقطاع الشباب لا يمتلك البرامج والأنشطة والآليات والمراكز المخصصة لرعاية الموهوبين، وتكاد تكون برامجه مقتصرة على الرياضة وبعض الأنشطة الثقافية، وتظل الرعاية العلمية محدودة غالباً؛ خاصة أنه لا توجد مراكز رعاية الموهوبين تحت إشراف متخصصين تربويين وعلماء وخبراء للشباب، وإنما تخضع في نهاية الأمر إلى موظفي الشباب والرياضة.

كما أن جهود وزارات التربية في رعاية الموهوبين في العلوم والفنون والبحوث، تتوجه بالدرجة الأولى إلى طلاب وطالبات المدارس المتوسطة والثانوية، وهي جهود ترتهن في مجملها بالخطة السنوية لقطاع الأنشطة المدرسية ومسابقاته، ولا تسعى في نهاية الأمر إلى اكتشاف المواهب مبكراً، ومن ثَمَّ رعايتها، بل يكون هدفها حصول المتسابقين على الجوائز والكؤوس التي تقتصر في نهاية الأمر على حفل بسيط، وكأس للمدرسة وهدية للفائز.

فتظل المشكلة عالقة، فلم يجد الشاب الموهوب الرعاية الكافية في مدرسته، نظراً لعدم وجود حصص وبرامج إثرائية واضحة في المنهج المدرسي، وعدم وجود رعاية ومتابعة بشكل دائب من قِبَل القائمين على رعاية المتفوقين في المدارس أو الوزارة، وهذا واقع فعلي. وتكون النتيجة إذن: غياب متابعة الموهوب بشكل علمي ومنهجي، وهي متابعة تهدف إلى تنمية قدراته، وصقل مواهبه، والتعرف على جهوده الابتكارية والإبداعية، ومن ثَـمَّ يصاب الموهوب بالإحباط، وغالباً ما ينزوي مع الهموم الحياتية ومشاغلها. ومن ثَمَّ تكون المحصلة: حرمان المجتمع من كمٍّ هائل من المبدعين والموهوبين، وحرمان الموهوب نفسه من تطوير ذاته، ومن ثَمَّ يصبح شخصاً عادياً محبطاً، ويحبط الآخرين من حوله.

والأمر نفسه في الجامعات والمعاهد العليا والتطبيقية، تظل رعاية المواهب غير ممنهجة ولا مبرمجة، والبرامج الجامعية الموجهة تخضع لموظفين وليس لخبراء وعلماء متخصصين، وغالباً ينشغل الطلاب بدراستهم الجامعية، وهي دراسة قد تتفق أو لا تتفق – غالباً – مع ميولهم ومواهبهم؛ لأنها خاضعة لاعتبارات المجموع والنسبة التي نالها الطالب في الثانوية العامة، ومنها تحددت كليته أو معهده. فتظل الموهبة لدى الطالب الجامعي في بدايتها، دون صقل أو توجيه يراعي الاستفادة منها، ومن ثَمَّ تطويرها بشكل فاعل، وتنمية قدراتها. خاصة أن مقياس التعيين الجامعي في السلك الأكاديمي خاضع لاعتبارات الدرجات أيضاً لا الموهبة والاجتهاد، وكثير من الموهوبين قد لا يكونون فائقين علمياً في دراستهم، ولكنهم عباقرة في مجالات أخرى.

وإذا لم تتوافر الرعاية في فترة المرحلة الثانوية وفي مرحلة الجامعة فإن الطالب سينشغل بهموم الحياة: من عمل وزواج وأسرة، ومن ثَمَّ تقل لديه فرص السعي لتحقيق مواهبه، وصقلها، وتنميتها.

إزاء ما تقدم، فإننا نطرح حلاً لمشكلة تؤرِّق المجتمع، وتمثل

هاجساً ملحّاً لدى صانع القرار التربوي، وهو هاجس: أين العلماء والمبدعون وقادة المستقبل؟ لماذا يذوبون في الحياة ويتلاشون بسرعة؟ لماذا لا يبقى إلا القليل الذي يتحمل القهر النفسي والإحباط المجتمعي، وغياب التشجيع، وعدم توثيق الاختراعات وتسويقها؟

إن الأموال الضخمة التي تنفق على استيراد الخبراء الأجانب، وهم بعيدون عن تقاليدنا ومشاكلنا وهويتنا الحضارية، هذه الأموال لو أُنفِق خُمسها في رعاية الموهوبين العرب لأسسنا قاعدة علمية وتربوية عظيمة، تغذّي بعضها بعضاً، وتحدث حَراكاً مجتمعياً وعلمياً، وتأخذ بأيدي الأجيال التالية من بعدها.

ويكفي أننا لو اكتشفنا ألف موهوب في قطر مسلم مَّا وبعد الصقل والتدريب والرعاية المستمرة، خرج لدينا مئة موهوب أو خمسون منهم، وهذا في كل سنة أو حتى خمس سنوات، وهؤلاء النخبة يتم التعريف بهم محلياً وخارجياً وتبنّي اختراعاتهم، كيف سيكون شكل الدولة بعد عشرين سنة أو أكثر؟ سيصبح مجتمعَ الموهوبين، وسيكون هؤلاء خبرات كبيرة تأخذ بأيدي اللاحقين.

مراكز رعاية الموهوبين:

وهذا هو الحل المقترح من جانبنا، وهو نابع من تأمُّل واسع لحال كثير من المواهب التي ضاعت وسط خضم الحياة ومشاكلها، ويمكن تخيل فكرة هذه المراكز بمواصفات عدة؛ حيث تكون مراكز وقفية التمويل، وتقبل التبرعات والهبات من الأفراد والمؤسسات، وتخصَّص لها أموال ثابتة من أوقاف خاصة بها. فتكون مستقلة الإدارة عن الجهات الحكومية، ولكن تسعى للمشورة والاستعانة بالخبراء من سائر الجهات، واستقلالها الإداري نابع من استقلالها المادي، وهذا يمنحها ديناميكية وحركة وفاعلية، للنهوض بالشباب.

أيضاً يكون لديها خبراء متعاونون مع وزارة التربية والمدارس ومراقبات الأنشطة المدرسية لاكتشاف المواهب والعباقرة المبكرين، ومن ثَمَّ يتم إرشادهم وتبنّيهم في هذه المراكز. حيث توفر هذه المراكز الأموال والدعم الكافي للموهوبين، على أن يتم تدريبهم على العمل بروح الفريق، لا الفردية. ويكون العمل محدوداً بخطة سنوية أو فصلية، وهي مؤسسة على مشروعات علمية وفنية واضحة المعالم، يتم تنفيذها، ومراقبة القائمين عليها؛ حتى لا تكون مجرد ديكور دون نتائج وفاعلية. وتخضع إدارتها الفنية والتربوية لعلماء وتربويين متخصصين في رعاية الموهوبين والعباقرة، ويمكن أن تكون هذه الجهات مرتبطة بمراكز علمية وإثرائية في الخارج من أجل تطوير الفكرة، ومناقشة أبرز إنجازاتها، حتى يعلم الموهوب حجم موهبته وأين يقف - تحديداً - في العالم. وأيضاً يمكن أن تكون على صلة بالجامعات والعلماء ووزارات التربية وقطاعات الشباب والأندية وغيرها.

ونقترح أن تشمل أنشطة هذه المراكز - مثلاً - ثلاث مجالات رئيسية:

- **الأنشطة العلمية:** في الفيزياء والحاسوب والكيمياء والبيولوجيا... وما يتفرع عن ذلك من أنشطة وهوايات.
- **الأنشطة الفنية:** الفنون التشكيلية والمرئية والمسموعة، مثل فرق التمثيل والإنشاد والتأليف الفني والديكورات وغيرها.
- **الأنشطة الأدبية:** الشعر والقصة والرواية والتأليف وغيرها.

إن عمل هذه المجالات مكمِّل لبعضه بعضاً، ويكون تحت رعاية خبراء وعلماء، كلٌّ في مجاله. ويمكن إقامة مهرجان كبير، أو حفل، لعرض المشروعات العلمية والأنشطة الفنية والأدبية.

وأخيراً، لقد جاء هذا المقترح بهدف إنقاذ علماء المستقبل، وعباقرة المجتمع من الإحباط، وتعويض أوجه النقص والقصور لدى كثير من الهيئات المعنية بالشباب.

فأدعو الله أن تتم الاستضاءة بهذه الفكرة، من أجل نهضتنا الحضارية والعلمية المباركة إن شاء الله.

بشرى للمدارس ودور التحفيظ

جهاز البيان

لتحفيظ القرآن

للكبار والصغار

بصوت أربعة قراء
الشيخين السديس و الشريم
والشيخ محمد صديق المنشاوي
والشيخ عبدالله بصفر

يمكنك:

- تحديد مجموعة آيات والاستماع إليها.
- تكرار الآيات المحددة.
- الاستماع لنفس الآية بأكثر من صوت.
- الاستماع حسب السورة.
- الاستماع حسب الصفحة.
- الانتقال إلى الصفحة / السورة التالية.
- العودة للصفحة / السورة السابقة.

مقاس الجيب

فقط 199 ريالاً

يعمل بالكهرباء
و بطاريه الجوال

فقط 175 ريالاً

دار السلام للنشر والتوزيع

المكتب الرئيسي الرياض: ٤٠٣٣٩٦٢-٤٠٤٣٤٣٢ فاكس: ٤٠٢١٦٥٩ الفروع: العليا: ٤٦١٤٤٨٣ الملز: ٤٧٣٥٢٢٠ السويلم: ٢٨٦٠٤٢٢
السويدي: ٤٢٨٦٦٤١ مندوبون: ٠٥٠٥١٩٦٧٣٦ - ٠٥٠٣٤٥٩٦٩٥ - ٠٥٠٤٤٠٥٩٤٣ جدة: ٦٨٧٩٢٥٤ الخبر: ٨٦٩٢٩٠٠
المدينة المنورة: ٨٢٣٤٤٤٦ - ٠٤ خميس مشيط: ٠٥٠٠٧١٠٣٢٨ القصيم: ٠٥٠٣٤١٧١٥٦ ينبع البحر: ٠٥٠٠٨٨٧٣٤١ الكويت: ٩٩٦٠٠٨٤٥
Website: www.darussalamksa.com Email: darussalam@awalnet.net.sa -

فاحكم بينهم... أو أعرض عنهم

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@hotmail.com

أستاذٌ فاضلٌ كان كثيراً ما يكرر على مسمعي هذه الكلمات:

(أساس الخلل في كثير من الانحرافات المعاصرة أنها تعتمد على بعض النصوص وتترك بعضاً، فأخذُها ببعض النصوص جعلها تظن أنها تعتمد على الشريعة، ولو نظرت في النصوص جميعاً لظهر لها الانحراف بشكل جليٍّ).

وما أكثر الوقائع التي جعلتني أتذكر هذه الكلمات، وأكثر شيءٍ شدني فيها أنها تفسر حالة بعض الانحرافات التي تستدل (بصدق) بآيات من القرآن أو بأحاديث من سُنة النبي ﷺ في ما يُعلم - قطعاً - أنه مخالف لأحكام الشريعة وتأباه قواعدها وأصولها ولا يقول به فقيه، وهو أحد تطبيقات اتباع المتشابه الذي حذرنا الله - تعالى - منه في كتابه ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

تذكرت هذه الكلمات مرة أخرى قبل أيام لما رأيت بعض الناس يستشهد بقول الله - تعالى -: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾. [المائدة: ٤٢]

يســـتدل بها على أن من رفض أن يحكم بالشريعة فلا يُلزَم بهـــا، فلا بد أن يختارها ويؤمن بها، وحين لا يكون مؤمناً بها لا يكون ملزَماً كمـــا خير الله في هذا الآية نبيه ﷺ في أن يحكم بينهم أو يعرض عليهم، ولو كان الحكم ملزماً لما حصل اختيار.

صدمت من هذا الاستدلال؛ لأن هذه النتيجة تضرب حكماً قطعياً من أحكام الإسلام؛ فكيف استهان أن يضرب هذا الأصل بمجرد فهم عارض طرأ عليه؟

وحتـــى لو جهـــل الباحث عن الحق معنى هـــذه الآية فمن العقـــل والحكمة أن ينظر في النتيجـــة التي يأخذها من الآية؛ فلا يمكن أن يأتي بها على حالـــة يراها ممزِّقة لأحكام وآيات كثيـــرة؛ فأين هو عن قول الله – تعالـــى –: ﴿فَاحْكُـــم بَيْنَهُم بِمَا أَنـــزَلَ اللّـــهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿وَمَن لَّـــمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُـــمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ﴾ [النســـاء: ١٠٥] ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَـــجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النســـاء: ٦٥] ونحو هذه الدلائل القاطعة أن الإســـلام حاكم على الجميـــع ولا يجوز تجاوزه أو التخيير في حكمه بمجرد أن أحداً أو جماعة لا تريد ذلك.

إذن، ما تفسير قول الله – تعالى –: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

لأهل التفســـير اتجاهان في تفســـير هذه الآية، **الاتجاه الأول:** يرى أنها منســـوخة بقول الله – تعالـــى –: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]. **والاتجاه الآخر:** يرون أنها غير منسوخة وأنه لا تعارض بينها وبين قوله – تعالى –: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُـــم بِمَا أَنـــزَلَ اللّهُ﴾ [المائـــدة: ٤٩]؛ لأن المقصود أنه مخيَّر، فإذا حكم وجب الحكم بما أنزل الله[١].

وبناءً عليه، يـــرى بعض الفقهاء أنه يلزم القاضي أن يحكم بينهم إذا ترافعـــوا إليه[٢]، ويرى آخرون أنه لا يلزم القاضي أن يحكم بين أهل الكتاب حين يأتوه[٣].

وعلى كلا اتجاهي التفســـير، وعلى كلتا الرؤيتين الفقهيتين فالحكـــم يتعلق بجزئيـــة معيَّنة، هي تحاكُم أهـــل الكتاب إلى القاضي المســـلم في ما لا يلزمهم من أحكام الإسلام؛ فالآية لا تتحدث عن (أهل الإســـلام) الذين يلزمهم أن يحكموا بالإسلام في كافة قضاياهم، ولا تتحدث عن (أهل الكتاب) ف يما يلزمهم من أحكام الإســـلام؛ إنما موضوع الآية في بعض الأحكام التي جعلت الشـــريعة لأهل الكتاب بأن لهـــم أن يتحاكموا فيها إلى دينهم، فإن اختاروا التحاكم إلى المســـلمين فهل يلزم المسلمين الحكم بينهم؟

هذا هو محل الآية، هو في الحكم بين أهل الكتاب في ما لا يلزمهم، فجاء هذا الاستدلال ليجعله حكماً عاماً لجميع الناس مســـلمهم وكافرهم، ويجعله حكماً عاماً لكافة القضايا ولو أدى لعدم الحكم بالإســـلام، فضرب في أصول الإسلام يمنة ويسرة من حيث يظن أنه يســـتدل بآية قطعيـــة الثبوت والدلالة! وهي مشـــكلة قد لا تظهر للقارئ إلا بعد أن ينظر في النصوص كلها فيتضح له عمق هذا الإشـــكال ومخالفتـــه القطعية؛ لهذا كان العلماء يوصون بأهمية الرجوع لكلام أهل العلم بكتاب الله قبل الحكم لأنهـــم ينظرون في النصوص جميعاً فلا يقعون في مثل هذه الانحرافات والأخطاء الفادحة.

فهـــذا الخطأ صدم برأيه المتســـرع أمريـــن محكَمَين من محكَمَات الشريعة التي أجمع العلماء عليها:

المحكَم الأول: أن المسلم لا يُحكَم في النظام الإسلامي بغير الإســـلام أبداً، وحتى لو اختلف مع كِتَابـــيٍّ فيجب الحكم بينهم بحكم الإسلام، وهو محل وفاق بين العلماء، وفيه ما لا يحصر من نقولات الإجماع، فمنها – مثلاً –:

(فأما إذا كان التحاكم بين مسلم وذمي ومعاهد وجب على الحاكم أن يحكم بينهم قولاً واحداً – سواء كان المسلم طالباً أو مطلوباً – لأنهم يتجاذبان إلى الإســـلام والكفر فوجب أن يكون حكم الإسلام أغلب)[٤].

(واتفقوا – في ما أعلم – على أنه إذا ترافع مسلم وكافر أن على القاضي الحكم بينهم)[٥].

(وإن تحاكم مســـلم وذمي وجب الحكم بينهما بغير خلاف لأنه يجب دفع ظلم كلِّ واحد منهما عن صاحبه)[٦].

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٠/ ٣٢٥ – ٣٣٠.
(٢) هو مذهب الحنفية، والقول الجديد عند الشافعية ورواية عند الحنابلة، انظر: بدائع الصنائع: ٢/ ٣١٢، والحاوي: ٩/ ٣٠٧، المغني: ١٠/ ١٩٠.
(٣) هو مذهب المالكية، والحنابلة، والقول القديم عند الشافعية، انظر: الذخيرة: ٣/ ٤٥٨، والمغني: ١٠/ ١٩٠، والحاوي: ٩/ ٣٠٧.
(٤) الحاوي في فقه الشافعي: ٩/ ٣٠٨.
(٥) الذخيرة: ١٠/ ١١٢.
(٦) المغني: ١٠/ ١٩١.

(فأما إذا تحاكم إلينا مسلم وذمي فيجب علينا الحكم بينهما لا يختلف القول فيه؛ لأنه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمة)[1].

وغيرهم ممن نقل هذا الإجماع المحكَم[2].

وإذا كان هذا في مسلم مع كتابي؛ فكيف إذن إن كان بين مسلمين؟

فليس للمسلم خيار في قبول الشريعة أو رفضها ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]؛ بل إن رفضها يعتبَر في النظام الإسلامي جناية تستحق العقوبة وليس المكافَأة!

المحكَم الثاني: أن هذا ليس في كل القضايا بل في بعض القضايا التي تركتها الشريعة لأهل الكتاب، وليس في كل الأحكام فإن (الأمة أجمعت على أن أهل الذمة داخلون تحت سلطان الإسلام، وأن عهود الذمة قضت بإبقائهم على ما تقتضيه مللُهم في الشؤون الجارية بين بعضهم مع بعض بما حددتْ لهم شرائعهم)

فحكم الإسلام شامل بعدله ورحمته وكماله جميع المنضوين تحت سلطانه؛ غير أنه ترك لغير المسلمين بعض الأحكام فجعل لهم أن يتحاكموا فيها بينهم لأن حكم الإسلام فيها أنهم غير ملزمين بأحكام المسلمين، وذلك مثل عباداتهم وأنكحتهم ومعاملاتهم وما يستحلونه كشرب الخمر، وأما ما تجاوز ذلك فهم ملزمون فيه بأحكام الإسلام.

وثَمَّ اختلاف في فروع المذاهب الفقهية في حدود ما يختص بغير المسلمين فعله مما لا يجوز للمسلمين فعله، سيصل قارئها لنتيجة قطعية ظاهرة هي أن ثَمَّ مساحةً معيَّنة (بشروطها) فقط هي التي لا يلزمهم فيها حكم الإسلام، وهي التي جرى الخلاف فيها في ما لو جاؤوا هل يلزم الحكم بينهم؟ لأنها مساحة تركتها الشريعة لهم، ولن يجد أحداً يقول: إنهم مخيَّرون في أحكام الإسلام كلها، بل هم متفقون على لزوم أحكام الإسلام عليهم في الجملة[3].

(١) تفسير البغوي: ٣/٥٩، وانظر: شرح السنة للبغوي: ١٠/٢٨٧.

(٢) انظر: تفسير الخازن: ٢/٥٥، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي: ٧/٣٤٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٦/١٤٨، وتفسير الجلالين ص١٤٤، وفتح القدير: ٢/٦١.

(٣) انظر في المذاهب الأربعة: بدائع الصنائع: ٧/١١٣، الذخيرة للقرافي ص٤٥٧ – ٤٥٨ و ٣٢٦، والحاوي للماوردي: ١٤/٣٨٦ – ٣٨٧، والمغني: ١٠/١٩٠ وعند المفسرين انظر: المحرر الوجيز: ٢/٢٢٦، والجامع لأحكام القرآن: ٦/١٨٥، والتحرير والتنوير: ٦/٢٠٥ – ٢٠٦.

خلاصة هذا الكلام كله:

أن حكم الآية خاص بأهل الذمة فقط، وخاص ببعض أقضيتهم، لكن هذا تحوَّل بكل تهاون وعجلة إلى أن يكون شاملاً للمسلمين، وشاملاً لكل القضايا، من دون أن يتروَّى قائله قليلاً في هذه النتيجة التي تضرب في المحكمات من حيث لا يشعر!

فعجباً كيف يستدل بآية قرآنية ليقع في هذا الخطأ الفادح!

وفيه عِبَر:

١ – ضرورة النظر في النصوص جميعاً، وأن الاستدلال بالنص الشرعي لا يكفي ما لم يضم لجميع النصوص في الباب حتى يتضح مراد الله ومراد رسوله ﷺ.

٢ – ضرورة مراجعة كلام أهل العلم والنظر في أقوالهم وتفسيراتهم؛ فمن الكسل المعرفي والعجز العلمي أن يخوض المسلم في مثل هذه القضايا الكبيرة وهو خِلْو الذهن عن الاستفادة من تراث قرون تعاقبت فيها الأذهان والأقلام في التحرير والنظر والتدبر في كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

٣ – ضرورة صيانة أحكام الشريعة من التفسيرات العاجلة التي يدفعها ضغط واقع معيَّن أو حاجة ماسة ما، فيجد المسلم نفسه يتقبَّل كثيراً من الأقوال والتفسيرات متخففاً من الأصول المنهجية والقواعد العلمية في النظر والاستدلال لأن ثم قوة دافعة تجعله لا يقف عندها كثيراً.

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

جديد إصداراتنا

مجلة التأصيل
للدراسات الفكرية المعاصرة
العدد الثالث

التسليم للنص الشرعي
والمعارضات الفكرية المعاصرة
فهد بن صالح العجلان

الاستشراق عند إدوارد سعيد
رؤية إسلامية
د. تركي بن خالد الظفيري

مناهج الاستدلال على مسائل
العقيدة الاسلامية في العصر الحديث
(مصر نموذجا)
د. أحمد فوشي عبدالرحيم مخلوف

الليبراليون الجدد
أحمد بن عبدالعزيز القايدي

الموزع مؤسسة دار رسالة البيان (مجلة البيان)
إصداراتنا متوفره في معرض الرياض الدولي

المملكة العربية السعودية
ص.ب 18718 جدة 21425
هاتف/ 6288685 2 966+
ناسوخ/ 2718230 2 966+
www.taseel.com
taseel@taseel.com

الاتجاه الباطني في تشكّله الجديد

سلطان العميري

شهدت الساحة العربية في القرن الثالث الهجري حادثة فكرية خارجة عن نسق الفكر الإسلامي، وهي ظهور الاتجاه الباطني، الذي تقوم فكرته على أن النصوص الشرعية لها معانٍ باطنية خفية مختلفة عن المعاني المتبادرة من ظاهرها.

وقد انطوى تحت هذا الاتجاه طوائف كثيرة، كانت سبباً في تعدُّد الأسماء والألقاب التي أُطلقت عليه، ومن تلك الطوائف: الإسماعيلية والقرامطة والنصيرية والدروز والتعليمية والسبعية والخرمية[1].

ومع اختلاف تلك الطوائف في ألقابها ومسمياتها إلا أنها اشتركت في فكرة عامة؛ وهي أن النصوص الشرعية لها نوعان من المعاني: معانٍ باطنة ومعانٍ ظاهرة، وأنه لا بد لكل ظاهر من باطن، وأن المقصود في الحقيقة لصاحب الرسالة هو المعنى الباطني للنصوص، وأن هذا المعنى بمنزلة اللب والظاهر بمنزلة القشور، وأن المكلفين ليسوا ملزمين بما يدل عليه ظاهر النصوص؛ وإنما يجب عليهم البحث عن المعنى الباطني ويلزم الأخذ به ولو كان مخالفاً للظاهر القطعي.

ولا يشترط في المعنى الباطني وجود علاقة بينه وبين ما يفيده ظاهر النص، وهو – في عقيدتهم – يمكن أن تتعدَّد مظاهره، ويصل إلى أعدد كبيرة جداً؛ فقد ذكر الديلمي واقعة تدل على أن المعاني الباطنة لا تكاد تنحصر في عدٍّ؛ وذلك أن بعض أئمة الباطنية روى أن للكلمة سبعة وجوه، فقال قائل: سبعة وجوه؟، كأنه استقلَّها، فقال: سبعون وجهاً، فقال القائل: سبعون وجهاً؟ فقال: سبعمائة وجه[2].

فالنصوص الشرعية ليست إلا قوالب تنزَل عليها المعاني الباطنة، وهي بمنزلة الأجساد الميتة التي تحل فيها الأرواح والمعاني، والجسد إذا لم تحل فيه الروح يبقى ميتاً لا فائدة منه، وكذلك هي النصوص الشرعية إذا لم تحدَّد المعاني الباطنية لها[3].

(١) انظر: فضائح الباطنية، الغزالي (ص١١ – ١٧)، وبيان مذهب الباطنية وبطلانه، الديلمي(ص٢١ – ٢٢).

(٢) انظر: بيان مذهب الباطنية وبطلانه، الديلمي (ص٣٩).

(٣) انظر في أهمية المعنى الباطني لدى الباطنية ومنزلته: العقائد الباطنية، صابر طعيمة (ص١١ – ١٦).

ويقول إخوان الصفا في تأكيد المعنى الباطني للنصوص: «اعلم أن للكتب الإلهية تنزيلات ظاهرة، وهي الألفاظ المقروءة والمسموعة، ولها تأويلات خفية باطنة، وهي المعاني المعقولة»[1].

وقد تناول الاتجاه الباطني القديم القرآن وجعل ألفاظه قوالب لما يراه من المعاني الباطنية، وعبث بمعانيه وقفز على نصوصه البينة الظاهرة، وأنشأ معاني بعيدة كل البعد عن سياقه ودلالاته، ومخالفة لما هو معروف من لغة العرب، ومناقضة لما فهمه الصحابة وأئمة التفسير، وحدد لمعانيه الكبرى في التوحيد والعقائد والأخبار والعبادات والشعائر معاني مختلفة كلَّ الاختلاف عن مقتضيات النصوص الشرعية البينة[2].

ولم يكتف الباطنية بذلك العبث بالنصوص الشرعية، بل شنوا حملة شعواء على علماء المسلمين من الفقهاء والمفسرين ووصفوهم بكل ذميمة؛ بحجة أنهم تعاملوا مع القرآن تعاملاً سطحياً، ولم يلتفتوا للمعاني الحقة الكامنة في داخل ألفاظ نصوصه.

ونتيجة لهذه النظرية التأويلية أبطل الاتجاه الباطني الإلزام بشرائع الإسلام الكبرى، واكتفى بمعرفة المعاني الباطنية من ورائها (في زعمه)، وأكد على أن من عرف المعنى الباطني من العبادات سقط عنه التكليف بها ولم يَعُد محاسَباً عليها[3].

وبناءً عليه أوَّل الباطنيون جميع المفروضات والمسنونات، وجعلوها رموزاً وإشارات إلى معاني أخرى تتوافق مع أصولهم الفلسفية والعقائدية.

فقد أضحى الوضوء رمزاً يراد به تجديد العهد بإمام الزمان، وغدت الصلاة رمزاً للاتصال بإمام الزمان والدعاء إليه، والزكاة رمزاً لبثِّ العلوم والأسرار لمن يتزكى بها ويستحقها، وأصبح المقصود من الصوم كتمان العلم عن أهل الظاهر الذين لا يفهمونه، والحج طلب العلم الذي تُشَد إليه رحائل العقل[4].

ولم يكتفوا بذلك؛ وإنما ستباحوا مع ذلك المحرمات الظاهرة في الشريعة كالزنى وشرب الخمر وغيرها، بحجة أنها غير ملزمة لمن أدرك المعنى الحقيقي للتكاليف الشرعية[5].

ولم يقتصر العبث الباطني على ذلك؛ وإنما تعدَّاه إلى الأصول العقائدية الكبرى في الإسلام والأخبار القطعية الواردة في نصوص الشريعة وأوَّلها عن ظاهرها إلى ما ادَّعاه من معاني باطنة.

فعقيدتهم في الإله مختلفة عما هو في نصوص الشريعة؛ فإنهم جردوا الإلهة - سبحانه - من كل صفة واعتمدوا على النفي المحض الذي لا يقوم إلا على سلب كل المعاني الوجودية، وفي الوقت نفسه أطلقوا عليه أوصافاً لم تَرِد في النصوص الشرعية كوصف العقل الأول والمبدع، ولم يكن الله - تعالى - في زعمهم معبوداً لأنه مستحق للعبادة؛ وإنما لأنه محل لوله العقول الأولى به[6].

وأما الوحي فهو في تصورهم عبارة عما تتلقاه نفس النبي مما يفيض عليها من فيوض العقل المبدع، وهو يختلف باختلاف قوة عقل ونفس النبي واستعداداته وكمالاته، ونتيجة ذلك توصلوا إلى أن البنوة ليست اختياراً إلهيا وإنما هي صفة مكتسبة[7].

وبناءً على ذلك فالقرآن ليس لفظه كلام الله، وإنما هو كلام النبي الذي عبر به عما تتلقاه نفسه من الفيوض الإلهية، وكذلك أنكروا معجزات الأنبياء والرسل وعدُّوها من جملة الشعبذة والخرافة[8].

وتجاوز تأويلهم الباطني ووصل إلى عقيدة اليوم الآخر، فأوَّلوا جميع المكونات التي يقوم عليها كالموت والقبر والبعث والنشور والحساب والجزاء والجنة والنار، وجعلوها رموزاً لمعانٍ باطنية لا تمتُّ إلى حقيقتها الظاهرة بصلة، وهزؤوا بالمسلمين الذي يعتقدون صحة تلك الحقائق ويؤمنون بكونها أموراً واقعية حقيقية[9].

وهكذا ينتهي الاتجاه الباطني إلى اطِّراح جميع مظاهر الدين وإباحة محرماته وتغيير معالمه وإذابة حدوده الفاصلة بينه وبين الأديان الأخرى، وأصبح رأيهم يستوعب كل المذاهب والآراء ؛ لأنه لم يعد هناك معنى واحد للنص الشرعي يمكن

(١) رسائل إخوان الصفا (٤/١٣٨).
(٢) انظر: أمثلة كثيرة على التفسيرات الباطنية للقرآن: أساس التأويل، القاضي النعمان ابن حوية (ص١٨٤، ١٨٨)،و العقائد الباطنية، صابر طعيمة (ص٥٩ - ٦٥).
(٣) انظر: الجيل الثالث، مصطفى غالب - الباحث الباطني - (ص١٤١).
(٤) انظر: تأويل الدعائم، ابن حيون الإسماعيلي (١/١٧٧، ١٧٩) و (٣/٥٨، ٥٩)، وبيان مذهب الباطنية وبطلانه، الديلمي (ص٢٨)، وفضائح الباطنية، الغزالي (ص٤٦ - ٥٣).
(٥) انظر: العقائد الباطنية، صابر طعيمة (ص١٧ - ١٩).
(٦) انظر: راحة العقل، الكرماني (ص١٩٥ - ١٩٦).
(٧) انظر: إثبات النبوات، السجستاني (ص١١١).
(٨) انظر: فضائح الباطنية، الغزالي (ص٤٠ - ٤٣).
(٩) انظر: فضائح الباطنية، الغزالي (ص٤٤ - ٤٦).

إلزام الناس به، وإنما لـــكل نص تأويل ولكل تأويل سبعين تأويل إلى ما لا نهاية.

ولـــم يقتصـــر الباطنية على ممارســـة عبثهم المجرد، وإنما حاولوا القيام بشرعنة مذهبهم وسعوا إلى الاستدلال عليه بنصوص من الشريعة ومن آثار آل البيت، ومما اعتمدوا عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نزلت عليَّ آية إلا ولها ظهر وبطن»[1].

وقد اجتهد علماء الإســـلام كثيراً في الرد على الاتجـــاه الباطنـــي، وألَّفوا كتباً كثيـــرة في نقضه، وقد أحاطت دراســـاتهم الاتجاه الباطني من جميع جهاتـــه: من جهة حقيقته ومآلاته، ومن جهة جذوره التاريخية والفلســـفية وكيفية انتقاله إلى الســـاحة الإســـلامية، ومن جهة نشـــأته وتطوراته وعلاقته بالمذاهـــب المناقضة للإســـلام، وناقشـــوا أصوله الفلســـفية وأبطلوهـــا بالأدلة العقلية والشـــرعية، وكشفوا عن أســـاليبه في التلبيس على الناس وفي ترويج مقالاتهم ومذهبهم.

وأجمع علماء المسلمين على كفر الاتجاه الباطني والحكم عليه بأنه مناقض لحقيقة الإسلام والحكم عليـــه بالكفر والضلال والزندقـــة، وأكدوا على أنه الهدف منه هدم الإســـلام، ولكن لمـــا عجز أتباعه عن التصريح بذلك لجؤوا إلى الأســـاليب الباطنية الملتوية[2].

ونتيجة لجهـــود علماء المســـلمين المتكررة في الوقوف ضـــد الاتجاه الباطني بقـــي منزوياً وظل منبوذاً في الفكر الإســـلامي وشـــاذاً فـــي أفكاره وتصوراته، ولم يلقَ قبولاً ولا انتشاراً لدى المسلمين.

(١) انظر في الاستدلال بهذا الحديث: أعلام النبوة، الرازي (ص١٩).
(٢) انظر: فضائح الباطنية، الغزالي (ص٣٦، ١٥٦)، ومجموع الفتاوى، ابن تيمية (٩/ ١٣٤) و (١١/ ٥٨١).

التشكل الجديد للاتجاه الباطني:

أخذت الفكرة الباطنية تظهر من جديد في الساحة الإسلامية، ولكنها هذه المرة تتبدى في ثوب مختلف وتشـــكُّل مغاير وأضحت تتسمى بأسماء جديدة: كاسم التنوير والتجديد والحداثة والتأويل.

وتتحدد معالم الباطنية الجديدة بشـــكل ظاهر في المدرســـة الحداثية العربية؛ فقد تبنَّت هذه المدرسة حقيقة النظرية الباطنية وامتثلـــت روحها بكل وضوح؛ فقد جعلـــت الرؤية الباطنية أصلاً من أصولها ومنطلقاً من منطلقاتها المعرفية، ورتبت عليها النتائج نفســـها التي ترتبت على الباطنية القديمة، فلا يكاد القارئ يجد فرقاً بين التشكُّلين في حقيقة التأويل الباطني.

والمســـتقرئ للمنتَج الحداثي لا تنقصه المؤشرات ولا الدلائل الدالة على الارتباط الوثيق بين المدرستين، وعلى التداخل المنهجي بينهمـــا، وحتى لا يكون الكلام مجرد دعـــوى خالٍ مما يدل على صدقه، دعونا نستعرض النظرية الحداثية في منهجية فهم النص الشـــرعي وفي منهجية فهمهـــا للأصول العقائديـــة الكبرى في الشريعة الإسلامية.

أما منهجية فهم النص الشـــرعي، فإن الخطاب الحداثي لا يختلـــف فيها عن النظرة الباطنية القديمة؛ فقد توصل إلى أن النص الشـــرعي لا يقول الحقيقة وأنه ليس لـــه ثوابت ولا معانٍ جوهرية ثابتة؛ وإنما هو نص منفتح على ما لا يحصى من المعاني، وقابل لما لا عد له من الاحتمالات التأويلية.

فالنص الدينـــي عند محمد أركون «نـــص مفتوح على جميع المعاني، ولا يمكن لأي تفســـير أو تأويل أن يغلقه أو يستنفذه بشكل نهائي»[3]، والقرآن عنده «عبارة عن مجموعة من الدلالات والمعاني الاحتمالية المقترحة على كل البشر»[4]، وينتهي حسن حنفي إلى أن النص الشرعي يختلف معناه وتأويله بحسب اختلاف العصور «لأن النص قالب بلا مضمون»[5]. يمتلئ بحسب الظروف المحيطة به.

ويحاول طيب تيزيني أن يقنع المســـلمين بأن القرآن «ليس إلا علامات لا تحيل بالضرورة إلى شـــيء، وإنما تدل - غالباً - على الصورة التي يتلقَّاها الوعي عن الشيء»[6].

(٣) تاريخية الفكر الإسلامي، أركون (ص١٤٥).
(٤) تاريخية الفكر الإسلامي، أركون (ص١٣٩).
(٥) اليسار الإسلامي، حسن حنفي (ص٢/ ٣٩٥).
(٦) النص القرآني، طيب تيزيني (ص٣٧٥).

وأما نصر حامد أبو زيد فإنه حاول بكل ما أوتيه من قوة أن يفرغ النص الشرعي من كل معنى ثابت ومن كل دلالة ثابتة؛ ليتوصل إلى أنه مجرد قالب مفرغ من المحتوى، وينتهي إلى أن الرسول ﷺ نفسه لا يستطيع أن يصل إلى تحديد معنى النص الشرعي، حيث يقول: «إن فهم النبي ﷺ للنص يمثل أُولَى مراحل حركة النص في تفاعله بالعقل البشري، ولا التفات لمزاعم الخطاب الديني بمطابقة فهم الرسول للدلالة الذاتية على فرض وجود مثل هذه الدلالة»[1].

ويعبر علي حرب عن حقيقة النظرة الباطنية الجديدة بأوضح عبارة وأظهر دلالة تكشف عن حجم التطابق بين الباطنيتين فيقول: «ذو اللب لا يقف عند الظاهر المنطوق به، بل يقلب الغائر والمضمور والمستتر؛ أي: يطلب معنى المعنى، ومعنى المعنى ليس سوى الظاهر والسطح والشكل الدال، وقد حجب نفسه وتحوَّل إلى عمق لا مرئي أو محتوى أو باطن»[2]، «ومهمة القارئ الناقد أن لا يُؤَخَذ بما يقوله النص، مهمته أن يتحرر من سلطة النص لكي يقرأ ما لا يقوله»[3]، ويقول: «القرآن نص لا يمكن لأي تفسير أو مذهب أن يستنفذه أو يغلقه، فلكلٍّ تصوره وفهمه، ومن ثَمَّ لكلٍّ مذهبه وإسلامه»[4].

ونتيجة للباطنية الجديدة فإنه لم يعد الأمر المهم في قراءة النص الديني البحث عن مراد الله ومقصوده من كلامه؛ وإنما بات الأمر المهم هو البحث عما ينقدح في ذهن القارئ للنص من معانٍ ولو كانت مخالفة لما كان من فهم الصحابة، ومن ثمَّ انتهت الباطنية الجديدة إلى أن إعجاز القرآن ليس راجعاً إلى عُلُو بيانه وسُمُوِّ فصاحته وإحكامه وتركيبه ودلالته؛ وإنما إلى أنه أقوى نص ينفتح على معانٍ لا حصر لها ويتقبل احتمالات لا عدَّ لها، ويتسع لكل المتناقضات، وكلها في الوقت نفسه تمثل حقيقته ومقصده[5]!

وحين انتهى الخطاب الحداثي إلى هذه النتيجة أخذ يوجه الذم الشديد إلى العلماء والمفسرين والفقهاء لأجل أنهم لم يصلوا إلى النظرية نفسها التي توصَّل إليها وبات يصفهم بالسطحية والجهل والغباء[6]، تماماً كما فعلت الباطنية القديمة.

وبناءً على هذه النظرة الباطنية أفرغ الخطاب الحداثي العقائد الإسلامية والعبادات العملية من محتواها وغدت أموراً رمزية يتغير معناها والمراد منها بحسب تغيُّر الزمان والمكان، فالعقائد الإسلامية لا تَعْدُ أن تكون تجارب إنسانية يقوم بها المجتمع المسلم ثم لا يلبث أن يتخلى عنها أو يقوم بتغيرها إذا تغيرت الظروف أو اقتضت الحاجة إلى ذلك.

فإذا كانت الباطنية القديمة تجعل الإيمان بالإله مجرد تصوُّر ذهني لا حقيقة له في الواقع، فكذلك هو الخطاب الحداثي، بل إنه تجاوزها إغراقاً في الباطنية؛ فالإيمان بالله لم يعد في تصوُّرهم إيماناً وتصديقاً بذات مقدسة متصفة بالكمال والجلال؛ وإنما هو تصور يقيمه الإنسان عن شيء يراه مقدساً ويمكن أن يتغير بتغيُّر الظروف، وأضحى الإله عند حسن حنفي «مفهوم بلا ما صدق»[7]؛ أي: أن الإله ليس له حقيقة في الخارج؛ وإنما هو معنى في الذهن فقط، وانسجاماً مع ذلك فإن حنفي يجعل اسم الله عبارة عن الرغبات التي يريدها الإنسان «فالله عند الجائع هو الرغيف، وعند المستعبَد هو الحرية، وعند المظلوم هو العدل...»[8].

ولا يفتأ محمد أركون يكرر - كلما سنحت له الفرصة - أن مفهوم الإله مفهوم متغيِّر يتطور بحسب الظروف، وينكر على المُسَلَّمة التقليدية لدى المسلم التي تفترض وجود إله متعال ثابت لا يتغير[9]؛ ولهذا يدعو محمد أركون المسلمين إلى تغيير مفهوم الإله، وتحديد معنىً آخرَ يتناسب مع عصرنا؛ «لأن تصوُّر العصور الوسطى مرعب ومخيف ويشل طاقات الإنسان عن الحركة أو يمنع فتح طاقاته وتحقيق ذاته على وجه الأرض»[10].

وإذا كان الوحي عند الباطنية القديمة ليس ذا مصدر إلهي وإنما يرجع إلى قوة استجابة عقل النبي للفيوض المتدفقة على ذهنه وقوة تعبيره عنها وصفاء خياله، فإن

(١) نقد الخطاب الديني، نصر حامد (٩٣).
(٢) نقد النص، علي حرب (٢٤).
(٣) نقد النص، علي حرب (٢٢)، وانظر: نقد الحقيقة، علي حرب (٤٩).
(٤) نقد الحقيقة، علي حرب (٨٣).
(٥) انظر: نقد الحقيقة، علي حرب (١٩، ٣٤)، ونقد النص، علي حرب (٨٧).
(٦) انظر: من الاجتهاد إلى نقد الفكر الإسلامي، محمد أركون (ص٣٨، ٣٩، ٩٧)، والإسلام بين الرسالة والتاريخ، الشرفي (ص١١، ٢٩)، ومفهوم النص، نصر حامد أبو زيد (ص٣٠١).
(٧) من العقيدة إلى الثورة، حنفي (١/٥٨).
(٨) التراث والتجديد، حنفي (ص١١٣).
(٩) انظر: الفكر الإسلامي قراءة علمية (ص١٠٢).
(١٠) قضايا في نقد الدين، أركون (ص٢٨١).

العقل الحداثي لا يختلف عند ذلك التصور، بل يزيد عليه في الإغراق الباطني؛ فالوحي في تصوُّر الباطنية الحداثية ليس هو إعلام من الله - تعالى - لنبيه بواسطة جبريل، وليس هو شيئاً متعالياً عن الواقع؛ وإنما هو عبارة عما يشعر به النبي من سُمُوٍّ وما يصوره له خياله المتدفق والمتداخل مع الحالة الاجتماعية والنفسية التي يعيشها.

ويكشف حسن حنفي عن تصوره عن حقيقة الوحي فيقول: «الوحي بناء إنساني ووصف لوضع الإنسان في العالم»[1]، ويتفق محمد أركون مع هذه النظرة فيقول:«الوحي ليس كلاماً معيارياً نازلاً من السماء لإجبار البشر على تكرار طقوس الطاعة»[2].

والوحي الذي يحصل للنبي - في تصور الباطنية الجديدة - لا يختلف في حقيقته عما يحصل للكاهن والشاعر البليغ؛ فالأنبياء في حقيقة الأمر يشتركون مع الكهان والفنانين أصحاب الحس المرهف والشعراء الكبار في القدرة على استخدام فاعلية المخيلة في اليقظة والمنام[3].

وقد كان لهذه النظرة الباطنية انعكاسات كثيرة، من أبرزها: أن القرآن لم يعد هو كلام الله المنزل على نبيه، وإنما هو كلام الرسول الذي عبر به عن الشعور النفسي الذي هجم على عقله فحرك خياله الفسيح ليخرج لنا ما نسميه «القرآن المقدس»، وهو بناءً على ذلك لا يختلف عن كلام البشر في مصدره. ومن انعكاسه أيضاً: أن الوحي لم ينقطع بنبوة محمد ﷺ؛ وإنما هو حالة لا تزال مستمرة ما بقي النشاط الإنساني مستمراً ؛ لأن الإنسان يحتاج إلى أن يتجاوب مع واقعه الخارجي؛ فهو لا يستغني عن حالة الوحي التي مرت بالأنبياء[4].

وإذا كانت عقيدة اليوم الآخر والبعث والحساب والجزاء والجنة والنار عبارة عن رموز لا حقيقة لها عند الباطنية القديمة، فهي كذلك عند العقل الحداثي، عبارة عن رموز لمعانٍ أخرى، وهي كما يقول حسن حنفي تمثُّلات فنية وصياغات أدبية، «فأمور المعاد لا تشير إلى وقائع مادية وحوادث فعلية وعوالم موجودة بالفعل في مكان ما يعيشها الإنسان في زمان ما، بل هي بواعث سلوكية ودوافع للفعل»[5].

فالشريعة الإسلامية حين تذكر في نصوصها المقدسة الجنة والنار لا تقصد منها أمراً حقيقياً في تصور الباطنية الحداثية؛ وإنما قصدت مراعاة العقلية العربية البسيطة المبنية على تقبُّل الأسطورة، وفي تأكيد هذا المعنى يقول عبد المجيد الشرفي: «الرسالة القرآنية موجهة إلى أناس بأعيانهم في القرن السابع، وتتضمن ظواهر تتناسب مع ثقافة ذلك العصر، مثل: الجنة وإبليس والشياطين والملائكة والطوفان وعمر نوح، وهي ظواهر بعيدة اليوم عن التصورات الحديثة»[6]، ولا ينفك الخطاب الحداثي يكرر دوما بأن القرآن مليء بالأساطير التي كانت شائعة في الجاهلية، وأنه استخدمها من أجل نشر دعوته ورسالته[7].

وأما حسن حنفي فهو يتعامل باحترافية باطنية مع عقيدة الجنة والنار، «فالجنة والنار هما النعيم والعذاب في هذه الدنيا وليس في عالم آخر... الجنة ما يصيب الإنسان من خير الدنيا، والنار ما يصيب الإنسان من شر فيها»[8].

ويرى محمد أركون أن الإيمان بأخبار الجنة من الأمور التي توجب السخرية، فيقول: «أليس من الواجب علينا أن نتخلص من السخرية التي تتحدث عن جنة الله المملوءة بالحور العين وأنهار الخمر والعسل المرتبطة بالخيال الشعري لدى البدو»[9].

وإذا تتبع القارئ المنتج الحداثي فسيجد أمثلة عديدة نالها التأويل الباطني، ولم تسلم من سطوته، ومن أشهرها وأكبرها: العبادات الخمس التي تمثل أركان الإسلام، فقد تغيرت عن صورتها وشكلها وعددها وأنظمتها في النظرية الباطنية الجديدة[10].

وإذا كانت الباطنية استوعبت كلَّ المذاهب والاتجاهات، فكذلك الباطنية الحداثية؛ ولهذا أخذ يصرخ أتباعها بأنه لا يوجد إسلام واحد، له أصول مشتركة وعقائد محددة يُلزم

(١) من العقيدة إلى الثورة، حنفي (٥/٨٧).
(٢) من فيصل التفرقة إلى فصل المقال، أركون (ص٩٦)، وانظر: القرآن: من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني (ص١٩ - ٢٢).
(٣) انظر: مفهوم النص، نصر حامد أبو زيد (ص٥٦)، وتاريخية الفكر الإسلامي، محمد أركون (ص٣٨).
(٤) انظر: نقد الخطاب الديني، نصر حامد أبو زيد (ص١٨٩).
(٥) من العقيدة إلى الثورة، حنفي (٤/٥٣١).
(٦) الإسلام بين الرسالة والتاريخ، الشرفي (ص٤٥).
(٧) انظر أمثلة على ذلك: العلمانيون والقرآن الكريم، أحمد الطعان (ص٨١٥).
(٨) من العقيدة إلى الثورة، حنفي (٤/٥٣٣).
(٩) قراءات في القرآن، محمد أركون (ص١٢) نقلاً عن (العلمانيون والقرآن)، الطعان (ص٣٤٦)، وانظر: العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية تكري الربيعو (ص١٢٨).
(١٠) انظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبدالمجيد الشرفي (ص٥٩ - ٧٢)، والعلمانيون والقرآن الكريم، أحمد الطعان (ص٨٣٣).

الناس بها ولا توجد عبادات ظاهرة تجب على عموم المسلمين، فليس هناك إسلام صحيح موافق للحق وإسلام باطل، وإنما لكلٍّ إسلامه وتصوره، وكل التصورات صحيحة ولو كانت متناقضه مع نفسها[1].

وإذا كانت الباطنية القديمة حاولت أن تشرِّع لأفكارها بالاستدلال ببعض النصوص الشرعية والتراثية، فكذلك الحال في الباطنية الحداثية؛ فإن عدداً من روادها سعوا جاهدين في محاولة التعلُّق ببعض النصوص الشرعية والتراثية لتأسيس الشرعية لنظريتهم وموقفهم[2].

كل الشواهد السابقة تؤكد للقارئ على أننا أمام موجة جديدة من الباطنية، وأننا نشهد حالة انتعاش للمعول الباطني التي استخدم في تقويض معالم الشريعة الإسلامية سابقاً، وأننا في الحقيقة نستمع إلى صدى عالٍ ومتكرر لمواقف شهدها التاريخ الإسلامي من قبل.

والمستقرئ لنتائج الباطنية الجديدة يدرك بوضوح أننا أمام تحريف جديد للإسلام؛ فقد تغيرت معالم الإسلام الأساسية وتبدلت ملامحه الأصلية وانقلبت سماته الذاتية وصفاته الخاصة، وأصبح في المنتج الحداثي صورة أخرى مختلفة عما يعرفه المسلمون من دينهم؛ فالإسلام الذي يريد أن تصل إليه الباطنية الحداثية إسلام محرَّف ومبدَّل ومشوَّه، وليس هو الإسلام الحقيقي الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والمسلمون من بعدهم.

ونتيجة لما بين الباطنيتين من ارتباط منهجي وثيق حرص العقل الحداثي على أن يتبنى الباطنية القديمة ويثني على أتباعها ويقوم بإبرازهم وإخراجهم للوجود مرة أخرى، كما فعل نصر حامد أبو زيد وعلي حرب مع ابن عربي، وكما فعل محمد أركون مع أبي حيان التوحيدي، وكما فعل حسن حنفي مع السهروردي[3] فإنهم صوروا هؤلاء وغيرهم من الباطنية على أنهم الممثلون للعقلانية والفكر المستنير والتجديد والتطور في التاريخ الإسلامي.

ولا بد من التأكيد في ختام هذه المقارنة المنهجية على أن الحكم بالتطابق بين الباطنية القديمة وبين الباطنية الحداثية المعاصرة ليس معناه الحكم بالاتفاق بينهما في كل مفاصل الفكر ولا في كل فقرات النظرية نفسها، فإنه مع ما بينهما من اتفاق إلا أنهما تختلفان في عدة جهات:

الأولى: من جهة الفكرة المركزية؛ فالباطنية القديمة كانت ترتكز على فكرة الإمام المعصوم في تحديد المرجعية التي تحدد المعاني الباطنية، والباطنية الحداثية ترتكز على فكرة «التاريخية» التي تعني أن كل فكرة مرتهنة بزمانها وواقعها الخاص، فهذه الفكرة تمثل المرجعية التي يُعتمَد عليها في تحديد المعنى الباطني الجديد للحقيقة الشرعية.

الثانية: من جهة المنفذ التبريري، فالباطنية القديمة حاولت النفوذ إلى الفكر الإسلامي من خلال استغلال الانتساب إلى آل البيت النبوي، والتظاهر بحبهم والانتصار لهم، والباطنية الحداثية تحاول النفوذ إلى الفكر الإسلامي من خلال استغلال الانتساب إلى العلم والتطور والتقدم والحضارة والخروج من الأزمة العربية.

الثالثة: من جهة الدعم والتمويل، فالباطنية القديمة كانت تعاني من الانفراد والانعزال عن المجتمع وقُوبِلت بإنكار صارم من العلماء وكثير من الحكام وعموم المسلمين؛ فهي لم تلق دعماً ولا تمويلاً يساعدها على الانتشار، وهذا بخلاف الباطنية الحداثية، فإنها تحظى بدعم سخي من بعض الحكومات العربية والغربية، وتُعقد لها المؤتمرات والندوات في كثير من الجامعات والمعاهد، ويُبرز دعاتها في الفضائيات على أنهم هم رواد للفكر الإسلامي ومجدِّدوه.

الرابعة: من جهة الوضع الثقافي والسياسي للعالم الإسلامي، فالباطنية القديمة خرجت في زمان كان العالم الإسلامي يعيش في عز مجده وفي عنفوان فتوته وقوته، سواء في المجال العلمي والمعرفي أو في المجال السياسي، وإما الباطنية الحداثية، فقد خرجت في زمان يعاني فيه العالم الإسلامي من الضعف الفكري والسياسي ومن التشتت وسطوة العدو وطغيان الاستبداد وتغييب الشعوب، وفي مثل هذه الحالات يعم الجهل بالدين وبحقائقه ومعالمه، ويتسبب ذلك عادة في تفتح الأبواب لنفوذ المناهج المخالفة لحقائق الدين ولأصوله.

(١) انظر: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، محمد أركون (ص١٨٩)، والإسلام بين الرسالة والتاريخ، الشرفي (ص١٤)، والممنوع والممتنع، علي حرب (ص ١٠٨، ١٨٠)، ونقد الحقيقة، علي حرب (ص٨٣).

(٢) انظر: حصاد الزمن (الإشكالات) حسن حنفي (ص٦٥)، ومفهوم النص، نصر حامد أبو زيد (ص٤٣).

(٣) انظر في نقل كلامهم: العلمانيون والقرآن الكريم، أحمد الطعان (ص٧٣٦ – ٧٣٧).

هاجس الرحيل
في شعر د. حسين علي محمد

محمد شلال الحناحنة

سيظل الشاعر حسين علي محمد – رغم فجيعتي بفقده قبل أشهر قليلة – صوتاً شعرياً يشجيني ويصهل في أعماقي، وينثر الملح في جراحي، سيظل يقاسمني أفراحي وأحزاني ما دامت الذاكرة تستحضر قوافيه وتجاربه، وسيرته الأدبية والذاتية منذ أن عرفته يحلق في فضاء الأدب الأصيل أديباً وناقداً؛ إذ صاحبته في ملتقى الأدباء الشباب مديراً للملتقى برابطة الأدب الإسلامي العالمية في الرياض، وكان نعم الناقد لنصوصه الملقاة سنوات عديدة.

شجر الغيث:

يُلحُّ الشاعر المرحوم حسين علي محمد في شعره على الرحيل في ثنائية من الفرح والحزن، وهي ثنائية لا تكاد تغادر كثيراً من قصائده، وليست الحياة في واقعها وجوانبها المتعددة إلا مرآة صادقة لهذه المراوحة بين الفرح والحزن؛ ففي ديوانه (الحلم والأسوار) الذي يرمز لهذه الثنائية في عنوانه يقول في قصيدته (خمس قصائد ...):

أحببتك يا شجر الغيث
وتحت فروعك عشت أصلي
أحلم أن تمطرني أشجارك بالسلوى والمنِّ
لكني أتقدم عبر دهاليز الحزن
ولا أبصر قدَّامي غير الأفراس الملتاعة تبكي
هل أحيا لأموت؟
وهل أحيا لأعانق أشرعة غروبي؟

تومض الأسئلة لدى شاعرنا حسين علي محمد كسنابل خضراء، لكنها أسئلة تتقدم للحزن لأننا نراه دائماً يهجس بالموت والرحيل، بل هو يحيا ليموت، ويموت ليحيا، يفرح ليعانق أحزانه، ويمعن في رسمه لمشهد الحضور والغياب: (أحببتك، أصلي، أحلم، أبصر، أحيا، أموت، أتقدم، أعانق)... هكذا يمضي في نداءاته ولوعاته: (يا شجر الغيث)!

جسر الأحزان:

نقف مع قصيدته (الرحيل) من ديوانه (غناء الأشياء) الصادر عن اتحاد الكتاب المصريين عام ٢٠٠٢م، التي تعبِّر عن معاناة نازفة حتى في عنوانها، والسؤال المفجع: تُرى لِمَ يهجس الشاعر حسين علي محمد دائماً بالرحيل؟

إن «الرحيل» يتكرر في دواوينه، وفي مقاطع كثيرة! ولكن هل هو الرحيل عن الحياة أم إليها؟ بل نراه قد سمى أحد دواوينه (الرحيل).

ويوغل الشاعر في المزج بين الفضاء الحسي والفضاء المعنوي، كما يمضي إلى بث خيوط الفجر رغم الليالي الحالكات فيشدو لنا حاملاً شموس أحلامه:

أترحلُ في ليالٍ يائسات
بأفراسٍ ضوامرَ سابحات
ولا حادٍ هناك ولا طريق
وتنهلُ من كؤوسٍ مذنبات؟
وقلبُك أفل، والشمسُ حُلُم
أتشرق بعدَ موتك في الغداة؟
أأعبرُ جسرَ أحزاني وأمضي
كبرقٍ في الليالي الدامسات؟
وصوت الفجر يهتف: يا فؤادي!
أَصِخْ سمعاً لضوضاء الحياة
غداً أشدو، غداً أشدو، وأشدو
بأنغام الحياة الباسمات؟

العودة إلى مكة المكرمة:

وفي ديوانه: (الرحيل على جواد النار) تطل علينا قصيدته (العودة إلى مكة) من نافذة الرحيل كذلك، لنجد أن شاعرنا حسين علي محمد يكتوي بهموم الأمة، ليضيء نفوسنا بالهمم العالية، وليس استنهاض حس المكان وقدسيته (مكة المكرمة) إلا ليروي ظمأنا من النبع الصافي إيماناً وروحانية وقدسية، وهو نبع يزيد تدفقاً مع كل صباح جديد.

أما لغته فهي لغة مشبعة بالأسى؛ إذ يمضي مع خيوله الراحلة حالماً بالتغيير رغم ما يغمره من آلام:

ترحل كل خيولي
راكضة نحو النهر
ترحل عبر حقول القيظ
تحمل في الذاكرة الشمعية بعض رؤى خضراء
تحلم، والشفق الأحمر يصفعني
وسؤال في الأعماق يؤرقني
هل أصل إلى النبع صباحاً
أم أصل وقد ماتت أضواء نهاري؟

رحيل الظلال:

كيف تخدعنا المنافي؟ وأنَّى تفيض علينا الظلال من غربة الذات إلى غربة الذات؟ وأنَّى نعانق القافلة حين يسيل من دمها الشفق، وتذوب خطاها في رمال الألق...؟ هكذا هو شعر حسين علي محمد، وهكذا بدت قصيدته (رحيل الظلال) المنشورة في ديوانه (المتنبي يشرب القهوة في فندق الرشيد)، هذه القصيدة تتكئ على الحوار الداخلي بأسلوب إنشائي، وكأنه يرثي ظله أو نفسه لا فرق:

الظلال التي أدمنتْ حبنا - هجرنا
هكذا قالت الريح في سفرها
تخدع الروح، توعدنا بالهلاك
فهل ترحل الآن - قبل رحيل الظلال - خطا القافلة؟
قالت الآن هذي الظلال التعيسة:
هذا أوان الرحيل
سأترك وقع خطاك على الصخر...

هذا هو شاعرنا حسين علي محمد يشعل فينا الجراح من قافية إلى قافية، فتبكيه القوافي قبل أن نبكيه!

في حوار مع البيان

الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا

الدكتور صلاح الصاوي: معقد الولاء والبراء الكتاب والسنة

أكد الدكتور صلاح الصاوي في حوارنا معه أن لفظ (السياسة) لم يرد في القرآن، وإنما جاء في السنة النبوية المطهرة، كما بين لنا مفهوم مصطلح الجماعة، موضحاً كيفية تحقيق المدلول الشامل لجماعة المسلمين عندما يجتمع (المنهج والدولة التي تحمي هذا المنهج)، موضحاً الشروط الثلاثة لبقاء تلك الجماعات الإسلامية والدعوية في إطار الشرعية.

كما سألنا فضيلتَه عن الأحزاب والتيارات الإسلامية وحكم تعدُّدها؛ تيمُّناً بتعدُّد المذاهب الفقهية الأربعة؛ فذكر فضيلتُه أربع سمات إن تحققت فلا ضير من تعدُّد تلك الحركات؛ وإلا فلا.

كما أشار الأستاذ الدكتور الصاوي إلى أن الأصل الجامع الذي ينبغي أن يجمع بين فصائل العمل الإسلامي، هو الالتزام المُجمَل بأصول أهل السنة والجماعة، والبراءة المجمَلَة من كل ما يخالفها من الفِرَق والأهواء، واضعاً لهم خريطة طريق لكيفية جمع الكلمة ووحدة الصف. دونما أن تعتقد كلُّ جماعة أنها هي الأصل وعلى الآخرين اتباعها؛ زاعمة أنها - فقط هي - التي على صواب، وكيف أن هذا الأمر قد كرَّس التنازع بينها طوال العقود الثلاثة الماضية، وقد آن لها بعد هذه المسيرة المضنية أن تتلمس سُبل الرشاد في هذه القضية.

إنه الأستاذ الدكتور محمد صلاح محمد الصاوي، المعروف بالدكتور صلاح الصاوي، الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية.

البيان: نبدأ لقاءنا بالحديث عن السياسة الشرعية وتطبيقاتها في عالم الأحزاب السياسية؛ فهل ورد لفظ «السياسة» أو حتى مادته في القرآن والسنة؟

الدكتور الصاوي: لم يرد لفظ (السياسة) ولا حتى شيء من مادته في كتاب الله سبحانه وتعالى، وإن جاء الحديث فيه عن الصلاح والإصلاح والأمر والنهي وغير ذلك من المعاني التي اشتمل عليها لفظ (السياسة). وأما السنَّة فقد صحَّ عن رسولنا ﷺ قوله: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي...»، وقوله ﷺ: «تسوسهم الأنبياء»؛ أي: تتولى أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية.

ويراد بالسياسة في هذا الحديث: القيام على شأن الرعية من قِبَل ولاتهم بما يصلحهم من الأمر والنهي والإرشاد والتهذيب، وما يحتاج إليه ذلك من وضع تنظيمات أو ترتيبات إدارية تؤدي إلى تحقيق مصالح الرعية بجلب المنافع أو الأمور الملائمة، ودفع المضار والشرور.

مصطلح الجماعة:

البيان: تحدثتم كثيراً عن ضرورة فهم أفراد الجماعات الإسلامية لفقه «الجماعة»؛ فماذا قصدتم بمصطلح «الجماعة»؟

الدكتور الصاوي: المقصود بالجماعة: هي تلك التجمعات الدعوية التي شهدتها الساحة الدعوية منذ قرابة مائة عام، وفيها انقسم الناس إلى طرفين وواسطة بينهما، فمنهم من أوجبها وجوباً عاماً على كل أحد، بل غلا بعضهم فجعلها جزءاً من أصل الدين، وشرطاً في الانتساب إلى جماعة المسلمين، ومنهم من حرمها تحريماً عاماً على كل أحد، واعتبروها من صور الابتداع في الدين، والتفريق لجماعة المسلمين العامة! وقالوا لا يجوز تفريق جمع المسلمين بإيجاد حزب إسلامي أو جماعة إسلامية يُعقد على أساسها الولاء والبراء، أو تتضمن منازعة السلطان؛ لما في ذلك من تفريق الجماعة، وشقِّ عصا الطاعة.

أما الفريق الذي توسط في المسالة فهو من رأى جوازها في إطار جملة من الشروط التي تنفي عنها هذه المحاذير التي توجَّس منها المانعون، وتُبقي على المقاصد التي تحمَّس لها من أجلها المتحمسون.

البيان: ما القول الفصل في هذا الأمر فضيلة الدكتور؟

الدكتور الصاوي: صفوة القول في القضية أن النصوص قد استفاضت في الحضِّ على لزوم الجماعة، والتحذير من مفارقتها، وبيان أن من شذَّ عنها فقد شذَّ إلى النار، وأن من مات على ذلك فميتَتُه جاهلية.

وأقول: إن الباحث في المسألة يستطيع أن يميز في هذه النصوص بين طائفتين:

الأولى: وردت فيها الجماعة في مقابلة الفِرَق والأهواء، ويرجع معنى الجماعة فيها إلى الحق والسنة، ويقابلها: التفرُّق في الدين، ويسمى المخالف لها: مبتدِعاً وضالاً، وإن كان لازماً للإمام ومتمسكاً ببيعته، ومن هذه النصوص: ما رواه أبو داود وغيره من قول النبي ﷺ: «إنَّ أهلَ الكِتَابَيْنِ افتَرقُوا في دِينِهِم عَلَى ثِنتَيْنِ وسَبعينَ مِلَّةً، وأنَّ هَذه الأُمةَ سَتفترقُ عَلى ثَلاثٍ وَسَبعينَ مِلَّةً (يَعنِي: الأهْوَاء)، كُلُّها في النَّارِ إلاَّ وَاحِدَة، وهِي الجمَاعةُ».

والجماعة بهذا المعنى لا يُشترط لها قلَّة ولا كثرة، بل هي موافَقَةُ الحق وإن خالفه أهل الأرض. قال نُعيم ابن حماد: إذا فسدت الجماعة، فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت حينئذٍ وحدَك.

والخروج عن الجماعة بهذا المعنى تنشأ عنه الفِرَق، فالفرق هي التي تحزَّبت على أصول كلية تخالف ما عليه أهل السنة والجماعة، ويجري مجرى الأصول الكلية كثرة الجزئيات؛ فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة.

والتحزب بهذا المعنى مرفوض في دار الإسلام، وفي دار الكفر، ولا منازعة في ذلك.

أما الطائفة الثانية: فلقد وردت فيها الجماعة بمعنى الاجتماع على

الإمام، والطاعة للسلطان ما لم يُرَ منه كفرٌ بـــواحٌ، والجماعة بهذا المعنى تقع في مقابلة: البغي والتفريق في الراية، ويســـمى المفـــارق لها: باغيـــاً وناكثاً، وإن كان مـــن أهل الســـنة، ومن هذه النصوص: ما رواه الشـــيخان عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيئاً يَكرهُه فَلْيصبـــرْ عَليه فَإِنَّه مَنْ فَارقَ الجَماعَة شِبراً فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتةً جَاهِليَّةً»، وما رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ خَرجَ عَن الطَّاعَة وَفـــارَقَ الجَماعةَ ثُمَّ مَاتَ مَاتَ مِيتةً جَاهِليَّةً».

والخروج عن الجماعة بهذا المعنى تتفاوت مراتبه بحســـب الباعث على هـــذا الخروج، فقد يكـــون حرابةً؛ إذا كان لقطع السبيل، أو سفك الدماء، أو أخذ الأموال، وقـــد يكون بغياً إذا كان طلباً للملك بتأويل سائغ أو غير سائغ، وقد يكون كفـــراً بالله إذا كان ردةً عن الإسلام وانحيازاً لمعسكر الكافرين.

البيان: وكيف يتحقق المدلول الشامل لمصطلح «الجماعة» الذي فصَّلتم مفهومه؟

الدكتور الصاوي: علينا أن نميز بين جانبين في هذا الأمر:

الأول: يشير إلى الدعوة أو المنهج الذي تحمله هذه الجماعة.

والثاني: يشير إلى الدولة أو القوة اللازمة لحماية هـــذا المنهج والتمكين له في واقع الحياة. واعلم أنه باجتماع هذين الأمريـــن (منهج، ودولة تحميه) وقتهـــا فقط يتحقق المدلول الشـــامل لجماعة المسلمين.

شروط واجبة:

البيان: إن المنازعة تنشأ في تعاقد فريق من المسلمين على عمل من أعمال الخير لم يخرجوا فيه عن أصول أهل السنة والجماعة من ناحية، ولم ينازعوا السلطان الشرعي القائم من ناحية أخرى، ولم يعقدوا الولاء والبراء على أساسه من ناحية ثالثة؛ فهل نمنع هذا التعاقد بحجة التفريق بين المسلمين، والتمييز بينهم باسم أو رسم؟

الدكتور الصاوي: لكـــي تبقـــى هذه التجمعات الدعوية في إطار الشرعية لا بد لها من ثلاثة شروط ينبغي تحقُّقها دائمـــاً، حتى تظل هـــذه التعاقدات في نطاق الشـــرعية، وهي: ألا تَتحزَّب على أصل بدعيٍّ يخالف أصول أهل السُّـــنة والجماعـــة، أو بـــدع جزئيـــة كثيرات، وألا تتجه إلى منازعة الســـلطان المسلم العدل الذي يقيم فـــي الناس كتاب الله ويُقـــر بمرجعية الشـــريعة فـــي علاقة الديـــن بالـــدولـــة وفي علاقـــة الدين بالحيـــاة، ولا تســـعى في نقض بيعته، أو حلِّ عُقدة إمامتـــه؛ إلا إذا كان ذلك من خلال منظومة دستورية اتُّفق عليها في مشارطة مسبقة بين الحاكم والمحكوم.

وكذلك ألا يُعقَد الولاء والبراء على هذه الأعمال التي انتصبت للقيام إليها؛ لأن معقد الـــولاء والبراء هـــو الكتاب والسنة على رســـم منهاج النبوة لا غير ذلك.

وأتذكر أنه قد ســـئل شيخ الإسلام ابـــن تيمية عـــن جماعة يتخـــذون لهم رأســـاً، ويســـمون حزبـــاً، ويدعون إلى بعض الأشـــياء، فكان جوابه: الأحزاب التي أهلُها مجمِعون على ما أمر الله به ورســـوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم مـــا لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانـــوا زادوا في ذلك ونقصوا؛ مثل التعصـــب لمن دخل فـــي حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمَّن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق أو الباطل، فهذا من التفرق الـــذي ذمه الله تعالى ورسوله.

التعدد والمذاهب:

البيان: هل يصلح تعدُّد هذه المذاهب مدخلاً لتعدُّد الحركات الإسلامية فتقبله الأمة كما قبلت بتعدد المذاهب، وترى فيها إثراء للتجربة الإسلامية وإنماءً لرصيد الخبرة لديها واستيعاباً لأكبر قدر من المنتسبين إلى الإسلام في هذه الأوعية الفاعلة النشطة، وتوزيعاً للمخاطر بحيث إذا ضُرب فصيل منها في وقت من الأوقات استمر العمل الإسلامي بغيره من الفصائل؟

الدكتور الصاوي: بالفعـــل لقد تلقَّت الأمـــة بالقبول العـــام المذاهب الفقهية الأربعة، التي تدور جميعاً في فلك أهل السنة والجماعة؛ إذ لا يرجع الاختلاف بينها إلى الأصول والمذاهب الاعتقادية، بل إلى الفروع والمسائل الاجتهادية.

ولا شـــك أن هـــذه المذاهب كانت بركـــة على الأمة وتوســـعة عليها بما خلَّفته وراءها من ثروة تشريعية كبرى جعلت الأمة الإسلامية في سعة من أمر دينها وشريعتها فلم تنحصر في تطبيق شـــرعي واحد لا منـــاص لها منه إلى غيره، بل إذا ضاق بالأمة مذهب أحد الأئمة الفقهاء فـــي وقت من الأوقات أو في أمر من الأمور وجدت في غيره من المذاهب ســـعة ورِفقاً ويُسراً على

ضوء الأدلة الشـــرعية، ولم يكدر على هذه النعمة إلا غاشـــية من التعصب غشـــيت بعض أتباع هذه المذاهب في وقت لاحق ورثوا عن الأمة علومهم ولم يرثوا عنهم خُلُقَهم وأدبهم في التعامل مع المخالف فكانـــوا انعطافة عارضة في ذلك المناهج الراشد القويم.

وللإجابة على هذا الســـؤال يجب أن نُمعِن النظر في تعدُّد المذاهب الذي قبلته الأمة ونستخلص سماته العامة، ثم نرى مـــدى القدرة على تحقُّق ذلك في واقع الحركة الإسلامية.

فمـــن أهـــم الخصائـــص العامة في تعـــدُّد المذاهب: وحـــدة المذهبية العقديـــة؛ فهي تنتســـب جميعها إلى أهل الســـنة والجماعة، ومنها كذلك: حصـــر الاختلاف في دائـــرة الفروع والمســـائل الاجتهادية، الذي لا علاقة له بأصـــول الشـــريعة ولا بقواعدها الكليَّـــة، ثم يأتي بقاء الأُلفة والعصمة وأخوَّة الدين سِـــمَة أخرى من سمات المذاهب الأربعـــة، وأخيـــراً: فائدته المحقَّقة في الرحمة بالأمة والتوسعة على المسلمين.

البيان: هل يمكن أن تتحقق هذه المعاني في تعدُّد فصائل العمل الإسلامي المعاصر فتتلقاه الأمة بالقبول كما تلقَّت بالبقول تعدُّد المذاهب من قبل؟

الدكتور الصاوي: إن تحققـــت هذه الســـمات الأربعة التي ذكرنها في تعدُّد فصائل العمل الإســـلامي، فيكون هذا بداية طريـــق حقيقي إلـــى قبوله، كما قبلت الأمة تعدُّد المذاهب من قبل ولم ترَ فيه تفتيتاً للأمة، ولا خروجاً عن جماعة المسلمين.

ضوابط ومعايير:

البيان: ألا مـــن ضـــوابـــط ومعـــايـــير شرعية في عملية التعدُّد الحزبي؟

الدكتـــور الصـــاوي: بلى، بل إنها واجبة، وبانتفائها ينتفي حكـــم جوازها، ومنها: أن التعدُّد المقبول هـــو تعدُّد التخصص والتنوع، وليس تعـــدُّد التضاد والتنازع، فالأصل الجامع الـــذي ينبغي أن يجمع بين فصائل العمل الإسلامي هو الالتزام المُجمَل بأصول أهل الســـنة والجماعة، والبـــراءة المجمَلَة من كل ما يخالفها من الفرق والأهواء.

ثم يأتي ضابط الاتفاق على الكليات والثوابت والتغافـــر في موارد الاجتهاد، حتى تتآلف القلوب فلا تختلف، وتتعارف الأرواح فـــلا تتناكر، ولا بد من المواجهة الشُّـــجاعة والحكيمة لقضايا الخلاف المنتشـــرة بين فصائل العمل الإسلامي، وتطويق الخصومة الدائرة حولها تمهيداً لإنهائها.

البيان: ولكن هناك من يتخوَّف من مجرد التعرُّض للقضايا الخلافية بين تيارات العمل الإسلامي؛ وذلك لما تنكأه من جـــراح، ولما تثيره من فتن، وهذا بالفعل ما أثبتته السنوات الماضية من عُسر الالتقاء حول تلك القضايا، أو حتى تحقيق تقدُّم ملحوظ في التقريب بين أطرافها؟

الدكتور الصاوي: ومع ذلك فإننا – على الرغم من تقديرنا لكل هذه الاعتبارات – لا زلنا نرى ضرورة التصدي لهذه القضايا، وعرضهـــا على بســـاط البحـــث العلمي المتجـــرد، على أن يتم ذلـــك بمنهج جديد يختلف فـــي بعض جوانبه عن المناهج التي تمَّت بها المحاولات الســـابقة في ما مضى ولم يقدَّر لها النجاح المنشود.

خريطة طريق:

البيان: إذن كيف السبيل العملي لهـذا الأمـر، وبمـاذا تنصح في هذا الصدد؟

الدكتـور الصـاوي: للتوفيـــق في هذه المحاولة علينا أن نبدأ بالاتِّفاق حول هذا المنهج، وهو ما يعبَّر عنه في عالم المباحثات السياسية بإعلان المبادئ، والذي يجب أن تتلخص معالمه في أن منهج أهل الســـنة والجماعة هو الإطار الذي يجب أن تتقيد به الحركات الإسلامية كافة، وأن مسائل الإجماع يجـــب أن تكون موضع قبول من أهل الدين كافة، وأن مسائل الاجتهاد لا يُضيق فيها على المخالف؛ مَنْ عَمِلَ فيها بأحد القولين لم يُنكـــر عليه ولم يُهجر، وأن مســـائل الخلاف المعتبر هو خلاف أهل العلم لا خلاف العامة وأشباه العامة، وأن زلة العالم لا يُعتَد بها، ولا يشنَّع عليه بســـببها، وأن مبنى الشريعة هو تحقيق أكمل المصلحتين ودفع أعظم المفسدتين.

فـــإن الاجتهاد المبني علـــى الموازنة بين المصالح والمفاســـد من دقائق الفقه التي يجب أن تفوض إلى أهل العلم، ولا مدخل في ذلك للعامة ولا لأشباه العامة.

فإذا تم الاتفـــاق على هذه الأصول بعـــد توثيقها من أهل العلـــم ننتقل إلى الخطـــوة التالية، وتتمثـــل هذه الخطوة في الاســـتقراء الدقيق لقضايا الخلاف المنتشـــرة، لتوضع بين يدي لجنة علمية متخصصة تقـــوم بالتفريق بين مواضع الإجمـــاع ومواضـــع النـــزاع؛ حيث يتم التأكيد على مواضـــع الإجماع، ثم يبدأ

الحوار حول المسائل المتنازَع عليها، ومحاولة ردِّها إلى أصول أهل السنة والجماعة.

ومن ثَمَّ يصاغ من هذا كله في وثيقة جامعة تتبناها جميع هذه الاتجاهات، وتتضمنها برامج الدعوة والتربية في مختلف المواقع، وبهذا يتمهد السبيل إلى تقارب حقيقي عميق، وإلى مزيد من الخُطى التالية في الطريق إلى جماعة المسلمين.

ويتوج ذلك بإنشاء مجلسٍ أعلى للتنسيق تُمثَّل فيه كافة الاتجاهات، ويقوم بدور التنسيق والتكامل، واحتواء الأزمات والتصدُّعات، وإيجاد وحدة موقف في القضايا الإستراتيجية التي يتعيَّن على العمل الإسلامي أن يواجهها بروح الجماعة الواحدة.

البيان: وهل ترى فضيلتكم أن ما عرضته من خارطة طريق لجمع الكلمة بين التيارات الإسلامية موجود بالفعل، أم أنها لم تدخل في حيِّز التنفيذ إلى الآن؟

الدكتور الصاوي: ليس ما ذكرت بمستغربٍ على الواقع الآن؛ فلا تزال التكتلات الدولية تمارس دورها في التنسيق والتكامل بين أعضائها دون مساس بالمرونة الداخلية لهؤلاء الأعضاء في تنظيم أمورهم الخاصة على النحو الذي يريدون.

ولا تزال المجالس العليا للجامعات تنسِّق العمل بين أعضائها، وتيسر لهم سبل التعاون البنَّاء في إطار سياسات كلية جامعة، مع احتفاظ كل عضو فيها بالمرونة الكاملة في ترتيب أموره الداخلية.

البيان: هل هناك ضوابط أخرى، أم فقط ما ذكرتَ فضيلتكم؟

الدكتور الصاوي: هناك بعض الضوابط الأخرى، ومنها: شد آصرة التآخي على رسم الكتاب والسنة، وليس على رسم هذه الجماعات، وهذه من البديهيات؛ فالحمد والذم، والقرب والبعد، والعداوة والولاية، والمحبة والبغضة، كل ذلك لا يجوز عقده إلا على أساس الكتاب والسنة؛ حتى لا يُخْتَرَقَ سياجُ الأخوة الإيمانية العامة برسوم هذه الجماعات ولا بقوالب هذه التنظيمات.

ومن تلك الضوابط: وحدة الموقف في المهمات والمصالح العامة، وأيضاً: تبادل التسديد والتناصح؛ فلا يعني قبولنا بالتعدد القائم في ساحة العمل الإسلامي على أساس التخصص والتنوع أننا نفرِّط في بذل النصيحة الواجبة؛ فإن «الدين النصيحة»، وهي حقٌّ لكل مسلم على أخيه «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»، كما جاء في الحديث، وأحق الناس بها في هذا المقام هم هؤلاء الذين تَنَادَوا إلى أمر جامع من الدعوة، أو الجهاد حماية للمسيرة من الزَّلل وضنًّا بها عن أن تتفرق في الشعاب والأودية.

البيان: نعود مرة أخرى للضوابط والمعايير الشرعية في عملية التعدُّد الحزبي؟

الدكتور الصاوي: آخر هذه الضوابط أن تتبنى هذه الأحزاب المفهوم الصحيح لجماعة المسلمين، وأقصد هنا: أن تتجاوز كلُّ جماعة من هذه الجماعات عقدة أنها هي الجماعة، وأن على غيرها أن يتبعها لا محالة، أو أنها وحدَها على الحق وأن على غيرها أن يجيء إلى هذا الحق، فإن هذا التصور قد أرهق هذه الجماعات من أمرها عسراً، وكرَّس التنازع بينها طوال العقود الثلاثة الماضية، وقد آن لها بعد هذه المسيرة المضنية أن تتلمس سُبُل الرشاد في هذه القضية.

الحزب:

البيان: إذا كان ما سبق هو في الجماعة، فما الفارق بينها وبين الحزب السياسي؟

الدكتور الصاوي: الحزب طائفة متحدة من الناس، تعمل بمختلف الوسائل الديمقراطية للفوز بالحكم بقصد تنفيذ برنامج سياسي معيَّن، ويكون من خلال ثلاثة مقومات أساسية، هي: أنها تكتُّل بشري، ألَّفت بينه وحدة الانتماء إلى برنامج سياسي معيَّن؛ سواء أبلغ هذا البرنامج مبلغ الأيديولوجية العامة، أم اقتصر على بعض الإصلاحات الجزئية، ثم الالتزام بالديمقراطية في أساليب العمل؛ وذلك بإعلان برنامجه السياسي، وجمع الناخبين حوله تمهيداً للظفر بأصواتهم، والحصول على الأغلبية التي يتمكن من خلالها من وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ. وعلى هذا فالحركات الانقلابية المسلحة أو التي تعتمد العنف وسيلة من وسائل التغيير لا تدخل في دائرة الأحزاب السياسية بالمفهوم الاصطلاحي لهذه الأحزاب، وأخيراً: الوصول إلى السلطة لتنفيذ برنامج سياسي معيَّن، وهو هدفٌ جامع تشترك في السعي إلى تحقيقه كافة الأحزاب السياسية.

[المسلمون.. والعالم]

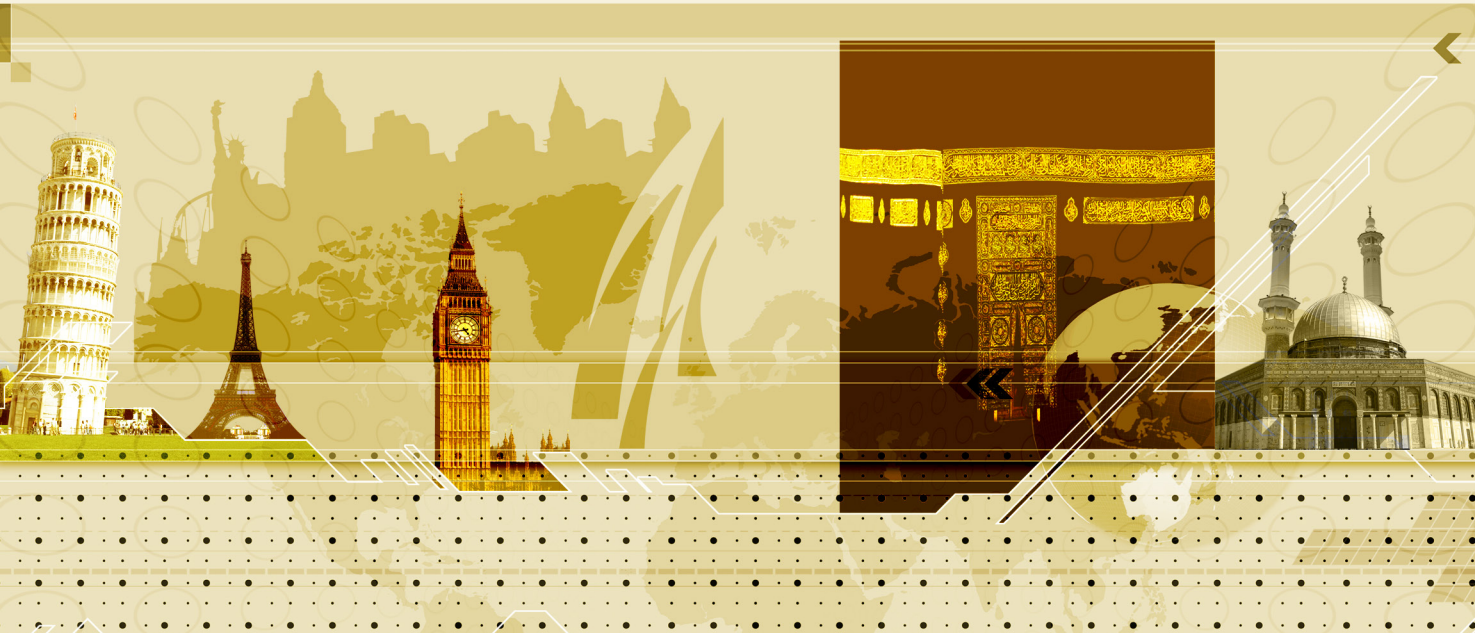

إغـلاق مضيق هرمز بين التهويل والتهوين...
جمال سالم

الإسلاميون والتحديات المرتقبة
مولاي المصطفى البرجاوي

الشعارات الدينية بين الكونجرس الأمريكي واللا دينين في البلدان الإسلامية
مصطفى مهدي

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

مجلة البيان

www.albayan.co.uk

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

موقع البيان الإلكتروني
يطلق نافذته الإندونيسية

bayan@albayan.co.uk

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

جديد ..

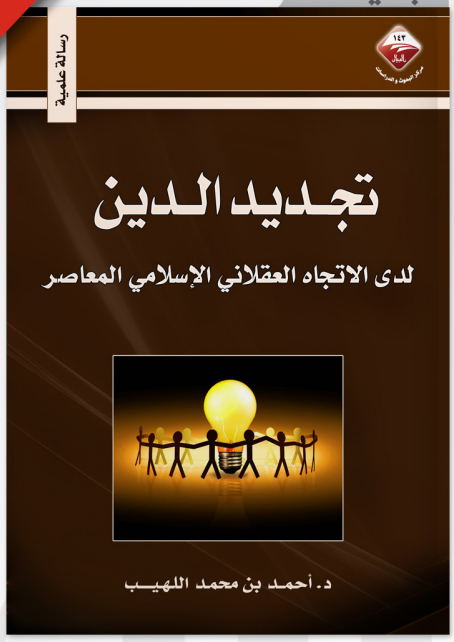

جديد ..

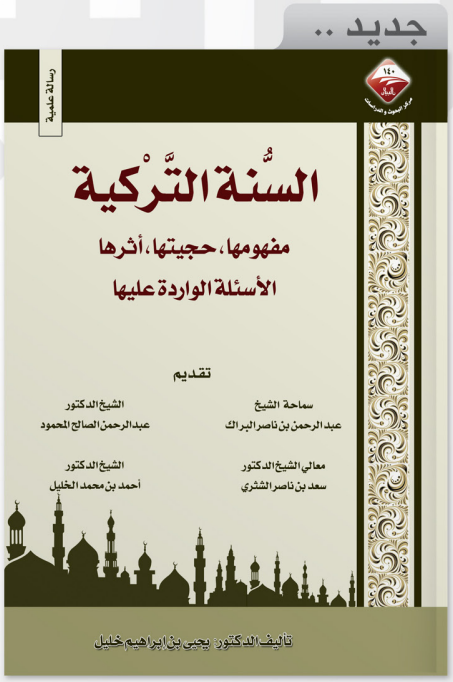

جديد ..

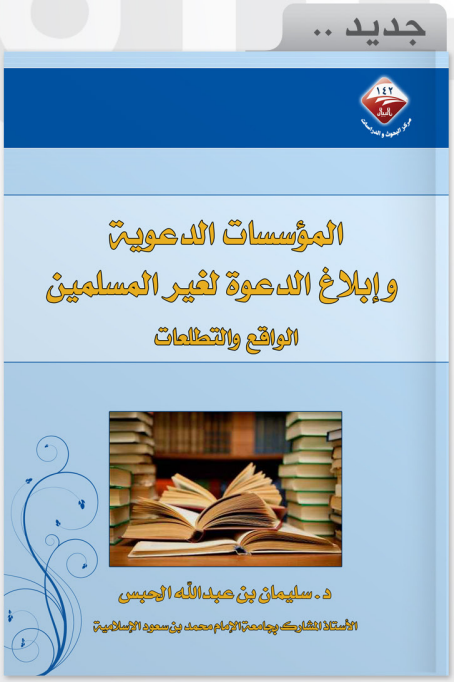

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

إغلاق مضيق هرمز بين التهويل والتهوين...

جمـــــال ســـــالم(*)

برز اســم مضيق هرمز إلى ســطح الأحداث العالمية بعد أن هددت إيران بإغلاقه، بــل وإعلانها إجراء مناورات بحرية فيه في فبراير القادم اســتكمالاً لمناورات سابقة، وهو ما يهدد بانفجار الأوضاع فيه واشــتعال حرب جديــدة. على الجانب الآخر يــرى آخرون أن ما يجري ما هــو إلا حرب كلامية بين الغرب وإيران يحاول كل طرف فيها تحقيق أقصى مكاسب له.

بــدأت التهديدات الإيرانية رداً على قــرار وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي في ديســمبر الماضي بتشديد العقوبات على إيران التي تُعَــدُّ خامس أكبر دولة مصــدِّرة للنفط الخام في العالم، استناداً لتأكيد الوكالة الدولية للطاقة الذرية بمحاولتها تصميم قنبلة نووية.

وســرعان ما بدأت الحرب الكلامية؛ حيث أعلن حبيب الله سياري (قائد البحرية الإيرانية) أن إغلاق طهران لمضيق هرمز أمام ناقلات النفط ســيكون أســهل من شربة ماء إذا رأت بــلاده ضرورة لذلك، ولكننا حالياً لســنا بحاجة ملحَّة لإغلاقه؛ لأن بحر عمان تحت سيطرتنا ونستطيع أن نسيطر على الممر.

وتصاعدت التهديدات بأن إيران ســتمنع مرور النفط عبر مضيــق هرمز إذا فُرِضَت عقوبات علــى صادراتها من النفط الخام، وهو ما سيؤدي إلى ارتفاع أسعار النفط العالمية.

وأكد محمــد رضا رحيمي (نائب الرئيس الإيراني) أنه إذا فرضت الدول الغربية عقوبات على النفط الإيراني فلن تسمح إيران بقطرة نفط واحدة تعبر مضيق هرمز.

وصعَّــد الأميرال علي فدوي (قائــد البحرية في الحرس الثــوري) التهديدات بــأن المناورات القادمة ســتكون مختلفة مقارنة بالتدريبات الســابقة التي تم خلالهــا اختبار صواريخ طويلــة المدى في الخليج العربي وإعداد البحرية لمواجهة العدو في وضع شبيه بالحرب.

وقال نائب القائد العام للحــرس الثوري الإيراني (العميد حسين سلامي): إن الولايات المتحدة ليست في وضع يسمح لها بأن تملي على إيران موقفها بشأن مضيق هرمز الإستراتيجي، إن الولايات المتحدة ليست في وضع لتسمح لنا أو لا تسمح، وهو ما ثبت في الأعوام الأخيــرة. وإذا تعرضت مصالحنا الحيوية للخطر فإننا ســنردُّ بحســم ولن نتخلى عــن تحقيق أهدافنا الإستراتيجية.

ولم يقــف الغرب مكتــوف الأيدي أمام تلــك التهديدات بإغلاق مضيق هرمز الذي يمر خلاله نحو ٤٠٪ من شــحنات النفط العالمية المنقولة بحراً؛ فأعلنت فيكتوريا نولاند المتحدثة باســم وزارة الخارجية الأمريكية أن التهديدات الإيرانية غير عقلانية بسبب العقوبات الدولية المفروضة عليها.

(*) صحفي مصري.

تقليل المخاوف:

وحاولتْ الأوســـاط الغربية التقليل من فزع شـــعوبها من الخطوة الإيرانية بإرســـال تطمينات لهم؛ حيث اعتبر مسؤولو الأسواق النفطية أن التهديد الإيراني «مجرد كلام».

وقالت آمي ديريك فروست (الناطقة باسم الأسطول الخامس الأمريكي الموجود في الخليج): إن التدفق الحر للسلع والخدمات من خـــلال مضيق هرمز أمر حيوي لتحقيـــق الازدهار الإقليمي والعالمـــي. وكل من يهدد بتعطيل حريـــة الملاحة في مضيق دولي يخـــرج عن المجتمع الدولي. ولن يتم التســـامح معه وأن البحرية الأميركية مســـتعدة لردع أو مواجهة أي أنشطة تزعزع الاستقرار بما يخالف الاتفاقيات الدولية لضمان الأمن والســـلامة في المياه الدولية لجميع السفن التجارية.

لكن طهران رفضت التحذير الأميركي على لسان الجنرال حســـين ســـلامي (نائب القائد العام لقوات الحـــرس الثوري الإيرانـــي) الذي قال: ردُّنا على التهديدات ســـيكون تهديدات، وليس لدينا شـــك في قدرتنا على تنفيذ إستراتيجيات دفاعية لحماية مصالحنا الحيوية. سنتصرف بحزم وبشكل قاطع أكثر من أي وقت مضى.

تلغيم المضيق:

وعن أهم ما يمكن أن تستخدمه طهران لإغلاق مضيق هرمز أكد الخبراء العســـكريون أن هناك ألغاماً بحرية متنوعة تُزرَع في عـرض المضيق الممتد ٥٤ كيلو متراً بين إيران وعُمَان لتمنع السفن والناقـــلات من العبـــور، وهو وما يمكن التعامـــل معه عن طريق الدلافين وأسود البحر كاســـحة الألغام التي تستخدمها البحرية الأمريكية في تطهير المضيق من الألغام وهي ترصدها بأدق أجهزة الاستشعار، وزرع الألغام هو إعلان حالة حرب. وقد تم استخدام تلك الدلافين والأســـود البحرية أثناء الغزو الأمريكي في تطهير ميناء «أم قصر» من الألغام.

ولـــم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أعلن قادة البنتاغون أن حاملـــة الطائرات «يو إس إس أبراهام لينكولن» قد عبرت مؤخراً مضيـــق هرمز لتكون في بؤرة الأحداث الســـاخنة بالخليج وتقود العمليات الأمنية البحرية؛ لأنه بإمكانها حمل ٨٠ طائرة ومروحية. وأعلنت وزارة الدفاع الفرنسية عن وصول سفينة عسكرية فرنسية عملاقة إلى جانب القطع العسكرية الأمريكية وتشارك مع السفن الحليفة في تدريبات ومناورات واشـــتباكات حربية إذا لزم الأمر للحفاظ على حرية التحرُّك في مضيق هرمز.

تفاعلات خليجية:

ويستند المشككون في إمكانية قيام إيران بغلق مضيق هرمز إلـــى أنها لم تفعل ذلك أثناء حربها مـــع العراق في الثمانينيات، وكذلك أثناء حـــرب تحرير الكويت وبعدها أثنـــاء غزو العراق. وجاءت التهديدات الحالية بســـبب شـــدة الحصار الاقتصادي ضدهـــا من قِبَل الولايات المتحدة وأوروبا؛ ســـواء في المعاملات المصرفية أو على الشـــركات الإيرانيـــة، ولن يتم غلق المضيق إلا إذا وصلت إيـــران لمرحلة الانتحار الاقتصـــادي؛ لأن اقتصادها يعتمد بشـــكل رئيســـي على تصدير النفط الذي يمثل ٧٧,٨٪ الدعم الرئيســـي للخزانة الإيرانية ومن ثَمَّ لن يغلق هرمز إلا إذا وصلت لطريق لا عودة فيه بسبب الثورة الشعبية نتيجة الحصار الاقتصادي الخانق.

وأعلنت المملكة العربية الســـعودية أنه لن يضيرها إغلاق المنضيق لأن لديهـــا منافذ على ســـواحلها الغربية، ويمكن أن تحوِّل خطوط الأنابيب إليها في أســـرع وقت. وأكد وزير النفط السعودي أن المملكة مستعدة لتغطية أيِّ نقص تصديري للنفط، وهنـــاك طاقة فائضة تقارب ٣ ملايين برميل، وإيران لا تصدِّر أكثـــر من هذا الرقم، وفي الوقت نفســـه أعدت الدول الغربية خطة طوارئ لاســـتخدام كمية كبيرة مـــن مخزونات الطوارئ للتعويـــض عن كل نفط الخليج الذي ســـيُفقَد إذا أغلقت إيران مضيق هرمز. كما قدمت وكالة الطاقة الدولية النصح إلى ٢٨ دولة مستهلِكة للنفط لإعداد خطة الإفراج عن ١٤ مليون برميل يومياً مـــن مخزونات النفط المملوكـــة للحكومات في الولايات المتحدة وأوروبا واليابان وبلدان مستورِدة أخرى.

وتفاعلت دول الخليج الأخرى مع الأزمة فأعلن الشيخ حمد بن جاســـم (رئيس مجلس الوزراء ووزير خارجية قطر) – التي توجـــد فيها أكبر قاعدة عســـكرية أمريكية فـــي الخليج – أن مضيق هرمز الإســـتراتيجي مُلْك للعالم كله وليس لدولة معينة لأنه يكتسب صفة الممر الدولي.

ولهـــذا لا بد من توصُّل إيـــران والمجتمع الدولي لتفاهمات عبر القنوات الدبلوماســـية. أما العـــراق فإنها على الرغم من ظروفها الأمنيـــة والاقتصادية الصعبة فهي مهدَّدة بتوقُّف ثلثَي صادراتهـــا النفطيـــة إذا تم إغلاق مضيق هرمـــز؛ لأن غالبية نفطهـــا – وبالتحديد مليون وأربعمائة برميل – ينقل عبر ميناء البصـــرة، أما الباقي فينقَل عبر ميناء جيهان، وهو ما يعني أنه لن يقف مكتوف الأيدي في خسائره الكبيرة إذا علمنا أنه يمثل المورد الرئيسي لاقتصاده.

وذلك مـــع وجود توقعات بـــأن تلجأ بعـــض دول المنطقة لاســـتخدام ممرات أخرى لنقل نفطها عبـــر الأنابيب إلى بحر العرب والبحر الأحمـــر؛ إلا أن الكويت وقطر وجزءاً كبيراً من نفط الإمارات لا يمكن نقله إلا عن طريق مضيق هرمز؛ ولهذا تحركت مؤخراً بالاتفاق مع شـــركة إنشاءات صينية على إنشاء خط أنابيب إستراتيجي طوله ٣٧٠ كيلو متراً لنقل نفطها، ومن المتوقع أن ينقل ١,٥ مليون برميل يومياً ليكون بديلاً عن مضيق هرمز، ومن المتوقع أن يتم الانتهاء منه في مايو أو يونيو القادم على أقصى تقدير؛ وخاصـــة إذا علمنا أن قادة دولة الإمارات يتابعون بأنفسهم سير العمل في المشروع.

أهداف التهديد:

يرى بعض الخبراء أن تهديدات إيران هدفها رفع أســـعار النفـــط وزيادة التضخم العالمي وارتفـــاع الطاقة؛ وهو ما يكون له آثار ســـلبية كبيرة على الاقتصاديات الأوروبية والأمريكية، مثل: ارتفاع البطالة وضعف النمو، وهو ما يشكِّل ضغطاً شعبياً عليها؛ وخاصة في عام الانتخابات الرئاســـية للولايات المتحدة الأمريكية.

هذا وقد برزت بوادر للتهدئة مؤخراً؛ حيث كشـــفت أجهزة الإعلام الأمريكية أن الولايات المتحدة بعثت برسالة مؤخراً عبر سوزان رايس (السفيرة الأمريكية لدى الأمم المتحدة) إلى محمد خزاعي (المندوب الدائم لإيران)، ولم يتم الإفصاح عن مزيد من التفاصيل؛ لأنه لا توجد علاقات دبلوماسية مباشرة بين طهران وواشنطن منذ عام ١٩٧٩م، وتمثل السفارة السويسرية المصالح الأمريكية في طهران.

وقد حاول السفير الإيراني بالأمم المتحدة التمويه والإمساك بالعصا من المنتصف؛ فأكد أن بلاده لن تسعى إلى إغلاق مضيق هرمز الإستراتيجي إلا إذا حاولت القوى الأجنبية تضييق الخناق القاتل على بلاده في ما يتعلق بملفها النووي.

ويأتي سبب اتخاذ الغرب التهديدات الإيرانية مأخذ الجد، أنه يمر عبر هذا المضيق يومياً مـــا يقارب ١٧ مليون برميل نفط؛ أي ما يعادل ٢٠٪ من الاحتياج العالمي للنفط وهو ما يشـــكل ٤٠٪ من النفط الذي يمر عبر الوسائل البحرية في العالم.

تسخين إسرائيلي:

وليس خفياً دور الدولة الصهيونية في «تســـخين الأحداث» بإعلانها المستمر تخوُّفها من المشروع النووي الإيراني، وهو ما جعل أمريكا تتعهد بمنع امتلاك إيران الســـلاح النووي حتى لو اضطـــر الأمر فرض عقوبات اقتصادية صارمة على إيران، ولو تطور الأمر إلى حرب جديدة لمنعها.

ومنذ مـــدة بدأت الدولة الصهيونية تســـريب أنباء عن قرب قيامها منفـــردة بتوجيه ضربة عســـكرية لإيـــران لاقترابها من التفجير النووي حتى تتم زيادة صرامة العقوبات الاقتصادية. ولم يكتف قادة الكيان الصهيوني بإرسال إشارات أنهم لن يُعلِموا أحداً من حلفائهم – بما فيهـــم الولايات المتحدة – بموعد الضربة؛ بل إن وزير دفاع الكيان الصهيوني (إيهود باراك) قام بإبلاغ الجنرال مارتن ديمبســـي رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشترَكة: أن بلاده لن تُخطِر الولايات المتحدة بموعد الضربة إلا قبلها بـ ١٢ ســـاعة علـــى أقصى تقديـــر للعلم فقط؛ إلا أن بنيامـــين نتنياهو (رئيس الوزراء الصهيوني) أعلن أن دولته لا تعتزم إخطار حلفائه بالهجوم، وهو ما أثار اســـتياءهم حتى أن الولايات المتحدة ألغت تدريباتها العسكرية المشتركة مع (إسرائيل) التي كان من المقرر إجراؤها في أبريل القادم.

ومع هذا فإن هناك تأكيدات أوروبية لإمكانية الاستغناء عن النفط الإيراني الكثير، وتعددت اللقاءات بين قادة (إســـرائيل) والولايات المتحـــدة وأوربا حتى أن بريطانيـــا أعلنت اعتزامها إرســـال أقوى سفنها إلى الخليج؛ وخاصة المدمرة «إتش إم إس ديرنج» التي كلف تصنيعها مليار جنيه إســـترليني، وهي مزودة بأحدث رادار بحري في العالم.

وتزامن ذلـــك مع إعلان وزراء خارجيـــة الاتحاد الأوروبي مؤخراً حظر علـــى صادرات النفط الإيرانـــي وفرض تجميد جزئي لأصول المصرف المركزي الإيراني في دول الاتحاد.

زيادة مخاطر الانفجار:

يبدو أن هناك مناوشات بين الطرفين؛ حيث أكدت الناطقة باسم القيادة الأمريكية الوسطى في وزارة الدفاع الأمريكية أن زوارق حربية إيرانية ســـببت مضايقات لسفن حربية أمريكية مرتين خلال الأسبوع الأول من يناير الماضي، وأعلنت الحكومات الأوروبيـــة خطتها للاســـتغناء عن النفط الإيرانـــي الذي يتم تصديره إليها ويبلغ نحو ٥٠٠ ألف برميل يومياً في حين فرضت واشـــنطن مزيداً من العقوبات المالية الصارمة ضد إيران على أمـــل جعلها تتنازل عن أحلامها النووية دون أن تتم إراقة قطرة دم جندي أمريكي؛ وخاصة أنها اســـتطاعت سحب قواتها من «ورطة» غزو العراق بعد أن تكبدت خســـائر فادحة في الأرواح

والمعدات؛ إلا أن هذا لن يمنعها من إعلان الحرب – إن عاجلاً أو آجلاً – بدليل أن إيران أعلنت أواخر شهر ديسمبر الماضي إسقاط طائرة تجسس أمريكية بدون طيار في شرق البلاد كانت قد دخلت من جهة حدودها مع أفغانستان، وتطور الأمر إلى رعايتها للتفجيرات التي حدثت في بعض المواقع النفطية والنووية والاختراقات الإلكترونية لأجهزة الكمبيوتر الخاصة بها. أما بريطانيا الحليف الإستراتيجي للولايات المتحدة فقد وضعت نفسها في مواجهة مع إيران عقب اقتحام مقر سفارتها في طهران وطرد سفيرها، وهذا ما جعل بريطانيا تغلق السفارة الإيرانية في لندن وتطرد دبلوماسييها وتخفض العلاقات التجارية معها لأدنى درجة وهذه أسوأ أزمة بين البلدين منذ استئناف العلاقات الدبلوماسية بينهما عام ١٩٩٠م.

وزادت المخاوف من صعوبة نزع فتيل الأزمة في ظل التحذير شديد اللهجة لصندوق النقد الدولي من أن سعر برميل النفط سيزيد لأكثر من ثلاثين دولاراً إذا تم إغلاق مضيق هرمز، وتم توجيه وثيقة بذلك إلى مجموعة الدول العشرين الصناعية بعد اجتماعهم في مكسيكو في ١٩ – ٢٠ يناير وحثِّهم على البحث عن منتجين آخرين ومخزونات طارئة.

مع العلم أنه ستزداد تكلفة النقل بصورة كبيرة، وهو ما سيزيد الأسعار، وهذا ما دفع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي لتعبئة البلاد الكبرى المستوردِة للنفط (مثل اليابان والصين وكوريا الجنوبية) للاشتراك في العقوبات الاقتصادية ضد إيران؛ وخاصة أن هناك بوادر لبداية انهيار العملة الإيرانية بعد انخفاض حركة الاستيراد والتصدير، وتوقُّف التعاملات مع البنك المركزي الإيراني وغيرها من العقوبات المتصاعدة؛ فإذا ما وصل الاقتصاد الإيراني إلى الانهيار تقوم هذه الدول بضربات انتقامية لمواقع إيرانية اقتصادية ودفاعية ومواقع المعامل النووية الإيرانية.

جدير بالذكر أن الأزمة في مضيق هرمز في تسارع مستمر منذ إقرار مجلس الأمن العقوبات الدولية على إيران خلال شهر يوليو الماضي، وتشمل العقوبات فرض قيود شديدة على حصولها على أية مكونات لتطوير الصواريخ القادرة على حمل رؤوس نووية ولم يتوقف الأمر على ذلك؛ وإنما امتد لفرض حظر على استثماراتها الخارجية وتعاملاتها المالية البنكية؛ إلا أن هذا لم يوقف الخطط الإيرانية؛ حيث أعلنت طهران مؤخراً إنتاجها أول قضيب للوقود النووي محليَّ الصنع، وإلحاقه بمفاعل الأبحاث النووية في محاولة إثبات قوة وصمود ليس في مواجهة العقوبات الدولية السابقة فحسب بل العقوبات الأمريكية المنفردة التي تستهدف انهيار قطاع النفط الإيراني عندما طالبت الشركات الأجنبية العاملة فيه بالاختيار القاطع والنهائي بين التعامل مع القطاع المالي والمصرف المركزي الإيراني ونظيره الأمريكي، وهذا ما أثَّر على الاقتصاد الإيراني حتى وصل الأمر إلى تراجع سعر صرف العملة الإيرانية بنسبة ١٢٪ أمام الدولار بعد أقل من يوم واحد؛ فما بالنا إذا امتدت العقوبات أسابيع وشهوراً قادمة فستتعرض فيها الإدارة الأمريكية لضغوط داخلية مع اقتراب موعد انتخابات الرئاسة، وقد يكون لحسم الملف النووي الإيراني نصيب كبير في استمرار أوباما أو إبعاده من البيت الأبيض مثلما حدث مع الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر.

مضيق هرمز في سطور:

مضيق باب السلام (هرمز) أحد أهم الممرات المائية في العالم وأكثرها حركة للسفن. يقع في منطقة الخليج العربي فاصلاً بين مياه الخليج العربي من جهة ومياه خليج عمان وبحر العرب والمحيط الهندي من جهة أخرى؛ فهو المنفذ البحري الوحيد للعراق والكويت والبحرين وقطر. تطل عليه من الشمال إيران (محافظة بندر عباس)، ومن الجنوب سلطنة عمان (محافظة مسندم) التي تشرف على حركة الملاحة البحرية فيه باعتبار أن ممر السفن يأتي ضمن مياهها الإقليمية.

يعتبر المضيق في نظر القانون الدولي جزءاً من أعالي البحار، ولكل السفن الحق والحرية في المرور فيه ما دام لا يضر بسلامة الدول الساحلية أو يمس نظامها أو أمنها.

يضمُّ المضيق عدداً من الجزر الصغيرة غير المأهولة أكبرها جزيرة قشم الإيرانية وجزيرة لاراك وجزيرة هرمز، إضافةً إلى الجزر الثلاث المتنازَع عليها بين إيران والإمارات، وهي: (طنب الكبرى، وطنب الصغرى، وأبو موسى).

عرضه ٥٠ كم (٣٤ كم عند أضيق نقطة)، وعمقه ٦٠م فقط، ويبلغ عرض ممري الدخول والخروج فيه ميلين بحريين (أي: ١٠,٥ كم). وتعبُره ٢٠ – ٣٠ ناقلة نفط يومياً بمعدَّل ناقلة نفط كل ٦ دقائق في ساعات الذروة – محمَّلة بنحو ٤٠٪ من النفط المنقول بحراً على مستوى العالم.

الإسلاميون والتحديات المرتقبة

مولاي المصطفى البرجاوي(*)

أسفرت الانتخابات التي تم إجراؤها في البلدان العربية عقب الانتفاضات والثورات التي انطلقت شرارتها من تونس لتنتقل إلى مصر واليمن وليبيا وسورية، أسفرت عن إعادة الاعتبار للإسلاميين الذين عانوا ردحاً طويلاً من الزمن من ويلات الاستبداد والطغيان؛ الذي جثم على أنفاسهم خدمة للأجندة الغربية والصهيونية.

نعم، لقد منحت الاستحقاقاتُ الانتخابيةُ الأغلبيةَ للإسلاميين، لكنها ليست كاسحة كما قد يتوهم بعض الناس، كما سنعرض في ما سيأتي. لكن نتمنى - إن شاء الله - أن يتحقق عكس ما نتوقعه لتزداد ثقة الشعوب بهم، وأن يعطوا صورة ناصعة يشهد لها القاصي والداني.

نعم، لقد حققت الانتخابات بعثاً جديداً وولادة جديدة للإسلاميين بعد مخاض عسير (الثورات والضغوطات)؛ لكن هذا البعث مشوب بضغوطات وتحديات داخلية وخارجية، وهو ما يجعل تحقيق آمالهم العريضة التي وعدوا بها الشعوب المغلوبة والمستضعفة قد يعتريه نوع من التعثر والنقص.

إن المستقبل السياسي في هذه الأوساط العربية ليس مفروشاً بالورود ولا بحراً رهواً؛ بل فيه الصالح والطالح، إنه طرائق قددا: من الأيديولوجيات (مذاهب متفرقة ومختلفة)، التي تضاد التوجهات الإسلامية ولا توافقها في أسمى مبادئها.

إن ما ذكرته آنفاً ليس رجماً بالغيب أو ضرباً من الكهانة؛ بل هو قراءة للمشهد السياسي والواقع العربي المحلي المرتبط بالانتقال من الثورة إلى بناء الدولة، وهو ما يتطلب وقتاً ليس بقصير للترميم من قِبَل الإسلاميين الذين تولوا مقاليد السلطة.

أخي القارئ! أعرض لك جملة من التحديات التي تنتظر (الإسلاميين) في المشهد السياسي المحلي (المليء بالتناقضات الأيديولوجية والتفسخ الفكري: من علمانية وليبرالية وحداثة... إلخ)، والمشهد العالمي (الذي يسيطر عليه اللوبي الصهيوني بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية وأذنابها من الغرب والعرب).

(*) باحث في العلوم الاجتماعية والتواصل - كلية علوم التربية - الرباط - المغرب.

أولاً: تحدي الضغط (الصهيو - غربي):

مع الإطاحة بالأنظمة الاستبدادية في الوطن العربي، لم تقف المؤسسات السياسية الغربية مكتوفة الأيدي؛ وذلك من خلال الاتصالات المكثفة، بل ازدادت مع فوز (الإسلاميين) في الانتخابات، وهو ما بات يطرح أكثر من تساؤل للغرب؛ ففي مصر من خلال الزيارة التي قامت بها (هيلاري كلنتون) وزيرة الخارجية إلى المشير الطنطاوي (القائد الأعلى للمجلس العسكري المصري)، فقد أعطى الطنطاوي للإدارة الأمريكية تطمينات عن عدم خرق الاتفاقيات المبرَمة - وعلى رأسها (اتفاقية كامب ديفيد) - مع الكيان الصهيوني، الذي يزداد تخوفاً من صعود الإسلاميين؛ وخاصة حزب النور السلفي، الذي تصفه الأوساط السياسية الصهيونية بـ (المتشدد) و (الرديكالي)! كما نسجل في هذا الباب أنه من أجل قطع الطريق على الإسلاميين في وضع دستور يتماشى وتوجهاتهم، فقد تم إحداث مجلس استشاري يجمع كل التوجهات الأيديولوجية والسياسية المنتشرة في بلاد كنعان في آخر لحظة.

أما حزب النهضة في تونس وحزب العدالة والتنمية في المغرب، فكانت العملية أسهل؛ إذ حرص كل منهما على إرسال تطمينات إلى الدول الغربية فور فوزهم في الاستحقاقات الانتخابية، ولعل من أبرز هذه التطمينات: احترام الحريات الفردية (حرية الاعتقاد، وحرية المرأة وما يستتبعها)، احترام الاتفاقيات الدولية على علتها، بل أكثر من ذلك أن وزير الخارجية الفرنسي (ألان جوبيه) قلل من أهمية الفوز الذي حققه حزب العدالة والتنمية في الانتخابات التشريعية المغربية، مؤكداً أنهم لا يملكون الأغلبية المطلقة وأنهم كانوا في الأصل جزءاً من البرلمان السابق.

وأكد جوبيه لإذاعة (فرانس إنفو) أن الحزب الذي جاء في الطليعة، وهو بعيد عن الأغلبية المطلقة بما أنه يشغل حوالي مئة مقعد من أصل حوالي ٤٠٠، كان ممثلاً في البرلمان المغربي السابق.

وقال جوبيه: (إنه حزب مواقفه معتدلة، لا يمكننا الانطلاق من مبدأ أن كل حزب مرجعه الإسلام يجب أن يدان)، وأضاف: (سيكون ذلك خطأ تاريخياً، بل على عكس ذلك علينا التحدث إلى الذين لا يتجاوزون الخطوط الحمراء التي هي خطوطنا؛ أي احترام الانتخابات ودولة القانون وحقوق الإنسان والمرأة).

هذه الإشارة الأخيرة، تدخل في خانة (التقية السياسية) التي يتبعها الغرب من أجل تحقيق مآربه الاقتصادية بل حتى الثقافية على حساب هويتنا وقيمنا.

ثانياً: التحدي السياسي:

مع ألوان الطيف المختلفة من الأيديولوجيات الطافية على المشهد السياسي العربي؛ حيث بات واضحاً من خلال تصريحات مسؤولي التيارات الإسلامية الصاعدة (حزب العدالة والتنمية في المغرب، وحزب النهضة في تونس)، والتي في طور الصعود (حزبي الحرية والعدالة والنور في مصر)، بات واضحاً أنه من المستحيل تنزيل مقتضيات التشريع الإسلامي في بعض القضايا على الواقع، وهو ما يفرض عليهم الاهتمام بالقضايا الأخرى التي يشترك فيها (الإسلاميون) والعلمانيون وعلى رأسها قضايا الفساد ومحاربة الرشوة والبطالة. لكن الحديث عن الفساد الأخلاقي (السياحة الجنسية، والمليارات التي تصرف في المهرجانات الهابطة) ليس من أولوياتها. وهذا من فقه التدرج تارة، وفقه الواقع تارة أخرى، وكما يقال أهل مكة أدرى بشعابها.

كما أن النظام الانتخابي في أغلب الدول العربية التي شهدت صعوداً كبيراً للإسلاميين، لا يؤهلهم لتشكيل حكومة بمفردهم، وهو ما يجعلهم بين مطرقة التحالف الاضطراري مع العَلمانيين وسندان الخضوع لتوجهاتهم.

ثالثاً: التحدي الإعلامي:

كما يقول أحد المفكرين اليهود: (في عهد «المركانتيلية» من يملك الذهب يملك العالم، وحالياً من يملك الإعلام يملك العالم)؛ إذ إن الإعلام سيف ذو حدين: فإذا كان في مرحلة الاستبداد قد تابع ما تعرَّض له الإسلاميون من ضغوطات، فقد جعل منهم الأمل في تولي قيادة حكومات ما بعد مرحلة الطغيان والديكتاتورية؛ إلا أنه مع تقدمهم وحيازتهم المراتب العليا في الانتخابات، بدأت تنتشر أخبار صحفية إن على

مستوى الإعلام التلفزيوني من خلال ندوات ومناظرات حوارية، أو على مستوى الإنترنت عن تخوفٍ من الإسلاميين ؛ بدعوى أنهم سيضيقون الخناق على جميع دواليب الحياة في المجتمعات العربية، من خلال ترويج لصورة العتمة والظلام الحالك والفكر (القرسطوي) الذي عاشت إبَّانه أوروبا مع سيطرة الكنسية؛ فتارة يقولون: إن الإسلاميين سيتبعون نظاماً (ثيوقراطياً) بعد ما عانى العالم العربي من النظام (الأوليغارشي) العائلي و (الأوتوقراطي) الفردي.

وهذا ليس عيباً أن يصدر عن الغرب؛ فهذا ديدنهم، فهم لا يعرفون إلا لغة المصلحة والبراغماتية – الميكافيللية (فن الممكن من الواقع) على حد تعبير المفكر الإسلامي (محمد عمارة)، لكن العيب كل العيب أن يصدر من أبناء جلدتنا وممن يتسمون بأسمائنا، الذين يعرفون قيم الإسلام حق المعرفة، ولله در عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إذ يقول: (والله! ما أخشى على الإسلام من أعدائه ولكن أخشى على الإسلام من أدعيائه).

رابعاً: التحدي الاقتصادي:

في ظل العولمة الاقتصادية التي طرحت بساطها الهيمنة الاقتصادية الأمريكية، أصبح لزاماً على الدول العربية أو الدول التابعة أو الهامشية – على حد تعبير المفكر الاشتراكي المصري سمير أمين – الخضوع لتوجهات البنك الدولي الذي أغرقها بالديون تحت الضغط، كما ستلجأ الحكومات الصاعدة إلى تنفيذ مقررات الغرب، واللبيب من الإشارة يفهم.

وحتى لا ننساق مع الطرح السوداوي والنصف الفارغ من الكأس، فإنني سأسجل – من باب التفاؤل – حرص حزب العدالة والتنمية المغربي، على إحداث بنك إسلامي في المغرب، الذي تنتشر فيه البنوك الربوية انتشار النار في الهشيم.

خامساً: تحدي ثورة الشعب:

وفي هذا الباب يتحتم على الأحزاب الإسلامية أن يضعوا في حسبانهم أن الشعب العربي لا يعرف الآن معنى الخوف، ويمكنه أن يثور ضد الحكومات التي لا تخدم مصالح الشعب اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً... فها هنا يلزم تغليب مبادئ الحرية والعدل على المصالح الشخصية والحزبية الضيقة.

وحرصي الشديد على كتابة هذه المقالة إنما هو من منطلق (أن التحدي أرفع درجات الاستجابة والخروج بأقل الخسائر) كما يقول الاقتصاديون، أو اعتماد مبدأ أصيل هو (الحكمة) التي هي قول ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي (وليس ذلك – طبعاً – على حساب ديننا وعقيدتنا).

هذا ما تسنَّى لي جمعه، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، مع تمنياتي للحكومات الإسلامية الصاعدة بالنجاح والتوفيق في أداء مهماتها على الوجه الأكمل؛ لتحقيق ما تصبو إليه أمتنا من تنمية شاملة ونهضة علمية وعدل وتكافؤ للفرص. وأذكِّر إخواني الذين تولَّوا مقاليد هذه المرحلة بما عرفته محطة تاريخية ليست ببعيدة (حتى لا نتهم بأننا نعيش في جزيرة خيالية)، ويتعلق الأمر بما صرَّح به أحد مفكري عصر الأنوار (جون بودان) عن الإمبراطورية العثمانية، عندما وصلت أوج عزها وعظمتها، حيث يقول: (إنه بالجدارة وحدها يرتقي الإنسان في سلك الخدمة، إنه نظام يؤكد على أن المناصب لا تُشغَل إلا بالكفاءة وحدَها، إن أولئك الذين عينهم في المناصب الكبرى هم في غالبيتهم أبناء رعاة أو أصحاب ماشية، إن هذا هو السبب في نجاحهم وتفوقهم على الآخرين، وهذا هو السبب في أنهم – أي العثمانيون – يوسعون إمبراطوريتهم يوميّاً، إن هذه ليست أفكارنا؛ ففي بلادنا (أوروبا) ليس الطريق مفتوحاً للكفاءة، إن النَّسَب هو المفتاح الوحيد للترقي في مدارج الخدمة العامة).

خلاصة القول: إن الإسلاميين في محاولتهم هذه إن وُفِّقوا فذلك ما كنا نريد وإن أخطؤوا أو حيل بينهم وبين تطبيق برامج الإصلاح، فذلك لقصور في جهدهم لتطبيق مقتضيات الشريعة؛ وليس لعيب تعاب به الشريعة؛ حيث إن الإسلام مبادئ منزهة عن العيب ومترفعة عن القصور؛ فان أصابوا في الإصلاح فمن الله وإن أخطؤوا فمنهم ومن شياطين الإنس والجن.

دورة مهارات الإلقاء تحقق:

- تهيئة خريجي الجامعات للتطبيق والتدريس.
- كيفية إعداد الكلمات والمحاضرات المقنعة والمؤثرة.
- كسر حاجز الهيبة من التحدث أمام الآخرين.
- التعرف على أسرار التأثير.
- تنمية مهارات الإصغاء.
- التعامل مع الأسئلة المفاجئة.

الخطيب الصغير:

دورة إلقاء للأبناء :

آداب اجتماعية + علوم رجال + لبس المشلح

مدربون سعوديون
خبرة ١٢ سنة

كن خطيب زمانك

إصدارات المركز + تصوير أداؤه على سي دي + شهادة معتمدة

من إصداراتنا :

كتاب: لماذا نخشى الإلقاء؟

البوم قرص مدمج:
فن الإلقاء

إصداراتنا متوفرة لدى مكتبات: جرير و العبيكان يحصل المتدرب على:

قالوا عن الدورة ...

تم تنفيذ ٣٠٠ دورة

وتدريب ٢٠,٠٠٠ متدرب ومتدربة

وتقديم ١٥ دورات دولية

وتقديم ١٠٠ برنامجاً لكبار الشخصيات

والشركات والجهات الحكومية.

الدورات معتمدة

لا خوف من

الإلقاء

بعد اليوم

مركز الإلقاء

أول مركز متخصص في الإلقاء و المواجهة

www.alelqa.com

الرياض هاتف : ٠١/٤٧٧٩٩٩٢

جوال: ٠٥٠٤٢٥٤٧٩٤/٠٥٣٣٣٩٥٩٣٣

تحت إشراف المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني ترخيص رقم ٤٨٩٥/٢١٤

Badr: 0508948947

الشعارات الدينية بين الكونجرس الأمريكي واللا دينيين في البلدان الإسلامية

مصطفى مهدي(*)

يعتبرون أمريكا منارة الحرية الفكرية والانطلاق من كل قيد، ومعياراً للسلوك والخطاب والحوار... يرونها قِبلَة للممارسات والسلوكيات غير المنتمية المتحررة من كل مرجعية، يسبِّحون بحمد حياديتها ويمجِّدون انفكاكها وانحلال مجتمعها عن كل ما يزعمونه مرجعية تحرِّك السلوك البشري الفردي والجماعي.

إنها (أمريكا)! تلكم الأنشودة التي يتشدق بكلماتها أولئكم الذين ينقمون على المسلمين ردَّ أمرهم كلِّه لله تعالى، أولئكم الذين خَلَقوا الوهم ثم حاولوا سحبه على بلاد نِعَم ضربها القصور، إلا أن الإسلام وفطرته ضارب فيها حتى الجذور، صنعوا الوهم إما جهلاً بنقص الاستقراء والتتبع والاستنتاج، وإما تجاهلاً وعمالةً للآلة الاحتلالية – الاستعمارية مجازاً أو حسب الاصطلاح المضلِّل القديم – تمهيداً لأن تجلب بخيلها ورجلها على أراضينا وتتحكم في مقدراتنا لتنعم في بقاعنا بجنة أُكُلها دائم وظِلُّها.

وحتى لا أنجرَّ إلى ما إن ألقيت لقلمي العنان بتسطيره لبرز للعيان في صفحات ترهق كاهل الجبال للكشف عن جملة من الخصال والخصائص التي لا يختلف المجتمع الأمريكي العريض عنَّا في أصلها في شيء؛ إلا أن الجُهلاء والعُملاء يحاولون التضليل وممارسة الحيل بستر تلكم الخصال عن أعيينا وتزييف الحقائق، وخَلْق مجتمع أمريكي وهمي مُلْحِد في سلوكه السياسي والاجتماعي؛ ليربطوا التقدم في مختلف الجوانب الحياتية به، ثم يدعوننا للتنصل من مصدر عزتنا وقِوام حياتنا الدنيوية والأُخروية الأبدية تحت دعوى التقدم والحضارة من أجل تحصيل الرقي؛ بل الإلحاق بالركب الحضاري التقدمي.

(*) كاتب ومترجم صحفي.

ففـــي مقالتي هذه أُلْقـــي الضوء على مشـــهد من تلكم المشاهد الكاشفة عن الخلفية الدينية والمنطلق العقدي الذي يحرِّك تلكم الآلـــة الاحتلالية الضخمة فـــي الداخل فضلاً عن الخارج، ولعل هـــذه المقالة يتبعها جملة من المقالات التي تكشف عن أثر الخلفية الدينية والتقاليد والهوية العقدية في سلوك المواطن الغربي فضلاً عن الصفوة والطبقات الحاكمة وسياســـتها الداخلية والخارجية بما يسفر عن حقيقة خدعة (حياديةِ الغرب الدينية أو لادينيته).

(In God We Trust) تلك العبارة الإنجليزية التي تعني (باللـــه نحن نثق) تلك العبارة التي نراهـــا مكتوبة على الدولار الذي يُعَد أقوى عملة لأقوى اقتصاد مهيمن - بالطرق المشروعة وغير المشروعة على السوق العالمية - ومتحكم بمقدرات شعوب ودول كثيرة. إن هذه العبارة لا تمثل شـــعاراً لحزب يُصنَّف على أنه حزب ديني أو أنه سبق أن وُسِم بالمحظور كالإخوان المسلمين بمصـــر والعالم أو أيٍّ مـــن الأحزاب والجماعات الإســـلامية العريقـــة أو الوليدة ولكنه (national motto)؛ أي: شـــعار قومي يمثل الهوية العقدية والثقافية والتقاليدية والمرجعية العليا للشعب والحكومة الأمريكية.

ذلك الشعار الذي ظهر أثناء الحرب الأهلية الأمريكية على العملات المعدنية أقرَّه الكونجرس عام ١٩٥٦م وأعاد التأكيد على التزامه شعاراً قومياً للوطن الأمريكي عام ٢٠٠٢م، وكذلك أكد اعتماده شـــعاراً قومياً مجلسُ الشيوخ عام ٢٠٠٦م، وفي ١ نوفمبر ٢٠١١م دار حوار في الكونجرس حول ذلك الشـــعار ومـــدى أهميته، وهـــو ما دفع (ترنت فرانـــك) عضو الحزب الجمهوري عن ولاية أريزونا إلى استغلال الجدل للتأكيد على أن الكونجرس يعلن عن إيمانه بالإله منظم الكون. ولذلك فإن الكونجرس الذي يقر السياسات ويشرع القوانين ويوافق على الحروب ويعتمد لها الميزانيات يرى أنه لا بديل عن شعار الولايـــات المتحدة القومي (في اللـــه نحن نثق)، حتى أن ٣٩٦ من أعضاء الكونجرس صوَّتوا بالموافقة على اعتماد الشعار مجدداً وإبرازه على المؤسسات المختلفة كالمدارس والمباني الحكومية.

وهو مـــا دفع الرئيس الأمريكـــي (أوباما) الذي كان بصدد مناقشة قانون الوظائف الأمريكي للتأكيد على أن هناك قانوناً يؤكد على ذلك الشـــعار؛ بـــل إن أوباما رد قائلاً: (أنا أثق في الله، والله يريد أن يرانا نساعد أنفسنا ونرد الناس إلى أعمالهم)[1].

فهل بعد أن تكشَّـــفت لنا الخلفية العقدية والدينية والإيمان المعلن بالله مـــن قِبَل رئيس القوة الكبرى كما يُروَّج لها، وبعد أن ظلَّ الشـــعب الأمريكي ممثَّلاً في نوابه تـــارة بالكونجرس وتارة بمجلس الشيوخ يؤكد على قيمة الشعار ذي الخلفية الدينية وما يظهره من منطلق لاهوتي ديني موجِّه للممارســـات السياســـية والاقتصادية والاجتماعية للشـــعب والحكومة الأمريكية... هل ســـيظل أبواق التفلت المرجعي ببلاد المســـلمين ينـــادون باتباع خطى الولايـــات المتحدة؟ هل ســـتظل الهيئة العليا لتأســـيس الأحزاب وغيرها من المؤسسات التي تزعم تبنِّيها منهجاً لا دينياً تنادي برفض الشـــعارات الدينية على أساس أنه منطلَق التقدم والحضارة؟ هل ســـيظل شعار (الإسلام هو الحل) و (إن الحكم إلا لله) و (الشعب يريد تطبيق شرع الله) محط نَبْذٍ وطرحٍ ودفعٍ ومحاربة من قِبَل القوى المناهضة لمظاهر الإســـلام في مختلف مناحي الحياة؛ سواء في ذلك المســـتوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي؟ هل سيظل الإعلام يستنكر ويشجب مرجعية بعض الأحزاب الدينية الإسلامية أو مرشحي الرئاسة أو العاملين في الحقول الوطنية المختلفة؟

فـــإذا كان الكونجرس والشـــعب الأمريكي يثـــق في الله فنحن أَوْلى بذلك، ولا بديل عن تطبيق الشـــريعة الإسلامية بآلية مرحلية تدريجية تبني ولا تهدم وتســـع كافة الطموحات الشعبية، في ظل سماحة ورحمة الإسلام وشريعته الغراء التي هي الأجدر بالاعتناق والاعتقاد وهي الأَوْلى أن تكون المنطلق؛ بل هي المنطلق الوحيد القادر على نشر الخير في ربوع الوطن بل العالم أجمع.

(١) صحيفة (The Washington Post) كما في العدد الإلكتروني يوم ٢ نوفمبر ٢٠١١م.

مرصد الأخبار

جـــلال ســعـــد الـــشـــايـــب(*)
galal_elshayp@hotmail.com

أوباما: أمريكا لم تَعُد قادرة على خوض حروب العالم

أفردت صحيفة الإندبندنت البريطانية صفحتها الأولى والرئيسية لموضوع بعنوان «أوباما: الولايات المتحدة لم تَعُد قادرة على خوض حروب العالم»، وذلك ضمن إعلانه عن خطة تقليص ميزانية وزارة الدفاع الأمريكية.

ونقلت الجريدة عن أوباما قوله: «نطوي صفحة عقد من الحروب» مضيفاً: إننا الآن أمام «لحظة انتقالية».

ويعني التحولَ في الإستراتيجية الأمريكية بالتركيز على آسيا مواجِهَة صعود الصين قوةً عظمى عسكرية محتملة، ومن ثَمَّ تراجع التركيز الأمريكي على أوروبا والشرق الأوسط.

ويُذكَـــر أن ميزانية البنتاغون المقترحة لعام ٢٠١٣م المقررة بنحو ٦٦٢ مليار دولار، تفوق الميزانيات الدفاعية لأكبر ١٠ دول في العالم تأتي بعد أمريكا.

[شبكة الـBBC ٢٠١٢/١/٦م]

عسكر مصر يستعينون بـ «لوبي مبارك» لتحسين صورتهم في أمريكا

يتلخـــص دور اللوبي الأمريكي العامل لحســـاب القيـــادة المصرية في الفترة الماضية في ثلاث جمل: «أهميـــة نظام مبـــارك» قبل ٢٥ ينايـــر، و «الأزمة المصرية» من ٢٥ يناير إلى ١١ فبراير، وأخيراً ومنذ ١٢ فبراير «العملية الانتقاليـــة»، فلقد أكدت وثائق من وزارة العدل الأمريكية اســـتمرار المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية في اللجوء لشركات اللوبي نفسه، التي كان يستخدمها نظام المخلوع لتلميعه في العاصمة الأمريكية.

وتؤكد الوثائق أن العسكري تعامل مع ثلاث شركات رئيســـية في هذا المجال، وهـــم: Podesta Group «بوديستا جروب» و Livingston Group «مجموعة ليفنجســـتون»، والثالثة هي موفيت جروب Moffett Group، وتبين الوثائق أن هذه الشـــركات الثلاث قد حصلت علـــى ٥٥٥ ألف دولار أمريكـــي من الحكومة المصرية؛ لتحسين صورة العسكري هناك.

[جريدة الشروق المصرية ٢٠١٢/١/٢٠م]

هل يستطيع عسكر مصر تجنُّب مصير باكستان؟

نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» قائلة: إن الوضع السياسي في مصر مشابه لباكستان من جهة تحالف المؤسسة العسكرية في البلدين مع الأحزاب الإســـلامية ليضمن العســـكر توسيع امتيازاتهم ونفوذهم. ويضيف ميشـــيل دان (وهو مسؤول سابق في البيت الأبيـــض) قائلاً: يقوم الجيـــش المصري بالتضييق على منظمات المجتمع المدني، ويحـــاول التلاعب بعملية كتابة الدستور لخدمة مصالحه الضيقة. وفي غضون ذلك تنشأ في باكستان أزمة جديدة بين الجيش والمدنيين.

وبالنســـبة للولايات المتحدة فإن الجانبـــان يحصلان على المســـاعدات مقابل مصالح، والدولتان فيهما أغلبية مســـلمة وتكثر فيهما الصراعات، وكلاهما حليفان منذ وقت طويل.

ولا عجب في أن يرى المدنيون في باكستان ومصر أن تغض الطرف واشنطن عن انتهاكات حقوق الإنسان من أجل الحفاظ على مصالحها العليـــا، وهي: الأمن الإقليمي لإســـرائيل في الحالة المصرية، ومسألة القاعدة في باكستان.

ومن الأرجح أن يوجد في مصر جيش بقوة عسكرية يسيطر على الحكم المدني مثلما يحدث في باكستان.

نيويورك تايمز /٢٠١٢/٠٢/٦م

(*) نرحب بمقترحاتكم البنَّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

حملة جديدة ضد الإسلام في بلجيكا

أطلق النائب المتطرف بالبرلمان البلجيكي فيليب دوينتر حملة جديدة على الإسلام والمسلمين بعنوان «نساء ضد الأسلمة» يدعو فيها النساء إلى اتِّخاذ موقف حاسم ضد الإسلام؛ لأنه - على حدِّ زعمه - ينتهك الحرية.

وقام المتطرف «دوينتر» بتصوير ابنته «آن صوفي» البالغة من العمر ١٩ عاماً وهي ترتدي «النقاب» وتُظهِر باقي أجزاء جسدها، وهو ما أثار موجة عارمة من استياء المسلمات هناك، كما أثار انتقادات حادة في الشارع لاستغلال «دونتر» لابنته في أغراض سياسية. [جريدة البشاير ٢٠١٢/٢/٥م]

حقيقة الخديعة الكبرى في العلاقات الغربية الإيرانية

شبَّه باتريك كوكبيرن (الصحفي المرموق بصحيفة الإندبندنت البريطانية) في مقال له استغلالَ الإعلام وتضليلَ الرأي العام عبر التضخيم المنهج للخطر الذي تمثله إيران، بتلك الدعاية الصاخبة وتزييف الحقائق بشأن أسلحة الدمار الشامل في العراق قبيل الغزو عام ٢٠٠٣م، والتي لم يكن لها وجود على أرض الواقع. مشيراً إلى أن الغرض من فرض عقوبات على صادرات النفط لإيران هو إرغام طهران على التخلي عن برنامجها النووي قبل أن يصل مرحلة تستطيع فيها نظرياً بناء قنبلة نووية.

ويظن باتريك أن القضية في ظاهرها تبدو معنيَّة بمستقبل نوويٍّ إيران؛ وإنما في حقيقة الأمر فإن الغرض الفعلي هو الإطاحة بالحكومة في طهران؛ مؤكداً على أن الأسلوب الذي تنتهجه أمريكا وإسرائيل وزعماء أوروبا الغربيون في مواجهة إيران ينم عن خداع كبير. [باتريك كوكبيرن - الإندبندنت ٢٠١٢/١/٢٩م]

اتفاق مصالحة جديد بين حماس وفتح برعاية قطرية

أثار الإعلان عن تولي الرئيس الفلسطيني محمود عباس رئاسة حكومة التوافق المزمَع تشكيلها بعد منتصف شهر نوفمبر، بعد لقاء الفصائل في اجتماع لقيادة منظمة التحرير في القاهرة، أثار جدلاً واسعاً (سياسياً وقانونياً) في الأراضي الفلسطينية، باعتبار ذلك مخالفاً للقانون الأساسي الفلسطيني ولاتفاق المصالحة نفسه.

ويمنع القانون الأساسي رئيس السلطة من تولي رئاسة الحكومة، بعدما كان فعلياً رئيس السلطة هو رئيس الحكومة، مع بداية تأسيسها قبل أن يتغير القانون بفعل ضغوط محلية وعربية ودولية في ٢٠٠٣م.

ووقَّع خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس ورئيسَ السلطة الفلسطينية محمود عباس اتفاقاً في برعاية قطر يوم أمس ينص على تولية الأخير رئاسة الحكومة الفلسطينية القادمة. [صحيفة القدس/٢٠١٢/٠٢/٠٦م]

«التشرذم والتفكُّك» إرث أمريكي للعراق

كتبنا في مرصد الأحداث الشهر الماضي أن القتل والدمار هو أعظم إرث تركه الأمريكيون في العراق! وخلال الأيام الماضية أظهر جون ماكين (عضو مجلس الشيوخ الأمريكي) إرثاً أمريكاً جديداً للعراق، وهو أنه «آخذ بالتشرذم»، وبالطبع لم يقصد ماكين إظهار خوف أو شفقة على أهلنا بالعراق؛ وإنما جُلُّ خوفه على تهديد حياة آلاف المدنيين الأمريكيين العاملين في البلاد؛ وذلك بعد رفض أوباما لوجود قوة عسكرية أمريكية هناك.

وقال ماكين في برنامج حواري متلفز: «أعتقد أننا نشهد تشرذم هذه البلاد، وهو ما قد يؤدي في نهاية المطاف إلى تكوين ثلاث دول مختلفة في العراق».

وكان وزير الدفاع الأمريكي (ليون بانيتا) قد أكد في البرنامج ذاته على أنه لا أحد قد استوعب الوضع في العراق، فهو بكل يقين «آخذ بالتفكك»؛ فنائب الرئيس العراقي هارب في أربيل، وهناك ميليشيات وفرق موت تنشط في البلاد، والحكومة العراقية على وشك الانهيار، والتوتر يتصاعد بين المناطق الكردية وباقي العراق». [موقع العراق نت (بتصرف) ٢٠١٢/١/١٠م]

علامة تعجب

محاولات لشراء نيل مصر!

حذَّر الدكتور محمود أبو زيد (وزير الري السابق ورئيس المجلس العربي للمياه) من مخططات (إسرائيل) للسيطرة على دول حوض النيل، وخاصة إثيوبيا ومحاولاتها المستمرة لإنشاء علاقات تجارية ضخمة مع جنوب السودان، كما حذَّر من وجود مساعٍ سريةٍ من بعض الدول للحصول على مياه النيل بدون أن تكون ضمن إقليم الحوض، مؤكداً أنها ستنتهي بالفشل لأن مسودة اتفاقية دول الحوض يوجد فيها بند ينص على منع بيع المياه، وعدم نقلها خارج إقليم حوض النيل.

[جريدة المصريون الإلكترونية ٢٠١٢/٢/٤م]

المخلوع لم يُخلَع!

أكد فريد الديب (محامي الرئيس المصري المخلوع حسني مبارك) خلال مرافعته أمام محكمة جنايات القاهرة، أن مبارك ما زال رئيساً للجمهورية، منتقداً قيام المجلس العسكري بإدارة البلاد معطلاً العمل بأحكام دستور ١٩٧١م، ووضح الديب أن هذا معاقب عليه طبقاً لقانون العقوبات.

[اليوم السابع ٢٠١٢/١/٢٢م]

الموسوعة السياسية

مصطلح (الإسلام السياسي)

معلوم أن الإسلام منهج حياة، جاء كاملاً شاملاً لكل نواحي الحياة (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية... إلخ)؛ إلا أن هذا الأمر لم يُرضِ أعداءه من الغربيين وأتباعهم اللادينيين الذين أرادوه علاقة خاصة بين الإنسان وربه، دون أن يكون له سلطان وهيمنة على دنيا الناس؛ ولذا فقد اجتهدوا في الترويج لفكرة (فصل الدين عن السياسة) أو كما وصفه بعضهم (ما شأن الله بالسياسة؟) وما يدعمها من شعارات ومصطلحات.

وكان من تلك المصطلحات مصطلح (الإسلام السياسي) مريدين إخراج كلٍّ من يهتم بقضايا الأمة من الإسلام كدين.

وعن تعريف هذا المصطلح يقول عطية الويشي: (أول من استخدم هذا المصطلح هو هتلر، حين التقى الشيخ أمين الحسيني مفتي فلسطين آنذاك؛ إذ قال له: إنني لا أخشى من اليهود ولا من الشيوعية، بل إنني أخشى الإسلام السياسي)[1].

وقال الدكتور جعفر شيخ إدريس في مقال له عن هذا المصطلح: «عبارة (الإسلام السياسي) كأختها (الأصولية) صناعة غربية استوردها مستهلكو قبائح الفكر الغربي إلى بلادنا وفرحوا بها، وجعلوها حيلة يحتالون بها على إنكارهم للدين والصدِّ عنه».

وعُقِدَ في سبتمبر ١٩٩٤م مؤتمراً عالمياً في واشنطن بعنوان (خطر الإسلام الأصولي على شمال إفريقيا)، وكان المؤتمر عن السودان وما وصفه المؤتمر بمحاولة إيران نشر (الثورة الإسلامية) في إفريقيا عن طريق السودان.

وتدريجياً بعد ذلك في التسعينيات في خضم الأحداث الداخلية في الجزائر تم استبدال هذا المصطلح بمصطلح (الإسلاميون المتطرفون) واستقرت التسمية بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م على (الإسلام السياسي).

بينما يرى بعض المحللين الأمريكيين في شؤون الإسلام مثل روبرت سبينسر (أن الإسلام ليس مجرد دين للمسلمين؛ وإنما هو طريقة وأسلوب للحياة وفيه تعليمات وأوامر من أبسط الأفعال كالأكل والشرب إلى الأمور الروحية الأكثر تعقيداً).

---

(١) الأستاذ عطية الويشي في كتابه «حوار الحضارات»، ص٢١٠.

قال مسؤولون في المكسيك: إن ١٣ ألف شخص قتلوا في أعمال العنف المرتبطة بالجريمة المنظمة في الفترة من يناير إلى سبتمبر العام الماضي، وهو ما يعني أن عدد ضحايا تلك الإعمال وصل إلى ٤٧٥١٥ قتيلاً منذ أطلق الرئيس فيليب كالديرون حملته ضد تهريب المخدرات نهاية عام ٢٠٠٦م.

ويقول المسؤولون إن معدل الزيادة في أعمال القتل بنسبة ١١٪ في العام الأخير يُعَد أقل من معدلات السنوات السابقة. [وكالة معاً الإخبارية ٢٠١٢/١/١٢م]

صرح ليون بانيتا وزير الدفاع الأمريكي أنه سيتم تسريح نحو ١٠٠ ألف شخص من الجيش وقوات البحرية الأمريكية؛ وذلك ضمن خطة تخفيض ٤٨٧ مليار دولار خلال السنوات العشر القادمة من ميزانية وزارة الدفاع الأمريكية.

[روسيا اليوم ٢٠١٢/١/٢٦م]

أفادت وكالة أنباء «نوفوستي» الروسية أنَّ دراسة استطلعت موقف أفراد القوات المسلحة الروسية من الدين، فوجدت أن نحو ٧٥ ٪ منهم متدينون، مشيرةً إلى أن كثيراً من أفراد الجيش الروسي المعاصر يعتنق الإسلام.

وكشف رئيس الجهاز الإعلامي في المنطقة العسكرية الغربية أنَّ معسكرات الجيش في المنطقة تحوي ٤٦ منشأة دينية (مساجد وكنائس)؛ حيث كان جميع أفراد الجيش في الحقبة السوفييتية يُعَدُّون غير متدينين رسمياً.

[الإسلام اليوم ٢٠١٢/١/٨م]

أعلن رئيس الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء المصري ارتفاع معدلات الفقر في البلاد إلى ٢٥,٢٪ خلال عام ٢٠١٠ - ٢٠١١م مقابل ٢١,٦٪ في ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩م، ويُحتسب الفقر على أساس الدخل الشهري للفرد بحوالي ٤٠,٦ دولار وهو ما يعادل أقل من دولارين يومياً.

وأكدت المؤشرات انخفاض نسبة الفقراء العاملين في القطاع الحكومي وقطاع الأعمال العام؛ حيث بلغت ١٣٪ مقابل ٢١,٦٪ في القطاع الخاص.

[جريدة الشروق المصرية ٢٠١٢/٢/١م]

حصل الإسلاميون في مصر على أكثر من ثلثي مقاعد برلمان الثورة، ففاز حزب الحرية والعدالة التابع للإخوان المسلمين بنحو ٣٨٪ وهو ما يساوي ١٢٧ مقعداً من المقاعد، وحصل حزب النور السلفي على ٢٩٪ وهم ٩٦ مقعداً، بينما أحرز حزب الوفد ٣٦ مقعداً، وحققت الكتلة المصرية ٣٣ مقعداً.

وفي الجوار حصل الإسلاميون في برلمان الكويت على نسبة ٦٨٪ من المقاعد البالغ عددها ٥٠ مقعداً.

[مواقع مصرية وكويتية ٢٠١٢/١/٢٢م]

ذكر تقرير رسمي صادر عن الحكومة الأمريكية فقدان ملياري دولار من وزارة الدفاع في فترة الحرب على العراق ما بين الأعوام ٢٠٠٤ - ٢٠٠٧م، دون وجود أي سندات إيصال أو تقارير مدفوعات لتغطية هذه القيمة.

والمبلغ المفقود كان ضمن ثلاث مليارات دولار مقدمة من الحكومة العراقية لوزارة الدفاع الأمريكية في عام ٢٠٠٤م، لتغطية عدد من النفقات والفواتير؛ إلا أن وزارة الدفاع لم تتمكن من حصر سوى ثلث هذه القيمة فقط.

ويذكر أن النفقات الأمريكية في العراق تمثل ٧٣٪ من إجمالي النفقات الأمريكية المستخدمة في مكافحة الإرهاب في العالم، لتصل إلى ٣١٩ مليار دولار أمريكي.

ويذكر أن الكونغرس وافق على مبلغ آخر قدره ٥٠ مليار دولار، ضمن الميزانية المقررة للعراق، وهو ما جعل النفقات الأمريكية في العراق تتجاوز ٣٥٠ مليار دولار.

[شبكة CNN الإخبارية ٢٠١٢/١/٣٠م]

تشير أرقام منظمة العمل العربية إلى أن أعداد العاطلين عن العمل في الوطن العربي خلال عام ٢٠١١م اقترب من ١٥ مليون شخص، ومن المتوقع أن تؤدي الظروف السياسية التي يشهدها الوطن العربي حالياً إلى زيادة عدد العاطلين بأكثر من ٥ ملايين شخص آخرين ليتجاوز حجم البطالة حاجز العشرين مليون عاطل لأول مرة في العام الجاري.

وفي ضوء دراسة للبنك الدولي العام الماضي، أكدت حاجة الدول العربية إلى ١٠٠ مليون وظيفة في عام ٢٠٢٥م؛ وذلك فقط للمحافظة على مستويات البطالة الحالية ومنعها من الارتفاع.

[الاقتصادية الإلكترونية٢٠١٢/١/٣١م]

الأقلية الإسلامية في جمهورية التشيك

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

تقع جمهورية التشيك وسط قارة أوروبا تجاورها ألمانيا من الغرب والشمال الغربي، وبولندا من الشمال، والنمسا من الجنوب وسلوفاكيا من الشرق. ليس لجمهورية التشيك منفذ على البحر. العاصمة براغ وأهم المدن برنو وأسترافا وبيلزن.

تأسست الجمهورية التشيكية دولةً مستقلةً في عام ١٩٩٣م، بعد سبعين عاماً من الوحدة مع سلوفاكيا في أطار الفيدرالية التشيكية السلوفاكية السابقة .

السكان: التركيبة العرقية تشكلت بعد الحرب العالمية الثانية وهي على النحو التالي:

٩٠ ٪ من السكان من أصل تشيكي، والباقي سلوفاك وموران وبوسنيون وألمان.

الأديان: ٥٩ ٪ من التشيك رسمياً بدون ديانة، ٢٦,٢ ٪ رومان كاثوليك، ١,٢٪ بروتستانت ٢,٠.. ٪ شهود يهوه، تتراوح أعداد المسلمين بين ٣٠ ألف و٥٠ ألف مسلم.

وصل الإسلام إلى جمهورية التشيك في القرن العاشر الميلادي، عن طريق قبائل مسلمة من وسط آسيا. وبعد دخول الأتراك العثمانيين إلى وسط أوروبا، وبعد انتصار الأتراك في معركة (كوسوفا) ومعركة (الموهاج) دخل كثير من سكان هذه المنطقة الإسلام. بعد انسحاب الأتراك من وسط أوروبا تعرَّض المسلمون للتنكيل وهدمت مساجدهم وأغلقت مدارسهم وهاجر كثير منهم، وتعرض الإسلام لتحديات كثيرة شنتها إمبراطورية النمسا التي حاولت محو آثار الإسلام في وسط أوروبا وظل الأمر على هذا الوضع حتى صدر قانون التسامح الديني سنة (١٧٨٢م) وبصدور هذا القانون تنفَّس المسلمون شيئاً من الحرية. في عام ١٩١٢م صدر مرسوم الإمبراطور النمساوي (فرنسوا جوزيف الثاني) واعترف بالإسلام ديناً في الدولة، فشيد المسلمون المساجد والمدارس، وأسسوا الجمعيات وكوَّنوا الاتحاد الإسلامي بتشيكوسلوفاكيا. وهاجر كثير من مسلمي البوسنة والهرسك والألبان إلى تشيكوسلوفاكيا. تم تسجيل أول مؤسسة تمثل المسلمين رسمياً في تشيكيا في عام ١٩٣٤م، وقد بادر بهذه الخطوة القنصل المصري في براغ آنذاك «عبد الحميد البابابي» بالتعاون مع الصحافي التشيكي المسلم «محمد عبد الله بريكتسيوس» والمثقف الهندي «ميرزا خان»، فحصلت الجماعة الدينية الإسلامية الأولى على الاعتراف القانوني المبدئي بها في عام ١٩٣٥م دون صعوبات تذكَر، وتجدَّد الاعتراف من جانب وزارة الداخلية في عام ١٩٤١م.

أهم مناطق تجمع المسلمين في تشيكوسلوفاكيا في مدينة (برنو)، وتوجد جاليات مسلمة في كلٍّ من براغ وأوسترافا وتبليتسه وألوموتس وكارفينا وبعض المناطق الأخرى ولكن بنسَب أقل. ولم تأتِ بوادر الحضور الفعلي للإسلام إلاَّ مع أفواج الطلبة العرب والمسلمين الذين استفادوا من «الثورة المخملية» في تشيكوسلوفاكيا في خريف عام ١٩٨٩م ليعلنوا عن قيام «الاتحاد العام للطلبة المسلمين في تشيكوسلوفاكيا» فور انهيار النظام الشيوعي، وتم افتتاح أول مسجد معترَف به رسمياً في تشيكيا بقيادة الشيخ منيب حسن الراوي وبعض الأخوة في عام ١٩٩٨م، ليدخل معه المسلمون في البلاد حقبة الانفتاح والتواصل الفاعل مع المجتمع؛ فالمسجد المشيد في مدينة برنو (عاصمة إقليم مورافيا وثاني مدن البلاد) استقطب في أيامه الأولى آلاف الزائرين الذين أبدوا شغفهم بالإطلاع على الآخر عن كثب وإثراء حصيلتهم المعرفية عن الإسلام.

ولم تمضِ سنة واحدة حتى افتُتح في العاصمة التشيكية براغ المسجد الثاني في البلاد، بينما انبثقت «مؤسسة الوقف الإسلامي» من رحم اتحاد الطلبة المسلمين لتتولى الإشراف على المركزين الإسلاميين في برنو وبراغ.

مشكلات المسلمين في تشيكيا:

١ – الحاجة إلى ترجمات صحيحة للقرآن الكريم باللغة التشيكية.

٢ – الحاجة إلى إنشاء مدارس إسلامية لتعليم الدين واللغة العربية.

٣ – الحاجة إلى دعاة يجيدون اللغة التشيكية للتعريف بالإسلام وفرائضه.

٤ – الحاجة إلى منابر إعلامية لعرض الإسلام والدفاع عن قضايا المسلمين والتعامل مع مشاكلهم.

٥ – الضغط على الحكومة التشيكية للموافقة على بناء مسجد في أماكن تجمع المسلمين.

المراجع والمصادر:

- موقع التشيك اليوم.
- موقع بابليون.
- Fact book

للنشر والتوزيع

دار التدمرية

الجديد

والمخفض

دائماً

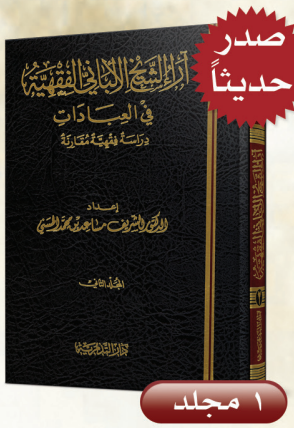

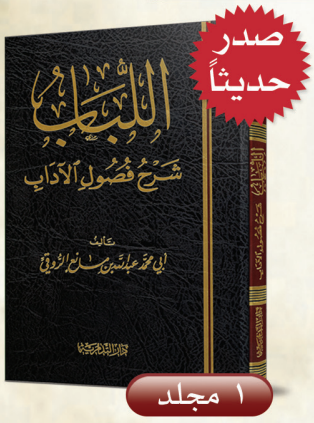

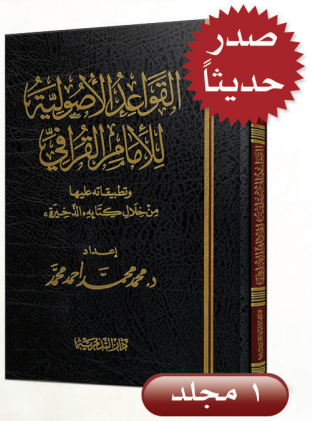

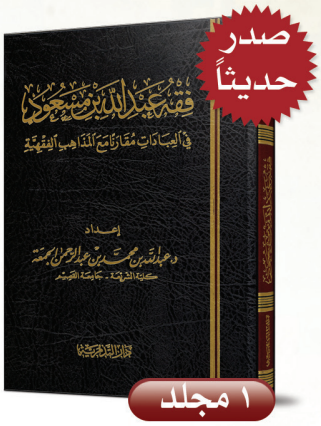

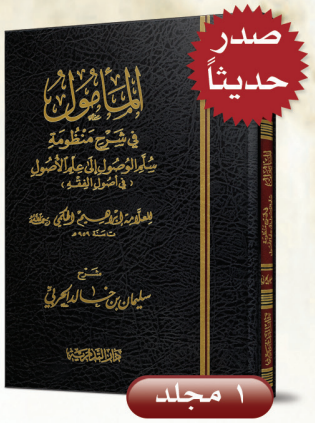

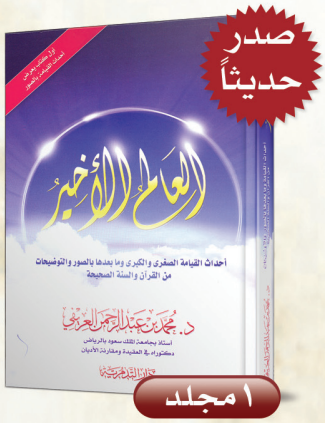

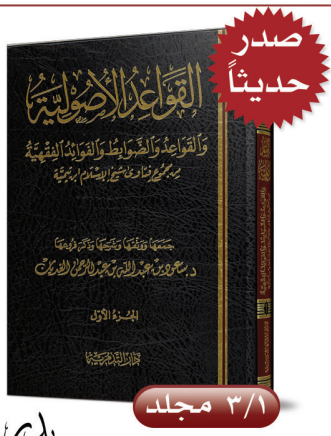

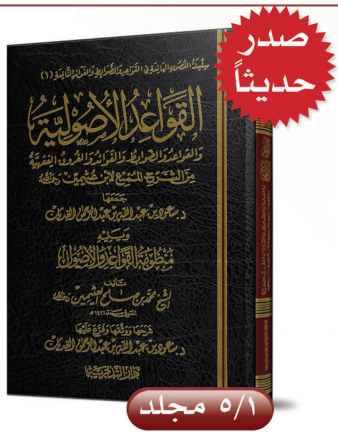

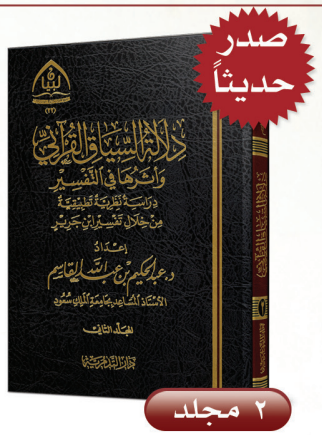

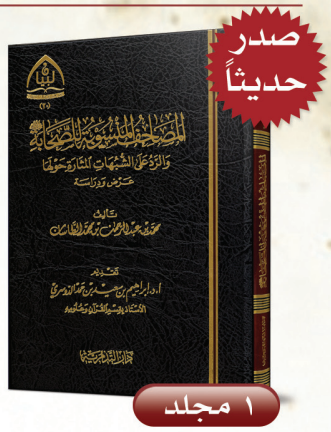

tadmoria@hotmail.com

الرياض - الدائري الشرقي - جنوب مخرج ١٥ مقابل جامع الراجحي

الجديد هاتف : ٤٩٢٤٧٠٦/٤٩٢٥١٩٢ فاكس : ٤٩٣٧١٣٠ بريدة - طريق

الشاحنات - حي الصفرا - هاتف ٣٢٦٢٢٦٢

المسافر

د. حسين علي محمد

لأول مرة يخرج من بيته مسافراً إلى الخليج دون أن ينظر في عيون أبنائه الستة، فيقولوا له: لا إله إلا الله.

فيرد في حماس، وهو يرمق الشفقة في عيون أبنائه وزوجته: محمد رسول الله.

قبل أن يشهق، وهو يجتاز الممر الطويل المؤدِّي إلى مقعده في الصفوف الأخيرة في الطائرة. قال له المضيف حينما لاحظ لحيته البيضاء مستغرباً:

- هل تُدخِّن؟

- لا.

وكأن عينيه استفهمتا عن مغزى السؤال؛ فقد ركب الطائرة أكثر من ستين مرة في هذه السنوات العشر. كان يأتي في إجازة رمضان، وفي إجازة عيد الأضحى، ثم الإجازة الصيفية، وأحياناً يأتي في زيارة سريعة تستغرق عدة أيام.

قال المضيف مبتسماً في:

- لأنك ستجلس في مقاعد المدخنين.

أحس بصدمة، فقد قال له طبيبه الذي يُعالجه من السكر:

- احذر التدخين!

- أنا لا أدخن.

- لا يكفي أن تكون غير مدخن، احذر من مجالسة المدخنين!

أشارت المضيفة في مدخل الطائرة دون أن تتكلم إلى

الطريق الذي سيسلكه حتى يصل إلى مقعده في مؤخرة الطائرة، وهو يقول لها: (C ٦٥).

وصل مكدوداً، ووجد الركاب في مقاعدهم، ولاحظ أن بعض الركاب يدخنون.

أحس بدوار، غابت المرئيات قبل أن يشهق، ويخرج من شفتيه زبد أبيض، ويتعاون بعض الموجودين على حمله لإنزاله من الطائرة، بعد أن فشلوا في إحضار طبيب معالج. واستطاعت أذنه أن تميز بعض الألفاظ، منها: أنه من المنصورة، كما سمع من بعض العجائز «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» تتردَّد خافتة مُشفقة!

كان منذ ثلاث ساعات قد دخل المسجد الذي اعتاد فيه صلاة الجمعة، جلس في مكانه المفضل بالصف الثالث، رغم أنه كانت هناك أماكن خالية كثيرة في الصفين الأول والثاني، وجلس في مكان قريب من الباب حتى يكون من أوائل الخارجين من المسجد بعد أداء الصلاة، ليجلس مع أولاده ساعة قبل أن يتوجَّه إلى المطار.

السنة الأولى التي سافر إلى الخليج فيها - تلك السنة التي اشتعلت فيها حرب تحرير الكويت - جرَّت وراءها السنة الثانية فالثالثة... فالعاشرة.

لماذا لا تتوقف السنون عن الجري؟ كان يعدُّ الأيام لعودته منذ وصوله:

- باق ١٢٠ يوماً، وأعود إلى مصر في إجازة رمضان.
- باق ثلاث جمع نصليها، ونعود في إجازة عيد الأضحى.
- باق أسبوعان في الامتحانات، ونعود إلى مصر الحبيبة.

حينما حصل على الدكتوراه (من الخارج) فشل في الحصول على وظيفة جامعية في مصر. كان يقرأ الإعلان ويذهب سعيداً لتقديم نسخ رسالته مع الأوراق المطلوبة، وتتبخَّر الآمال يوماً فيوماً، ثم يُفاجأ بأن الذي قد عُين في الوظيفة المطلوبة غيره.

قال له عميد كلية ساحلية:

- أنت أحسن المتقدمين للوظيفة، ولكنك تحتاج «زقة».

وحينما سأل صديقه محمد لطفي عن هذه «الزقة»، قال: «دفعة للأمام يا محترم»، حتى تنال شرف التعيين في الكلية.

- هل يُريد - مثلاً - توصية من عضو مجلس الشعب؟

ضحك محمد لطفي واصفاً صديقه بالتخلف عن فهم آليات المجتمع المعاصر في عصر «البيزنس» وتداول النقود!

حينما قرأ إعلان هذه الجامعة الخليجية التي يعمل فيها منذ عشرة أعوام قدَّم أوراقه، وأجرت لجنة التعاقد مقابلة معه، وبعد عدة أيام وصلته برقية تستعجله إنهاء إجراءات السفر.

بعد أن وصل إلى الخليج، وجد أنه يتقاضى راتباً عشرة أضعاف أساتذة الجامعة في مصر، وأربعين ضعفاً لما كان يتقاضاه في وزارة التربية والتعليم قبل أن يجيء إلى الخليج، فحمد الله كثيراً.

ظل يعمل في هذه الجامعة معزياً نفسه أنه لم يجد له وظيفة أستاذ جامعي في جامعات مصر الكثيرة (لأنه لم يجد «الزقة» المطلوبة!)، وأنه يعمل في جامعة عريقة لها اسمها، وأنه في الأعوام العشرة التي أمضاها بنى بيتاً يتسع له ولأبنائه، بعد أن ظل منذ تزوَّج يعيش في شقة صغيرة لا تتجاوز سبعين متراً، وأن زوجته تواصل الرحلة مع الأبناء بنشاط وهمة حتى التحقوا جميعاً بكليات القمة.

لكن زوجته التي ظلت معه سبعة وعشرين عاماً ماتت في هذا الصيف، وفكَّر أن يبقى مع الأولاد، ويعود إلى وظيفته السابقة موجهاً بالتربية والتعليم أو مديراً لمدرسة ثانوية أو خبيراً بالكتب والمناهج، ليتابع أولاده في دراساتهم الجامعية، لكنه بعد تفكير ومُراجعة قرَّر أن يذهب هذا العام إلى الخليج لآخر مرة، ليُنهي بعض الأمور المتعلقة بالعمل، ويحضر كتبه وحاسوبه، ويعود إلى مصر الحبيبة، وربما يُنهي السنة الكاملة لا يقول فيها:

- باق ١٢٠ يوماً، وأعود إلى مصر في إجازة رمضان.
- باق ثلاث جمع نصليها، ونعود في إجازة عيد الأضحى.
- باق أسبوعان في الامتحانات، ونعود إلى مصر الحبيبة.

وفتح عينيه بعد جهد جهيد ليجد نفسه نائماً على سرير أبيض، مغطى بملاءة بيضاء، ومصل الأنبوب المعلق يتصل بوريده، وأولاده جميعاً حوله يقولون في فرح حقيقي: حمداً لله على السلامة.

هشاشة الاستخبارات الصهيونية

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

قالت محافل أمنية صهيونية: إن المؤسسة الاستخبارية الصهيونية تواجه في الآونة الأخيرة ما وصفتها بـ «وضع تدهور وعدم يقين» في علاقتها بحليفاتها وشريكاتها الإستراتيجيات، مستدلين على ذلك بسلسلة من الأحداث الإقليمية والدولية، التي تدل على ضرورة ردم الهوَّة بين الأهمية المتزايدة للمعلومات الاستخبارية، والزعم بأنها تواجه تحديات ومعضلات خاصة في جوانب تجميعها، ومن أهمها:

- مفاجأة خلع الرئيس المصري مبارك، ومهاجمة السفارة في القاهرة، ومستقبل العلاقات مع مصر.
- انهيار نظام العلاقات الإستراتيجية مع تركيا، وصدور تصريحات حماسية عنها معادية لـ «إسرائيل».
- الزعزعة الحاصلة في الشرق الأوسط، والخشية على استقرار النظام في الأردن، ومستقبل العلاقات معه.
- الحذر من ضعف العلاقة بالولايات المتحدة، ومن خطر اضمحلال الحلف الإستراتيجي معها في أمد أبعد.

كما يُعدُّ التجسس واستعمال أجهزة الاستخبارات على الحلفاء والشركاء ظاهرة رائجة في العالم الاستخباري، ويمكن أن يكون تعاون أدائي أو استخباري بين حلفاء في مجال ما كمكافحة الإرهاب مثلاً، وفي الوقت نفسه يُجمِع الحلفاء معلومات بعضهم عن بعض، ويرى بعضهم بعضاً هدفاً استخبارياً، وقد يكون هؤلاء دولاً أو جهات أو منظمات، وليس بالضرورة المقصود هنا معلومات استخبارية سياسية دبلوماسية تُجمَع بصورة دورية عن دول مختلفة، بل معلومات استخبارية عن حليفات ذات أهمية إستراتيجية وأمنية لـ «إسرائيل».

(*) كاتب فلسطيني.

البحث الاستخباري:

وقد تحولت «إسرائيل» ذاتها إلى هدف لنشاط استخباري للولايات المتحدة؛ لا سيما بسبب قدرتها على القيام بأعمال من طرف واحد لها تأثير في مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، في المجالات الآتية:

- متابعة الولايات المتحدة لتطور برنامج «إسرائيل» الذري،
- التعقب الدائم لبنائها في المستوطنات.
- اهتمامها الاستخباري الكبير بفرضية مهاجمتها للمنشآت الذرية في إيران.

الجدير بالذكر أن الأجهزة الأمنية الصهيونية المختلفة (الشاباك والموساد وأمان) حصرت عنايتها في العقود الثلاثة الأولى لوجود «إسرائيل» في دول المواجهة، وخطر الحرب التقليدية، وفي العشرين سنة الأخيرة أصبحت إيران وسورية وحزب الله وحماس في مقدمة اهتماماتها، مشيداً في الوقت نفسه بجهاز الاستخبارات العسكرية «أمان» على نحو خاص، كونه الجهاز الرائد في مجال البحث الإستراتيجي والعسكري والسياسي؛ ولذلك جرى تعزيز قسم البحث في «الشاباك»، وهو ينافس «أمان» في المجال الفلسطيني، كما تطور البحث

في «الموساد» المختص ببعض المجالات كالسلاح غير التقليدي مثلاً. أما مركز البحث السياسي في وزارة الخارجية فلم يصبح جهة ذات أهمية في الجماعة الاستخبارية.

وما يزال لـ «أمان» موقع متقدم في صوغ التقدير الاستخباري القومي الصهيوني العام، فهو مقسَّم جغرافياً إلى جبهات ودول، وبحسب طبيعة كل فرع يشتغل بدولة تناسبه، ويوجد تقسيم داخلي لمجالات البحث السياسي والعسكري، مع وجود فروق في التأكيدات البحثية؛ إزاء دول ليست عدوَّة كمصر والأردن؛ ولهذا فليس غريباً نشوء ما وصفه بـ «الوضع الإشكالي الشاذ» في «إسرائيل»؛ حيث يترك فيه للاستخبارات العسكرية المسؤولية عن البحث السياسي والإستراتيجي، ولكن بسبب صورة إعداد ضباط «أمان»، وفترات الولاية القصيرة، والتبديل الكثير في المناصب، وخضوعهم التنظيمي للجيش، فإنهم يبدون خبراء بالمجال العسكري أكثر من وضع تقديرات في المجالات السياسية والاجتماعية المعنية بشأن استقرار نظم الحكم.

تنسيق الساسة والعسكر:

ولهذا عمل «أمان» في السنين الأخيرة على تحسين القدرة البحثية في مجالات ليست عسكرية، وإعدادٍ أكاديميٍّ لباحثين، وتجنيد باحثين ذوي استعداد أكاديمي، ويمكن تقديم نماذج مقترحة لعلاقات أمنية استخبارية لـ «إسرائيل» في الفترة القادمة على النحو التالي:

مصر: بعد تنحية مبارك تبين إهمال «أمان» الاستخباري للميدان المصري؛ خاصة في المجال العسكري منذ اتفاق السلام، وعدم استعداد الجيش لإنفاق موارد وصرف انتباه استخباري لمصر؛ لأن تقدير «أمان» جاء فحواه بأنه: إذا طرأ تغيُّر على النظام هناك، وعاد خطر المواجهة العسكرية، فسيكون لـ «إسرائيل» إنذار مدته سنين للاستعداد لذلك، علماً أن الإنذار بثورة شعبية كالتي حدثت في مصر تحدٍّ صعب جداً، وقد لا يكون ممكناً للاستخبارات، لكن يجب عليها أن تحاول تقدير استقرار النظام، وهو ما يوجب تخصيص جهد استخباري تجميعي وبحثي نحو قوى ومسارات اجتماعية وسياسية تشذ عن الاشتغال التقليدي بالجيش ونظام الحكم.

تركيا: قال رئيس القسم الأمني السياسي في وزارة الحرب «عاموس جلعاد»: إن تركيا لم تُشمَل قط في جمع المعلومات الاستخبارية. معللاً ذلك بقوله: الاستخبارات لا تستطيع أن تجمع معلومات عن الجميع، فهي ذات موارد محدودة، وتركيا اعتُبرَت حليفة مركزية لـ «إسرائيل» في الشرق الأوسط، وفي الخمسينيات والستينيات انضمت لـ «حلف الضواحي»، وقويت العلاقات معها من جديد في التسعينيات، ونشأ حلف إستراتيجي؛ بحيث لم تعتبَر تهديداً أو هدفاً استخبارياً؛ لكن تغير سياستها، وتهاوي الحلف الإستراتيجي معها، يؤكدان أهمية الاستخبارات السياسية عنها، والتحذير من تغيُّر العلاقات الذي له أيضاً آثار أمنية كثيرة.

الأردن: الذي كان دولة عدوة وهدفاً للاستخبارات الصهيونية، لكن في الوقت نفسه كان له علاقات سرية مع «إسرائيل»، ويمكن اعتباره شريكاً إستراتيجياً منذ سنة ١٩٧٠م على الأقل. وأجرى الملك حسين لقاءات سرية مع القيادة العليا الصهيونية، وأدار الموساد هذه العلاقة، وبعد اتفاق السلام سنة ١٩٩٤م جرى تثبيت التعاون الأمني رسمياً، لكن «إسرائيل» اليوم قلقة في الأساس من تهديد استقرار نظام الحكم في الأردن.

الولايات المتحدة: حليفة «إسرائيل» الرئيسية، ولذلك هناك أهمية كبيرة للمعلومات عن سياستها ونواياها: هل تهاجم إيران؟ وماذا سيكون ردُّها على مهاجمة «إسرائيل» لإيران؟ وهل ستخرج بمبادرة سلام جديدة؟ ورغم وجود نظام صلات وثيق في جميع المستويات كمتخذي القرارات والعسكريين والاستخبارات، وحوار إستراتيجي دوري، لكن توجد قضايا قد تخفي فيها الولايات المتحدة معلومات عن «إسرائيل»، أو تكون لها تقديرات لا تُعرَض على متخذي القرارات فيها.

السلطة الفلسطينية: منذ كانت اتفاقات أوسلو في ١٩٩٣م نشأ إطار تعاون أمني معها، واعتبرت شريكة، وكانت الساحة الفلسطينية في مركز الجهد الاستخباري الصهيوني زمن المفاوضات السلمية، لكن كانت تعوزها معلومات عن قوات الأمن الفلسطينية مثلاً، واعتمد «الشاباك» على تعاون معها، وضيق نشاطه الاستخباري المستقل، وبعد انتفاضة الأقصى عُرفت السلطة بأنها هدف في مكافحة الإرهاب، وتوقف التعاون الأمني معها، وعاد «الشاباك»، وثبَّت حضوراً استخبارياً كثيفاً في الضفة الغربية، وفي سنة ٢٠٠٥م تم تجديد التعاون مع قوات الأمن الفلسطينية، وحظيت بالمديح لعملها على مجابهة حماس، لكن اتفاق المصالحة معها، وإعلان الاستقلال الفلسطيني المرتقب، أثارا الخوف من أن تتخذ قوات الأمن الفلسطينية الحياد، أو تصبح عدواً.

هيمنة مراكز الأبحاث الصهيونية

جهاد العايش
Jehad67@hotmail.com

قال الكاتب اليهودي (يئير عميكام): في كل مدرسة تعنى بالاستشراق، ضابط كبير من سلاح المخابرات لتوجيه دراسات الاستشراق. وقال بن غوريون: يندر أن تجد أكاديمياً أو إسرائيلياً في إسرائيل لم يتثقف على أيدي الموساد، أو من خلال منظمات الإرهاب.

لقد حظي اليهود وفي وقت مبكر بخدمات بحثية مجانية، رعتها بعض طوائف النصارى الغربيين تحديداً، وعلى وجه الخصوص النصارى الذين يحملون اعتقاداً مزدوجاً بين العهدين (القديم والجديد).

وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر ما يلي: إن المستكشف (كريستوفر كولومبس) الذي ينحدر من أسرة يهودية عاشت في الأندلس، حيث فرَّ مع أسرته إثر محاكم التفتيش، وكان قد ساعده يهود (المارنوا) وتبنَّوا مشروعه ودعموه بالتمويل والتخطيط؛ إذ كان الهدف من رحلته استخدام الذهب الذي يجده في العالم الجديد لإعادة بناء الهيكل اليهودي المزعوم[1].

وفي القرن السادس عشر جاء (مارتن لوثر) بفكرة تجديدية على الديانة النصرانية كانت بمثابة أول مبادرة لتمويل اليهود لتأسيس قومية يهودية من خلال الترويج أن اليهود أمة مفضلة ويجب عودتهم إلى فلسطين، ودعا إلى عودة اللغة العبرية باعتبارها لساناً مقدساً ووجوب عودة اليهود إلى فلسطين وبناء دولة وهيكل لهم فيها.

(١) للمزيد من التفصيل انظر: كتاب المسيح اليهودي، رضا هلال، ص٦٢، وكتاب الملاك يوجه العاصفة، مايكل نورثكوت، ص ٢٠، ومفكرة الإسلام ٢٢/١١/٢٠٠٦م.

ثم جاءت وفود الرحالة الأوروبيين تترى إلى فلسطين خاصة والمشـــرق الإســـلامي عامة؛ حيث تركزت جهودهم على غرس مفردات ومفاهيم تحمل مضامين خدماتية للمشـــروع اليهودي الكبير؛ ومن ذلك: التركيز في دراســـات الرحالة الأوروبي على إطلاق مفاهيم، منها – على ســـبيل المثال –: (التركي الرهيب)، (الكافر الفظ)، (الوباء الذي أصاب فلســـطين بســـبب سيطرة الإســـلام عليهـــا) وأن أهلها الأصليين هم اليهود (شـــعب الله المختار) ويجب تتبُّع الأصول والآثار اليهودية فيها وإعادة مجد اليهود إليها.

وتزامن مع ذلك عودة نشاط فكري لعقائد (القبالاه) – وهي إحـــدى الجماعات اليهوديـــة ذات النزعة الصوفية – وســـعيها الجديد في تنشيط الاجتهادات التوراتية.

وجاءت حملة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م، التي استهدفت مصـــر العظيمة بوابةَ المشـــرق الإســـلامي والعربـــي بأكمله، فالجيوش الفرنســـية جاءت ويبـــرق في مخيلتهـــا ووجدانها وضوح الفكرة التي جاؤوا لأجلها وهي: (اليهود ورثة فلســـطين الشرعيين) وإعادة إنشاء مملكة القدس القديمة.

لم تكن تحمل البوارج الفرنســـية الغازية الذخيرة الحربية فقط بل حملت ســـلاح الفكر؛ فقد زودت إحدى بوارج الحملة الفرنســـية بمطبعة كانت علـــى متنها تطبع وتنســـخ البيانات التخذيليـــة لتـــوزَّع في مصـــر، وكان يحررها أول أســـتاذ في اللغة العربية في كلية باريس (سيلفســـتر)، ومستشار الشؤون السياسية في الخارجية الفرنسية.

وحينمـــا كنت في زيـــارة لمركز المخطوطـــات التابع لوزارة الأوقـــاف المصرية، اطلعت على كتاب (وصف مصر) الذي يقع فـــي (٢٣) مجلداً كبيراً جداً، حوى كل كبيرة وصغيرة عن مصر أدركت جيداً أن المستشرق الأوروبي لم يكن في سياحة أو جولة ترويحية يلتقط الصور عند النيل أو الأهرامات.

أما بريطانيا رأس الأفعى التي أطلَّت على مشـــرقنا نيابة عـــن فرنســـا وتتمة لحمـــلات صليبية قديمة لكـــن بمنهجية (الصهيوإنجيليـــة)، وكما أســـلفنا قبل قليـــل قدَّمت خدمات مجانية للمشـــروع اليهودي المقبل، لم يتحـــرك هؤلاء بثورات انقلابية، بل بخطوات مدروســـة اســـتغرقت ردحاً من الزمن، وهي تخطط، وتدرس، وتقلب الأمور، فكان من ذلك مؤسسات تعنى بمشـــرقنا، وتضخ له الميزانيات المادية والعقول البشرية، ومن ذلك:

• جمعية فلسطين التي تأسست عام ١٨٠١م في لندن:

كانت تستقبل الملفات والتقارير المعنية بفلسطين وتقوم على دراســـتها وتحليلها، ونشـــرت دراســـة مترجمة تصف الأراضي المحيطة ببحيرة طبرية، ونهـــر الأردن بكل دقة، ليتمكن الباحث في مكتبه والقائد العســـكري في ميدانـــه أن يتعاطى معها بكل مهنية.

• الجمعية الجغرافية الملكية تأسست عام ١٨٣٠م:

ومن أعمالها ما قام به القس الأمريكي روبنسون من دراسة بعنوان (أبحاث توراتية في فلســـطين) بعد دراسة ميدانية في فلســـطين مدة ثلاث ســـنوات، وعاد مرة أخرى ومكث عشـــر سنوات، وقدم دراسة أخرى بعنوان (أبحاث توراتية جديدة في فلسطين)، وعلى إثرها قام ســـلاح الهندسة البريطاني بمسح المنطقـــة الممتدة ما بين يافا إلى القدس إلى البحر الميت. وقام الملازم (منلوه) بالســـفر في قارب في بحيرة طبرية إلى البحر الميت، ومسح المنطقة.

• صندوق استكشـــاف فلسطين الذي تأسس في بريطانيا في الثلث الأخير من القرن (١٩):

تأسس برعاية فكتوريا الملكة البريطانية ورئيس الأساقفة، مكوَّن من (٤٥) عضواً جميعهم من كبار رجال الدين، استخدموا ســـلاح الهندســـية الملكي البريطاني واســـتغرقت عملية مسح فلسطين زهاء (٥٠) سنة متواصلة، وقد صدر خلال هذه الفترة كتاب بعنوان (أرض الموعد)، وطالبوا بضرورة تطوير فلســـطين على يد شـــركة الهند الشـــرقية، وإدخال اليهـــود من خلالها لاحتلال بريطانيا لفلسطين.

وقـــام الصنـــدوق على تشـــجيع اليهود علـــى الهجرة إلى فلسطين، وصبغ فلســـطين بالهوية اليهودية وقدموا المعلومات والدراسات التي عرَّفت اليهود بحقيقة فلسطين.

لقد لعبت بريطانيا – ولا تزال – دوراً إستراتيجياً محورياً في إقامة دولة إســـرائيل والحفاظ عليها في المرحلة الحالية. قال (نورمان بنتوش) الصهيوني النائب العام لحكومة الانتداب البريطاني: (كانت المشـــاريع الصهيونية الرئيسية تتأسس على شكل شركات بريطانية)، منها: شركة سكة حديد وادي الفرات، لتصل بين حيفا وبغداد وشركة سكة حديد حيفا دمشق.

إن بريطانيا اكتشـــفت فلســـطين لليهود، ثم هيأت لهم الوصول إليها، ثم أعدَّت لهم وســـائل التمكين فيهـــا، وأمَّنت لهم الحدود ثم سلَّمت لهم فلسطين، وأمريكا تدعم وجود وبقاء اليهود في فلسطين.

لقـــد أدرك اليهود أنه ينبغي عليهم إزالة عدة إشـــكاليات

واستجلاب عدة احتياجات، تقوم على أسس استشراقية، منها:

• بذل الجهد في إقناع اليهود وتحفيزهم للهجرة الى فلسطين.

• العقلية الأوروبية المتعاطفة وغير المتعاطفة مع اليهود كذلك بحاجة إلى إقناع واستدراج لدعم اليهود للوصول إلى فلسطين.

• والعرب بحاجة الى خطة شاملة لخداعهم وتخذيلهم عن الفلسطينيين.

وبعد ذلك تبلورت الأسس الاستشراقية التي قامت عليها نظريات العبث الاستشراقي اليهودي من خلال:

١ - اعتماد شبكة معقدة من الدعاوى، والتلفيقات التاريخية، والنصوص الدينية، (وارتباط اليهود بفلسطين)؛ لتكوين معالم واضحة للشخصية والدولة اليهودية.

٢ - رسم صورة محرَّفة لفلسطين وأهلها، على نحوٍ يدعم فكرة هجرة اليهود إلى فلسطين من خلال الفروق بين اليهود والعرب (شعب الله المختار، الدونية، نقاء العرق اليهودي).

وقد اتخذت الصهيونية جيشاً من البروفسورات يخدم هذه الفكرة، ومن أشهر المستشرقين اليهود في القرن الماضي:

سلومون مونك:

حاول التوفيق بين الفلاسفة اليونانيين والمسلمين من جهة، وبين العقائد اليهودية ليتمكن من خلال ذلك من دمج العقيدة الإسلامية بهرطقات الفلاسفة لتنشأ الثغرات التي تطعن بعقيدة الإسلام.

أرمينوس فامبرى:

كان له دور في توثيق الروابط الصهيونية مع بريطانيا، وكان له دور في تأمين مقابلة هرتزل مع السلطان عبد الحميد، وكان يوجه هرتزل في كيفية اللقاء.

إجنتس جولد تسهير:

وُصِف بسيد الباحثين في الشؤون الإسلامية، أقام في القاهرة وسورية وفلسطين، قدَّم (٥٩٢) بحثاً إسلامياً، منها: (الظاهرية مذهبهم وتاريخهم) و (دراسات إسلامية) و (الإسلام والدين الفارسي) وآلت جميع دراساته وبحوثه إلى الجامعة العبرية في القدس.

يعقوب باست:

أتقن العربية وألَّف كتاب في تكوين الأسماء في اللغات السامية وشارك في تحقيق (تاريخ الطبري) و (كتاب الفصيح) للثعلبي.

جوزيف هوروفستش:

اشتغل في مدرسة عليكرة الإسلامية في الهند، وقدم رسالة الدكتوراه في كتاب (المغازي) للواقدي وحقق جزأين من طبقات ابن سعد (وهما في غزوات النبي ﷺ).

وهو عضو مجلس إدارة الجامعة العبرية عند التأسيس، اقترح نشر كتاب أنساب (الأشراف للبلاذري) وقد نشر المجلد الرابع والخامس بتحقيق اثنين من اليهود، له بحوث منها: (الجنة في القرآن) وبحث بعنوان: (أسماء الأعلام اليهود ومشتقاتها في القرآن).

ماكس مايرهوف:

أكبر الباحثين الأوروبيين المتخصصين في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب من أبحاثه: (الأطباء اليهود والمصريون الذين اشتهروا في العصر الأموي).

دافيد بانت:

أستاذ اللغة العربية في الجامعة العبرية، واهتم بالكُتَّاب اليهود العرب الذين كتبوا بالعبرية

باول كراوس:

أتقن العربية، وأكبَّ على دراسة الكيمياء عند العرب، فأخرج كتاباً بعنوان: (تحطيم أسطورة جابر بن حيان)، وخلاصته أن أبحاث جابر هي من أعمال مجموعة من الإسماعيليين! ورسالة عن (أخبار الحلاج) ورسالة للبيروني، وأعدَّ رسالة الدكتوراة عن الرازي.

لقد أدرك الصهاينة بعد تأسيس الدولة أن هؤلاء النفر من الباحثين هم بمثابة العمود الفِقْري للدولة ورأس مالها.

وأنهم صانعوا الرموز الاجتماعية للدولة، فمنحهم كيانهم لقباً يعتزون به (جيش البروفسورات).

وتُبْنِيَت أبحاثُهم التي كانت أساساً في سياسات (دولة إسرائيل) المعاصرة التي وضعتها الصهيونية.

لقد استوعبت المؤسسة الصهيونية العملية البحثية اليهودية ورموزها في أهم المؤسسات، وبأرقى الوسائل، وبأعلى الصلاحيات القائمة على العمل المؤسسي المرتبط بتوجهات الدولة.

الدولة اليهودية تولي اهتماماً بالباحثين من خلال دعم الباحثين إدارياً ومعنوياً وعلمياً، وكان ذلك من خلال:

١ - تمكين الباحثين للاطلاع على موجودات المراكز البحثية، مثل: أرشيف الدولة في القدس، والأرشيف الصهيوني المركزي، وأرشيف تاريخ الشعب اليهودي.

٢ – توفير مجالات تشـــغيل الباحثين لتشـــجيع المهاجرين منهم إلى فلسطين.

٣ – إشراكهم في رسم سياسات الدولية.

٤ – إتاحة الفرصة لهم للتحدث في مختلف المســـائل التي تَهمُّ الدولة.

٥ – إتاحة المجال لهم للاستفادة من الخبرات الأجنبية.

٦ – التناغم المرن بين هؤلاء ومؤسسات الدولة.

ومن ذلـــك: التناغم بين الاســـتخبارات الصهيونية وجيش الباحثين اليهود وتهدف من ذلك إلى:

١ – إعداد الدراســـات الخاصة بشـــأن المستجدات على الساحة العربية والفلسطينية.

٢ – توجيه الجهود وَفْقَ متطلبات الأهداف الإسرائيلية وَفْقَ معادلة: (معلومات غير ممنوعة + عقل + عمل) = سري جداً.

٣ – توجيـــه كثير من ضباط الجيش بعد انتهاء عملهم في السلك العسكري إلى مراكز الأبحاث ٤٪ من السياسيين، ٥٪ من العسكريين. لذلك ليس سهلاً التمييز بين الباحث والعسكري.

ومن الأمثلة على هذه المؤسســـات البحثيـــة والعلمية في الكيـــان اليهودي، ودورها فـــي عملية التنميـــة الحقيقية لكل قطاعات الدولة اللقيطة.

الجامعة العبرية في القدس:

أول من أطلق فكرتها عالم الرياضيات اليهودي (تسفي) عام ١٨٨٢م؛ حيث تم طرح المشروع رسمياً في المؤتمر اليهودي الأول عام ١٨٩٧م، وتقرَّر بناؤها في المؤتمر اليهودي الثالث عشر عام ١٩١٣م، وتبرع دافيد رئيـــس المؤتمر الصهيوني بمبلغ ٢٥ ألف دولار لتأسيسها عام ١٩١٨م، وقد وضع (حاييم وايزمان) حجر الأساس ودشـــنها بلفور عام ١٩٢٥م. تحوي ما يزيد عن مليون مجلد و ٦٠ أمين مكتبة، ومتحف للآثار اليهودية، ولها دار نشر خاصة بها.

معهد الدراسات (الإفريقية - الأسيوية):

تأســـس عام ١٩٤١م وهو يتبع الجامعـــة العبرية، وبتكليف من الحكومة أُنشـــئ معهد للبحث فـــي مواضيع خاصة، منها: اليهود في بلاد العرب، فلسطين في التاريخ الإسلامي واليهودي والعربي، وجمع المخطوطات.

المعهد الإسرائيلي للأبحاث الاجتماعية:

تأســـس عام ١٩٤٨م باشر بالعمل ومخصصاته من ميزانية الدولة. يقوم بالنصح وتوجيه الدراسات للمؤسسات (الإسرائيلية) حول طبيعة الصراع ومتغيراتها بين العرب واليهود.

معهد بن تسفي للدراسات اليهودية:

تأســـس عام ١٩٤٨م يهدف إلى صبغ الهوية اليهودية على فلســـطين، وينظم لها المؤتمرات والندوات، ويقوم بالدراســـات الدعائية للمؤسسات الحكومية لتســـويق المفاهيم والتصورات الدعائية اليهودية حول فلسطين.

معهد الدراسات الاقتصادية:

أنشئ عام ١٩٦٤م، هدفه تشـــجيع الدراسات الاقتصادية لدعم الاقتصاد اليهودي ودراســـة الاقتصادات الفلســـطينية والعربية وأثر المقاطعة على إسرائيل.

معهد ترومان لدراسات الوفاق:

يعمل علـــى حصد وجمع الدراســـات والمطبوعات العربية ليقوم على دراستها والتعرُّف على مستجداتها.

حتى إنـــه كان قديماً يُعنَى بدراســـة لوحات الحائط في الدول العربية، ويتابع سياســـات العرب الفلسطينيين، ويرصد حركة الأحزاب السياسية الفلسطينية.

مركز دراسة أوضاع عرب إسرائيل:

يتعاون مـــع الجامعة العبرية والجيـــش والخارجية ويهتم بالفلسطينيين وتاريخهم.

مركز ليفي أشكول:

متخصص في الشـــؤون اليهوديـــة والتغيرات العقدية في المجتمع الإسرائيلي والحروب ونتائجها على المجتمع الإسرائيلي ودور الصحافة اليهودية ودورها في حالات الطوارئ.

معهد مارتن بوبر للتقارب اليهودي العربي:

يهتـــم بالتقريـــب بين اليهـــود والعـــرب وتعليم لغة الطرفين.

معهد شيلواح للدراسات الشرق أوسطية:

وأهم مـــا يميز هذا المعهد هو ســـرقة أرشـــيف مركز الأبحاث الفلسطيني إبَّان اقتحام اليهود بيروت عام ١٩٨٢م. وهنا لفتة، وهي أن عصر السبعينيات هو قمة فورة مؤسسات البحث الفلسطينية، ولو شـــهدت هذه الفترة بروز القنوات الفضائية الفلســـطينية والشبكة العنكبوتية مع الحرية التي كان يتمتع بها الفلســـطينيون في كثير من دول العالم، لهزم الإعلام اليهودي حتماً.

مركز جافي للدراسات الإستراتيجية:

هو العقل الأمني لدولة اليهود وخزان المعلومات والدراسات الخاصة بذلك يعمـــل على اطلاع المؤسســـات على المعلومات الأمنية.

مركـز التخطيـط السياسـي للعلاقـات بين إسـرائيل والشتات:

يعالج مسـائل ترابط منظمـات يهود العالم وإسـرائيل والدعاية لإسرائيل، وتشجيع الهجرة إليها والدفاع عنها.

مركـز دراسـات أدب الأطفـال - جامعة حيفـا - كلية التربية:

يهتم بتربيـة الأطفال اليهود وتنشـئتهم على الحقد على العرب، وأصدر ما يزيد عن (٤٢٠) كتاباً، يتناولون هذه المواضيع.

المركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة:

أنشـئ عام ١٩٨٢م في إطار اتفاقيات السـلام، ومن باب التطبيع الثقافي. فهو مرتبط بأجهزة الاسـتخبارات الأمريكية والإسـرائيلية، يُصدِر المركز أبحاثاً، ونشـرات باللغة العربية والإنجليزية، وهو جسـر بين مؤسسـات البحـث والباحثين المصريين و اليهود.

ويعمل علـى عقد مؤتمر علمي احتفـالاً بمرور ٨٠٠ عام على معركة حطين ١١٨٧م؛ حيث قام بمسـح للمجتمع المصري ودراسـة الوحدة الثقافية والعقائدية للمسلمين واليهود، وكان ينوي إقامة مؤتمر بعنوان (العصر الذهبي ليهود مصر).

معهد الدراسات العبرية:

تعليـم اللغة العربية لليهود، ويبحث في نشـاطات الحركة الإسـلامية الموجودة فـي مناطق الـ ٤٨، ويهـدف إلى إيجاد التفاهم بين العرب واليهود.

جمعية المشروع العربي الإسرائيلي:

ويعمل على تشـجيع البحوث الداعية للسـلام مع اليهود، وإيجاد البرهنة على عقلانية اليهود وتصلُّب العرب، ودراسـة انطباعات العرب عن اليهود.

معهد الدراسات الشرقية – القدس – ١٩٢٦م (الجامعة العربية):

حيث جمعوا سجلاً ضخماً للشعر العربي القديم، و أَنشؤوا معجماً عربياً عبرياً، ورصدوا اللهجات الفلسـطينية العامية، وعملوا على ترجمة القرآن إلى العبرية وسيرة النبي محمد ﷺ.

واهتموا بكثير من الشخصيات الإسلامية الجدلية وغيرها؛ فقد قدمت البروفسـورة (مغا) دراسـة عن الإمـام أبو حامد الغزالي استغرقت مدة (١٥) سنة، وأعدت بحثاً في دَوْر عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – من الناحية الدينية.

و أشـرفت على بحث لامرأة يهودية تقدَّمت للدكتوراه في موضوع (قصص الأنبياء) للكسـاني، ورسـالة في الماجستير (الإعجـاز في القرآن) وأخرى عن (مقام إبراهيم) وألفتْ كتاباً عن الحج وآخر عن أركان الإسلام والأعياد في الإسلام. لتأكد أن الدين الإسلامي قريب من اليهودي، وفكرة المسجد قريبة من الكنيس اليهودي لتعطي انطباعاً بأن الدين الإسـلامي مقتبَس من الدين اليهودي.

كما أعد الباحث اليهودي (ديكرت) مبحثاً حول (مشـكلة الحجاب في الإسلام) ويرى (فقيه الزمان) أن الإسلام لم يطلب من المرأة تغطية وجهها، وأنها عادة دخيلة على الإسلام، وكانت هذه رغبة من الأوساط الإسرائيلية الرسمية إلى تحليل ظاهرة العودة إلى الحجاب.

كما حققوا وطبعوا كتاب (أنسـاب الأشـراف) للبلاذري، ووضعوا له هوامش بالإنجليزية وهو أبرز كتب الأنساب العربية التي تربط بين الأنسـاب والقبائل، كما قامت الباحثة (يافية) بترجمة كتاب (ألف ليلة و ليلة).

وقام (إسـحق حسـون) الباحث اليهودي الذي يعمل في (مركز دراسات الآسيوإفريقية) في الجامعة العبرية في القدس المحتلة، بتحقيق مخطوطة (فضائل البيت المقدس) للواسـطي، حيث دسَّ السمَّ في العسل وصدَّر الكتاب بجملة أكاذيب[1].

كمـا ترجموا كتاب (ذم الدنيا) لأبـي الدنيا، و (الأحاديث الحسـان في فضل الطيلسان) للسـيوطي وكتاب (المنقذ من الضلال) لأبي حامد الغزالي.

كما أعدوا دراسة استغرقت مدة (١٥) سنة عن مؤلفات أبي حامد الغزالي التي تجاوزت الـ (٥٠) كتاباً.

كما أنه كان العزم على عقد مؤتمر علمي على مرور (٨٢٥) عام على ولادة ابـن عربي لأنه من دعاة وحدة الأديان و وحدة الوجود ويمجد التثليث!

وجميـل أن نذكر في هذا المقام تنبُّه الأمانة العامة لاتحاد المؤرخـين العرب من أعمال ونوايا البحَّاثَة اليهود وغيرهم ممن يبحثون عن ثغرات وسـقطات من ينسَبُون للدين لينقضوا على الإسلام من خلالها؛ فقد أصدرت الأمانة العامة بياناً تحذِّر فيه من ذلك عام (١٩٨٦م) جاء فيه:

(غالبية الكتب المحققة من قِبَل المستشرقين الإسرائيليين من أعمال الصوفيـة أو التي تعتمد على الفضائل وهي ليسـت من القضايا الأساسية في الثقافة والفكر الإسلامي ولكنها في الوقت

(١) ولأهمية الكتاب قام مشكوراً مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقة بتحقيق الكتاب تحقيقاً علمياً رصيناً وصدر في مجلد فاخر، وقد تطرق الكتاب الى مسيرة هذه المخطوطة وكيف نجح اليهود في سرقتها من مكتبة جامع الجزار في مدينة عكا الفلسطينية، عام ١٩٤٨م.

ذاته من الأعمال التي تستهوي المناهضين للإسلام للبحث في ثناياه عن أمور لا تتفق مع روح الإسلام، والتي يمكن من خلالها استخلاص نقاط الضعف توجَّه ضد العقيدة الإسلامية).

أكاديمية العلوم التاريخية في جامعة تل أبيب:

اهتمت بمعركة حطين و دراسة أسبابها وأسباب الجهاد عند المسلمين وكيف تمكَّن المسلمون من طرد الصليبيين من هذه الأرض التي هي اليوم بيدهم. وهل يمكن للمسلمين أن يستدركوا هذه الأسباب؟ بل أعدت احتفالاً بذات المناسبة ويتم استثمار هذا الاحتفال للأغراض التربوية والعسكرية والسياسية والإعلامية. كما تنظم دورياً (شركة حماية الطبيعة) جولات سياحية إلى منطقة حطين وغيرها من مناطق تاريخية وقعت عليها معارك تاريخية فاصلة، بل ودرسوا كتاب الجهاد الذي وضعه القاضي بهاء الدين لصلاح الدين.

وجمعوا كل الكتب الإسلامية التي أُلفت عن الجهاد ودرسوها وكل الكتب التي تكلمت عن الفضائل؛ وخاصة بيت المقدس، مثل: قاعدة في زيارة القدس لابن تيمية، وفضائل بيت المقدس للكنجي، ومثير الغرام في فضل القدس والشام لشهاب الدين القدسي، وفضائل البيت المقدس للمكناسي[1].

وقد يتساءل بعض الناس: لماذا كل هذه الجهود اليهودية المبذولة لدعم مشاريع الأبحاث؟

وإليكم الجواب في نقاط منها:

- رسم مستقبل آمن لحدودهم وأرواحهم من خلال دراسة الماضي لاستلهام العبر منه بعد تحويره بما يتناسب مع احتياجات المرحلة، وكان لمن أسموهم (المستشرقون الجدد) دور هام في ذلك.
- أن العقل الباطن اليهودي يصارع حقائق التماثل التاريخي وهو أن التاريخ يعيد نفسه، فيجدوا أنفسهم مندفعين لا شعورياً إلى ما قد يُعيد للمسلمين مجدهم أو كان في الماضي سبباً لمجدهم وهو من باب التخلص من القلق للوصول إلى حالة من الطمأنينة.
- تقديم تصوُّرات ورؤى مدروسة تساعد المجتمع اليهودي على معرفة حقيقة الصراع الدائر مع المسلمين.
- تغذية روح الصمود وإرادة التحدي لمواجهة التحدي الإسلامي والعربي وأي مناهض لما أطلقوا عليه (أعداء السامية).
- التعرف على مواطن القوة والضعف عند العرب لمعرفة إدارة الصراع.
- دغدغة المخدوعين من العرب بخطاب سلمي ظاهرياً، يظهر النوايا اليهودية الحسنة.
- التناغم مع الحاجات الميدانية والسلوكية للمفهوم والعقلية الصهيونية (إفساد، خداع، كذب، قتل، تدمير).
- إدارة الوجود الفلسطيني في الداخل مثل الواقع الديموغرافي والتعليمي والديني والجغرافي.
- استشراف المستقبل من خلال نظريات تحدد طبيعة مستوى إسرائيل ووجودها بعد عدة سنوات.

هؤلاء هم الذين حذَّرهم – تبارك وتعالى – في قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

الخلاصة:

- أن الباحثين اليهود ومؤسساتهم البحثية إنما هم مؤسسات عسكرية من الدرجة الأولى.
- أن دولة إسرائيل قامت على هؤلاء البروفسورات ومراكز بحثهم. أما جنود البطش الإسرائيلي فهم ينفذون مخططات البروفسورات.
- ليس من الصعب أن نكوِّن جيشاً من البروفسورات والباحثين لمواجهة اليهود وأكاذيبهم، بل ولتخذيلهم من البقاء في فلسطين.
- مراكز الأبحاث هي ضرب من ضروب الجهاد في سبيل الله ومقدمة لدحر العدو عن فلسطين، علينا أن نسعى لتأسيس ودعم أفراد في جيش البروفسورات الإسلامي في فلسطين داخلها وخارجها، كلٌّ منا عليه أن يقف على ثغر وأن ينافح من خلال تخصصه يبذل نفسه وعمره وماله فيه.

ونحن نأسف كلَّ الأسف ومعه الأسى والحسرة حينما نرى هذه الجهود اليهودية المبذولة من الصهيونية وأزلامها في العالم لدعم مراكزهم، ونرى في المقابل (مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية) مؤسسة هامة وفريدة أخذت على عاتقها مدافعة المشاريع اليهودية ولا تجد من حكومات العالم الإسلامي ولا العربي ولا تجارهما من يقف إلى جانب المركز لدعم هذه المشاريع التي يتبناها والتي لقيت قبولاً واستحساناً عالمياً لكل من اطلع على جزء من أعماله.

---

(١) لمزيد من الفائدة راجع إن شئت كتاب: الخلفية التوراتية، للكيلاني، والكتاب القيم جداً في هذا الباب: الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل، لمؤلفه إبراهيم عبد الكريم، الناشر: دار الجليل للنشر، الأردن وأبحاث متفرقة في أعداد من سلسلة بيت المقدس للدراسات، الصادرة عن مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية.

خريطة طريق...
لقيادة الحراك الفكري

إبراهيم بن عبد العزيز الخميس(*)

المدافعة بين الحق والباطل سنة إلهية باقية إلى قيام الساعة «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك[1]».

والإخلاص وحدَه غير كافٍ في تحقيق النصر على أهل الباطل؛ بل لا بد من الأخذ بأسباب النصر والتمكين المادية مع الثقة بالله والتوكل عليه واللجوء إليه.

وغزو الغرب الفكري أشد وأخطر من الغزو العسكري، ومهما حاول الساسة الخونة تغيير الواقع الاجتماعي باستخدام قوة السلطان وسطوته فإنهم لن يثبتوا أمام الشعوب المثقفة الواعية بحقوقها وواقعها ومستقبلها. والربيع العربي شاهد على وعي الشعوب بحقٍّ واحدٍ من حقوقها (الحرية والعدالة الاجتماعية)؛ فماذا لو ارتفع مستوى الوعي عند الشعوب لتدرك ما يحيكه الأعداء من مخططات لتغريب المجتمعات الإسلامية، وكيفية مقاومة هذا العداء السافر الذي تواجهه الأمة بأيدي حثالة من أبنائها دخلوا (جحر الضب)، وأسكرتهم (الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التي زنا معها ملوك الأرض وسكر كل سكان الأرض من خمر زناها)[2]، لبسوا عباءة الإصلاح، فلبسوا الحق بالباطل ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

والمتأمل لأحوال الساحة يلحظ حَراكاً فكرياً يقوده العصرانيون بكفاءةٍ ودعمٍ غربي، مقابلَ ردود أفعالٍ واجتهاداتٍ فردية من الإسلاميين[3]، بل وتخاذل أحياناً من قيادات ورموز إسلامية بارزة. وجُلُّ المعارك الثقافية التي دارت رحاها الفترة الماضية لم يختر الإسلاميون مكانها ولا زمانها ولا كيفية إدارتها.

(في الأزمنة السحيقة دانت السيادة لمن أُطلق عليهم آنذاك بالمحاربين العظماء، ولم تكن انتصاراتهم محض صدفة، بل لأنهم وضعوا أنفسهم في المكان الذي لا بد أن ينتصروا منه، فقد وضعوا أقدامهم على الأرض التي لا يمكن أن يخسروا عليها، فالجيش المنتصر ينتصر أولاً ثم يبحث عن المعركة، أما المنهزمون فهم يدخلون المعارك أولاً ثم يبحثون عن النصر بعد ذلك)[4].

(*) المشرف العام على مركز شمس الإدارة للتطوير.

(١) متفق عليه من حديث معاوية، وهذا لفظ البخاري، ح (٣٦٤١).

(٢) الزانية العظيمة: هي أمريكا في تأويل رؤيا دانيال، والنص مقتبس من سفر الرؤيا. ينظر مقال (يوم الغضب هل اقترب؟) في مدونة الباقي.

(٣) العصرانيون هم: (الذين يقودون مجتمعاتهم نحو الانفعال بالمعطيات الاجتماعية والفكرية للحضارة الغربية في مؤسساتها ونظمها ومناهجها الفكرية ومدارسها الأدبية والفنية، وربط الإنسان والمجتمع بها بحيث تكون لهذه المعطيات السبق على الثوابت). والإسلاميون هم: (الملتزمون في فعلهم الثقافي بالإسلام في مبادئه الكلية وتشريعاته التفصيلية، وهم يتفاوتون بحسب التزامهم بتلك المبادئ والتشريعات). المثقف العربي بين العصرانية والإسلامية – أ.د. عبدالرحمن الزنيدي.

(٤) صن تسو، كتاب: (فن الحرب).

لماذا تراجع دور الإسلاميين في قيادة الحَراك الفكري؟

يعاني الإسلاميون عقدتين، هما: التنظيم والرمز. فهم بين من ينتظر التوجيه، ومَن يبحث عن لواءٍ مرفوع ليمشي خلفه. ذلك في الوقت الذي تعيش فيه التنظيمات الإسلامية ضَعْفاً في قدرتها على توجيه دفة الجماهير، ومواكبة الواقع، وتقليديةً في إدارة الصراعات. أما الرمز فتفتَّتَ إلى رموزٍ شتى؛ فمنهم من ألهاه التكاثر، ومنهم من أصيب بأمراض النخب، ومنهم من لم يطق مواكبة العصر بأدواته ووسائله. وبقيةٌ صالحة يجاهدون العصرانيين بأسلحتهم ويقارعونهم بأدواتهم، مرابطون وإن تكاثرت عليهم الضباع.

وللخروج من هذا المأزق سأحاول في الأسطر التالية تقديم خريطة طريق لقيادة الحَراك الفكري في المجتمع تتجاوز المعضلتين السابقتين، يشارك فيها التنظيم بمؤسساته إن أراد اللحاق بالقافلة، ونعيد بها للرمز دورَه الرسالي وواجبه الاجتماعي، راجياً من الله التوفيق والسداد.

قادة الحَراك الثقافي:

إن انتظارنا لمن ينظم صفوفنا لمقاومة التيار التغريبي هو كانتظار الشيعة للمهدي المزعوم، وانتظار العرب سنين مضت لمن يخلصهم من الطغاة الذين ضيقوا عليهم في دينهم وحرياتهم وأرزاقهم. أما وقد تخلصوا من ظلم الطغاة دون الحاجة الماسة إلى جماعةٍ أو رمز؛ فهم - بإذن الله - قادرون على أن ينفكوا من ربقة أسياد هؤلاء الطغاة إذا قام كل فردٍ بدوره. ويمكننا تصنيف الإسلاميين - حسب أدوارهم - إلى الأقسام التالية:

المتخصصون: وهم الذين تخصصوا في متابعة ورصد ملفات وقضايا تهمُّ الأمة، من خلال مؤسساتٍ كـ (مراكز البحوث والدراسات)، أو كانوا أفراداً اعتنوا بهذه القضايا بحكم العمل أو التخصص أو الاهتمام.

كبار الدعاة: وهم العلماء والمفكرون الذين يستطيعون إرسال صوتهم إلى آلاف الناس من خلال القنوات الإعلامية والشبكات الاجتماعية في العالم الافتراضي.

الإعلاميون: وهم الذين يمتلكون قنوات إعلامية - رسمية أو غير رسمية - مرئية أو مسموعة أو مقروءة، مثل كُتَّاب الأعمدة في الصحف اليومية، ومحرري الصحف الإلكترونية، والمذيعين والمخرجين والمنتجين.

عامة الدعاة: وهم العلماء والدعاة والمفكرون الذين يتابعهم مئات من الناس ويتأثرون بهم.

المربون: هم المتخصصون في الأنشطة الطلابية؛ خاصةً النشاط الجامعي.

المؤثرون: هم عامة الناس الذين يملكون التأثير على من حولهم في البيت أو المسجد أو العمل.

التقنيون: وهم المتخصصون والمهتمون بالتقنية كالمبرمجين ومصممي المواقع الإلكترونية.

هدف الحَراك الثقافي:

نهضة الأمة تبدأ بوعيها، والمجتمع الواعي عصيٌّ على الاستعباد بعيد عن الاستغفال، ومهما حاول الطاغية والمستعمر تغيير الواقع وتعديل سلوكيات الناس بقوة السلطان فلن يصنع شيئاً ذا بال إذا لم يغير قيم الناس ومعتقداتهم؛ فالرهان بيننا وبين العصرانيين هو في تحقيق انتماء الجماهير لرسالتنا وقيمنا، وقدرتنا على التأثير فيهم. وكنتُ في مقالٍ سابق[1] قد قسمت علاقة الجماهير بالإسلاميين إلى أربع مراتب:

- الانتماء: تبنِّي أفكارنا والدفاع عن مؤسساتنا ورموزنا.
- الاستفادة: التأثر بأفكارنا وأطروحاتنا واتجاهاتنا الفكرية.
- المحبة: التعاطف مع قضايانا دون تبني أفكارنا.
- الانفصال: البعد عنَّا عاطفياً وعملياً.

ويبقى السؤال المهم: هل الجماهير معنا فكراً وقيماً؟ وهل تشاركنا ترتيب الأولويات؟

ما نريد تحقيقه في الفترة القادمة هو أن تظل الجماهير دائرة بين الانتماء لنا والاستفادة منا. وهذا لا يتأتى إلا إذا بذلنا الجهد في مدافعة الباطل وجاهدنا العصرانيين بالقرآن جهاداً كبيراً، واستثمرنا كل الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الهدف.

والحق أن الآونة الأخيرة شهدت صحوةً دعوية، ومبادرات متميزة؛ إلا أننا نطمح - إن أردنا التغيير - إلى نهضة شاملة ومشاريع متكاملة ومتكاتفة، يتبناها (قوم) الدعاة لا أفرادهم فحسب، مستحضرين قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

(١) مقال (هل ستغفوا الصحوة؟)، نشر في مجلة البيان.

معالم الحَراك الثقافي:

١ صافرة البدء:

لا تنتظر صافرة البدء، فقد بدأ الحَراك الثقافي منذ مدة، والمبادرات موجودة ولله الحمد. المهم أن تقرر المشاركة من هذه اللحظة.

٢ الإيجابية:

إيمان كلٍّ واحد منا بواجبه تجاه مجتمعه، وأهمية دوره مهما كانت مكانته وعمره ومنزلته يجعله رقماً صعباً «إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة»[١]، مبلغاً عن رسول الله ﷺ ولو آية، داعياً إلى سنة، محذراً من بدعة، منكِراً لمنكَرٍ رآه أو عَلِمَ به، ناقلاً لفتوى عالم رباني، محذراً من دعوة منافق، فاضحاً لمخططٍّ تغريبي، مقترحاً لمشروعٍ دعوي، واعظاً لقلبٍ غافل، مذكراً بحاجة فقير... وهكذا «لاتحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٢].

٣ المبادرة:

المبادرة ركن ركين للقيادة؛ فما فائدة الملفات والدراسات إذا وردتنا من (المتخصصين) في وقت متأخر أو حَرِج؟ وما قيمة (كبار الدعاة) و (الإعلاميين) إذا تكلموا في موضوع قد أشبعه الناس طرحاً ولاكته الألسن على اختلاف مشاربها؟ وما فائدة (التقنيين) إذا زودونا بفكرة مشروع بعد فوات الأوان؟ وما قيمة (المؤثرين) و (المربين) و (عامة الدعاة) – وهم الشريحة الأكبر – إذا أقعدهم الخوف أو الضرب في الأسواق فلم يشاركوا المجتمع همومه، ولم يسهموا في حل مشكلاته، ولم يبثوا فيه فكرهم ورؤاهم؟

في وقت مضى كان للدعاة والعلماء فسحة في دراسة وتأمل الأحداث، فإذا نزلت نازلة أتموا أعمالهم التي في أيديهم! ثم تشاوروا ودرسوا وتأملوا ثم أصدروا فتوى أو بياناً يُسكِتُ قولَ كلَّ خطيب. لكن الحال الآن تغير؛ فالدنيا تشتعل في ساعة من نهار، والساحة الثقافية تضطرم في يوم، والأحداث تتسارع. ودعاتنا في سبات عميق، يتجنبون الحديث في مستجد الأحداث التي تتجاوز سرعتُها قدرتَهم على اتخاذ قرارٍ أو إبداء رأيٍ حوله. وعذرهم أنه لم يتبين لهم رأي أو موقف؛ فما فائدة القائد إذا لم يبادر؟ وما معنى قيادةُ العالِم للعالَم إذا لم يوجِّه الرأيَ العام حين تدلهِمُّ الخطوب وتختلف الآراء؟ فلا بد من الاجتهاد والتشاور بسرعة تناسب سرعة هذا العصر. وهو ما سنتحدث عنه في المعالم الآتية.

٤ الاتصال القوي:

الحملات الإعلامية تحتاج إلى مادة (أرقام وشواهد وأدلة) لإقناع الجمهور، وإلى تركيز لإيصال الرسالة المقصودة بوضوح وبعمق. وهذا لا يتأتَّى إلا بالتواصل القوي بين المتخصصين من جهة وبين كبار الدعاة والإعلاميين من جهة أخرى، ثم بين كبار الدعاة والإعلاميين أنفسهم. ولا يتحقق ذلك إلا إذا تواضع الرمز والعالم والداعية والإعلامي والمتخصص، وفتحوا الباب على مصراعيه للتواصل مع الآخرين، ووفروا من وقتهم جزءاً كبيراً ليسمعوا من المتخصصين الذين ينبغي عليهم هم أيضاً ألا يألوا جهداً لتبصير الدعاة والأعلام وأهل الإعلام. ومن الأهمية بمكان فَتْحُ قنوات تواصل قوية وسريعة بين العلماء والرموز، وأن يتواضعوا لبعضهم بعضاً ويتشاوروا بشكل دوري وسريع عند كل نازلة، ويحاولوا بناء موقف موحَّد أو متقارِب تجاه التطورات.

٥ التركيز:

شرط الرسالة الإعلامية المؤثرة أن تكون مركزة ومتكررة بأشكال مختلفة، وهذا يتطلب استعداداً مبكراً وتنسيقاً كبيراً بين المتخصصين وبين كبار الدعاة والإعلاميين لتوحيد الجهود وتنظيم أوقات الطرح. والتنسيق يحتاج إلى مبادرة وقوة في التواصل وقبول من جميع الأطراف، ويمكن أن يقوم به فرد واحد، أو جهة إعلامية واحدة. كما أن على الجميع أن يتواضعوا وليلينوا لمن يتولى هذه المهمة العسيرة.

٦ استثمار التقنية:

لكل عصر وسائله وأدواته، وواجبنا استثمار ما نستطيع للتأثير في الآخرين. وهنا تتضح أهمية التواصل بين التقنيين والدعاة والإعلاميين، لفهم وسائل التأثير

(١) جزء من حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري. ح (٢٧٣٠).
(٢) رواه الإمام مسلم من حديث أبي ذر. ح (٦٨٥٧).

وكيفية استثمارها دعوياً. وهنا وقفة عتاب أخرى لدعاتنا ومشايخنا الذين ضاقوا ذرعاً بتسارع التقنية وقنوات الاتصال والتأثير حتى أيسنا من لحاقهم بها. بُحَّت أصوات التقنيين في زمن مضى تطالبهم بدخول عالم الإنترنت، فلما دلفوه وأسسوا مواقعهم الإلكترونية كانت فلسفة متصفحي الإنترنت قد انتقلت إلى الشبكات الاجتماعية[1]. وبعد عناء دخل عدد من المؤثرين عالم (الفيسبوك) و (التويتر)، وكان لهم بفضل الله صولات وجولات. وها هي شركة غوغل تحاول طرح مفهوم جديد للشبكات الاجتماعية من خلال منتجاتها التي جمعتها في (Google Plus)؛ إلا أن حضور دعاتنا في هذا المجتمع ما زال محدوداً وضعيفاً. وكثير من الدعاة لا يعلم أنه بامتلاكه بريداً إلكترونياً مجانياً في غوغل (Gmail) يكون قد امتلك قناة يوتيوب خاصة به، إضافة إلى مدونات ومواقع شخصية ومحرر مستندات وأدوات مشاركة اجتماعية كثيرة وخدمات أخرى تخدم الدعوة ليس هذا مجال الحديث عنها[2]، والحق أن عدداً من دعاتنا لهم قدم السبق في استثمار التقنية، من أبرزهم الشيخ محمد المنجد وفقه الله وسدد خطاه.

ولعلِّي أشير باختصار إلى أهم قنوات الاتصال التي يمكن أن نركز عليها مستقبلاً[3]:

تويتر: يتميز تويتر Twitter بالانتشار الشعبي الكبير، وبمناسبته لروح العصر (الوجبات السريعة)، وهو ما جعله الساحة الفكرية والثقافية الأولى[4].

يوتيوب: يزور موقع اليوتيوب YouTube يومياً أكثر من مليار زائر، وقنوات اليوتيوب أضحت تنافس القنوات الفضائية، خاصةً تلك التي تُخرَج باحترافية إعلامية، وليس بعيداً عن أذهاننا النجاح الذي حققته قناة ٩٠٥ الإسلامية؛ حيث وصلت للمرتبة ١١ في عدد الزيارات على مستوى العالم، بواقع ٨ ملايين عملية تحميل لمقاطعها، وهو ما أثار حفيظة العصرانيين ونشرت (العربية) تقريراً ناقداً للقناة ومحذراً من خطرها! فهل نعجز عن إنشاء قنوات تحمل أرقاما أخرى؟ وهل من الصعب على الداعية أن يشغِّل كاميرا جهازه المحمول ويتكلم لمدة دقيقتين عن موضوع ما، ثم يرفعها على موقع اليوتيوب؟ وهل من العسير تجزيء المحاضرات إلى مقاطع فيديو قصيرة (لا تتجاوز دقيقتين) يحوي المقطع فكرة أو قصة مع وضع شارة قصيرة جداً للبدء والختام؟ إن ما نعاني منه الآن هو انتشار مقاطع فيديو لشباب أغرار يتكلمون في أمر العامة ويوجهونهم، وهذه نتيجة طبيعية لتقهقر الدعاة وعجزهم.

القنوات الفضائية: نمتلك بفضل الله عدداً من القنوات الإسلامية، وربما لا نحتاج إلى مزيد؛ إن ما نريده فقط هو استثمار القنوات الموجودة لصناعة الرأي العام؛ نريد جرأة في الطرح، واحترافية في الإخراج، واحتراماً لعقلية المشاهد، ومنافسة جادة للقنوات الأخرى. لقد آن الأوان لتوقف القنوات الضعيفة أو اندماجها بأخرى قوية. ونحن الآن أحوج إلى مؤسسات الإنتاج – التي تغذي هذه القنوات وتوجِّهها – منَّا إلى قنوات جديدة.

ختاماً:

أعتقد أننا – بإذن الله – إذا توفرت لدينا جميعاً النية الصادقة، والإيجابية، والمبادرة، والاتصال القوي، وركزنا ووحدنا جهودنا من خلال وسائل الاتصال والإعلام الحديثة، فسننجح – بتوفيق الله – في صناعة الرأي العام وتوجيه الجماهير وقيادة الحَراك الثقافي بكفاءة وتفوق. وحينها نجابه الغزو الفكري بسلاح بتار، وعزم صادق، وبنيان مرصوص: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾.

[**الصف**: ٤]

---

(١) الشبكات الاجتماعية في العالم الافتراضي تتمحور حول فكرتين رئيستين: الأولى "أبحث عن الأشخاص لا الأفكار" والثانية "آتيك بدلا من تأتي إلي". وهي أشبه بالنادي الاجتماعي الافتراضي الذي يلتقي فيه الناس في مجالس متجاورة، ويكون مجلس مجموعة الأصدقاء بلا موضوع أو فكرة واحدة وإنما يأتي أحدهم بطرفة ويتبعها آخر بفائدة وذاك يريهم صورة وآخر فيديو. وهكذا، ثم ينفضون إلى مجموعات ومجالس أخرى يتبادلون الآراء والأفكار التي تلقفوها على هيئات مقروءة ومسموعة ومرئية. يقومون بتلك الأدوار وهم في بيوتهم – حقيقة – أو في أماكن عملهم أو أسواقهم.

(٢) من أمثلة تلك الخدمات (مشاركة المستندات) فلو أراد كبار الدعاة إخراج بيان مشترك، فسيقوم أحدهم بكتابة البيان المقترح وإتاحة مشاركته مع الدعاة الآخرين الذين سيسهمون في تحرير البيان في نفس الوقت. وهكذا سيخرج بيان مشترك في يوم واحد بدلا من أسابيع. كما أن بإمكان المتخصصين أو غيرهم فتح دائرة خاصة بهم في "قوقل بلص" تحقق لهم التواصل السريع والخاص.

(٣) ربما تتغير هذه الرؤية سريعا! وذلك بمجرد ظهور تطورات ومعطيات تقنية جديدة.

(٤) (يحوي تويتر أكثر من مائتي مليون مستخدم نصفهم تقريبا انضموا عام ٢٠١١م!)

من أئمة الإصلاح

العلاَّمة المحقق مُحب الدين الخَطِيب (١٣٠٥ - ١٣٨٩هـ)

محمد توفيق زين العابدين(*)
w_afik@hotmail.com

الحمد لله الـذي رفع لنا في كل ثغر عَلَمـاً، وأجرى لنا فـي جوار كل بحر ما يضاهيه كرماً، وجعل في هذه الأمة من المسـلمين إلى اليوم من يزيدُ الناسَ علماً ويمحو من الظلمات ظُلَماً، أما بعد:

ما أشـبه اليوم بالبارحة! إن الظروف التي يعيشـها الوطن العربـي اليوم من ثـورات بُغيَة إصلاح ما أفسـدته الحكومات لَتُذكِّرنـا بالعقود الأُولَى من القرن الماضـي، لَـمَّا مضى الحكام والوزراء إلى ما مضوا إليه من الفساد والاستبداد والانعزال عن الناس، وكشف العَلمانيون عن وجههم القبيح فجردوا أقلامهم في الصحف والمجلات لمحاربة الشـريعة، وصار الإسلام إلى غربة. فبـرز في هذه الأثناء رجال هم من خيـرة رجال هذه الأمة، لم يتوانوا عن مساندة الحق والانتصار للشريعة، وكان الشيخ محب الديـن الخطيب - رحمه الله - من أبرز رجال هذه الحقبة؛ فقد تنقَّل من بلد إلى بلد يَنشُـد الإصلاح، ولم يكفَّ قلمَه عن كشف فساد الحكومات، ومؤامرات العَلمانيين، وضلال المنحرفين، ولم يتناه إلى سـمعه نهوض مشروع عربي إسـلامي بحقٍّ إلا وبادر بمساندته والدعوة إليه.

إنه الشيخ المحقق والكاتب الإسلامي الكبير أبو قُصي محـب الـدين بن أبي الفتح محمد بن عبد القادر بن صالح بن عبد الرحيم بـن محمد الْخَطِيب، ولد في حي (القيمرية) بدمشق سَلْخ شـوال سـنة ١٣٠٥هـ (١٨٨٦م) لأسرة عريقة أصيلة النسـب تتصل بعبد القادر الجيلاني رحمه الله، وقيل: إن أصولها تعود إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

وأمه هي آسيا بنت محمد الجلاد رحمها الله، كانت تقية فاضلة، توفيت وهي راجعة من فريضة الحج بين مكة والمدينة بريح السـموم، ودفنت هناك بالفـلاة، وكان الخطيب صغيراً آنذاك، فشـمله أبوه وجده برعايتهما وكانـا عالمين جَليلَين، وعنهما أخذ علومه الأُولَى.

التحق الخطيب وهو ابن سـبع سـنين بمدرسـة (الترقي النموذجية) قرب المكتبة الظاهرية بدمشـق، وكان أبوه أمين هذه المكتبة، فحصل في محرم سـنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) على شـهادة إتمام المرحلـة الابتدائية بتقدير جيد جداً، ثم التحق بمدرسـة (مكتب عنبر)، وبعد سنة توفي والده فأخرجه أقاربه من المدرسة.

لازَمَ دروس العلمـاء حتى التقى بالشـيخ العلاَّمة طاهر الجزائـري - رحمه الله - وكانت له صداقـة بأبيه، فاحتواه وأدَّبه وعلَّمه وبثَّ فيه حبَّ الدعوة الإسـلامية. يقول الخطيب عن ذلك: (مِنْ هذا الشـيخ الحكيم عرفت عروبتي وإسلامي، منه عرفـت أن المعدن الصدِئ الآن الـذي بَـرَأ الله منـه في الدهر الأول أصول العروبة، ثم تخيرها ظئراً للإسـلام؛ إنما هـو معدن كريم لم يَبْرَأ الله أمة في الأرض تُدانيه في أصالته وسلامته وصلابته وعظيم استعداده للحق).

وكان مِن تأديب وتعليم الشـيخ طاهـر للخطيب أنه كان ينتقي له بعض مخطوطات شـيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه اللـه - وأضرابه، فيكلفه بنسـخها ليزيد فـي علمه، وينمِّي مداركَه، ويشـغل وقته، وينتفع بأجر النسخ، ثم إنه وجَّهه مرةً أخرى إلـى الالتحاق بمكتب عنبر، وأرشـده إلى التردد على مدرسـة (عبد الله باشـا العظم)؛ حيث كانت للشيوخ: أحمد النويلاتي، جمال الدين القاسـمي، محمد علي مسلم، طاهر الجزائري - رحمهم الله - غرف بتلك المدرسـة، وبالفعل كان يتردد عليهم، فقرأ على الشيخ أحمد النويلاتي - رحمه الله - شـرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وحفظ بتلقينه مقامات

(*) قاضي بمحكمة بنها الأبتدائية - مصر.

مِن كتاب أطواق الذهب للزمخشري، وقد تعلم منه الزهد والانشغال بالعلم عن الناس.

وكان الخطيب في هذه الفترة يكتب بعض المقالات العلمية والقطع الأدبية؛ يُعرِّبها عن اللغة التركية ويرسل بما يترجمه وما يكتبه إلى مجلة (ثمرات الفنون) في بيروت، ولما كان في السنة السادسة بمكتب عنبر، وَشَى به أحد المدرسين إذ شاهد معه كتباً لا تتفق وأفكاره، فآحال الأمر إلى إدارة المدرسة التي اضطهدته! وهو ما اضطره للرحيل إلى بيروت لاستكمال دراسته وقد انتقل معه عدد من الطلاب؛ إذ كان للخطيب نشاطه الأدبي الذي استمر يبذله في بيروت حتى أتم دراسته في جمادى الأُولَى سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م).

عَقِب إتمام الخطيب دراسته سافر إلى إستانبول والتحق هناك بكليَتَي (الحقوق والآداب) ونزل في حي (جنبرلي طاش)، وهناك التقى بمجموعة من الطلاب العرب الذين كانوا يدرسون في إستانبول ورأى منهم جهلاً بقواعد اللغة العربية فضلاً عن آدابها وثقافتها، وتلاحظ له انهيار شخصياتهم، وذوبانهم في غيرهم وتزلُّفهم إلى غير العربية، فاتفق مع صديقه الأمير عارف الشهابي أن يعلِّما هؤلاء الشباب، ثم أسس من أجل ذلك جمعية (النهضة العربية) سنة ١٣٢٤هـ لتعليم الطلاب العربيةَ وآدابَها وثقافتَها، وتذكيرِهم بأصالتهم وبدورهم القيادي. وكان يحضر الصحف العربية إلى هؤلاء الطلاب عن طريق صديقه الأستاذ محمد كرد علي الذي كان يرسلها له بالبريد، واشتد نشاطه وأخذ يعقد الاجتماعات ويلقي الخُطَب والمحاضرات، حتى شعرت به السلطات التركية ففتشت مسكَنه ووجَّهت إليه التحذيرات، فاضطر إلى تقليص نشاطه والاكتفاء بالدراسة بكلية الحقوق والانقطاع عن الدراسة بكلية الآداب لعدم قدرته الجمعَ بينهما مع نشاطه في الجمعية.

وبعد أن أتمَّ السنة الثالثة في الكلية رجع إلى دمشق لتأسيس فرعٍ لجمعية النهضة العربية بها، وكان ذلك في صيف عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) وفي هذه الأثناء أرسل له صديقه الشهابي رسالة يطلب منه عدم المجيء إلى إستانبول لما يلاقيه أعضاء الجمعية من اضطهاد السلطات التركية هناك، فاضطر للبقاء في دمشق حتى طلبت القنصلية البريطانية في (الحديدة) باليمن إلى القنصلية في دمشق أن تختار لها شاباً يتقن العربية والتركية، وأن يكون له إلمام بالقوانين العثمانية وشؤون القضاء لحضور جلسات المحاكم عندما تكون لأحد رعايا القنصلية قضيةٌ بها؛ لمتابعة سيرها. فوقع الاختيار على الخطيب، الذي أعد عدَّته للسفر إلى اليمن، ثم إنه رأى أن يمر وهو في طريقه إلى اليمن بمصر ليلتقي بشيخه الشيخ طاهر الجزائري وصديقه محمد كرد علي رحمهما الله، وهناك التقى بأركان جمعية (الشورى العثمانية) وكان منهم: عبد الله جودت (الأديب التركي) ورفيق العظم والأستاذ رشيد رضا وآخرون، وذكروا له أمر جمعيتهم وأنهم يرغبون في توسيع نشاطها داخل البلاد العربية، وكتبوا له تفويضاً في أن يتخير للجمعية باليمن الرجال الصالحين، وبالفعل ما لبث أن استقرت إقامته باليمن حتى أنشأ فرعاً لجمعية الشورى العثمانية بها، واختار لرئاستها قائد الحديدة البكباشي شوقي المؤيد العظم، كما اختار لعضويتها جمعاً من الضباط، ومع ذلك واصَل كتاباته إلى دمشق وإستانبول والقاهرة متعهداً جمعية النهضة العربية.

وأثناء إقامته في اليمن لاحظ أن إحدى المدارس الأميرية يديرها رجل شبه عامي، فدعا أعضاء الجمعية للتدريس بهذه المدرسة تطوعاً، وطلب من التجار التبرُّع بأحذية وبأقمشة لصنع ملابس موحدة للطلاب، وانتظم الطلاب في الدراسة وكثر عددهم حتى صاروا نحو ثلاثمائة تلميذ.

وسعى في الحديدة إلى إصدار صحيفة وتأسيس مطبعة، فأسس شركة مساهمة قيمة كلِّ سهم جنيهٌ إسترليني ذهبي لإصدار صحيفة باسم (جريدة العرب)، وإنشاء مطبعة باسم (مطبعة جزيرة العرب)، وقبل إتمام العمل تلقَّى رسائل من دمشق تلحُّ عليه بضرورة العودة.

ولما أعلن الدستور العثماني عاد إلى دمشق في محرم سنة ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، ولكن لم يَطِب له المقام فيها لما تعرَّض له من مضايقات من السلطات؛ حيث أرادوا إجبار أعضاء الجمعية بأن يجعلوا اسمها جمعية (النهضة السورية)، ثم إنه شارك عمال صحيفة (القبس) في تحرير عدد هزلي انتقادي لبعض تصرفات الحكومة ورجالها سماه (طار الخرج) فانتشر أيما انتشار ونفدت طبعاته، فتبعت السلطات محرريه، ففر الخطيب إلى بيروت فلاحقته السلطات هناك، ففر إلى إستانبول عازماً على استكمال دراسته ونزل بها في قرية (بيكوز) هو وبعض أصدقائه حتى صيف (١٩٠٩م)، حيث علمت به السلطات وطاردته وأصدرت قِبَله حكماً غيابياً بالإعدام.

خرج الخطيب من إستانبول قاصداً القاهرة في رجب سنة ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، وشارك في تحرير صحيفة (المؤيد) مع الشيخ علي يوسف – رحمه الله – الذي كان موضع ثقته، وزادت ثقة الشيخ به مع مرور الوقت فصار الخطيب هو الذي يتخير نشر ما يناسب.

موقفه من جمعيتي (الاتحاد والترقي، والعربية الفتاة):

لما تأسس في القاهرة حزب (اللامركزية العثماني) سنة ١٣٣١هـ (١٩١٣م) برئاسة رفيق العظم، انضم الخطيب له، وعندما تأسس في بيروت ثم في باريس جمعية (العربية الفتاة) كان الخطيب يمثلها بمصر وينفِّذ قراراتها التي لها علاقة بحزب اللامركزية، وفي وقت معاصر كانت جمعية الشورى العثمانية التي كان يمثلها الخطيب في اليمن قد تحولت إلى جمعية (الاتحاد والترقي).

وحقيقةً فقد انخدع الخطيب في البداية - كغيره من أعلام هذه الحقبة - بشعارات هذه المؤسسات ودعواتهم الإصلاحية كما صرح بذلك في أكثر من موضع، وقد تكشَّف له وللأستاذ رشيد رضا - رحمهما الله - أهداف هذه المؤسسات بعدما خلعت جمعية الاتحاد والترقي السلطان عبد الحميد رحمه الله، وأخذ الأستاذ رشيد رضا يهاجم زعماءها ويكشف أهدافهم، وفي ذلك يقول الخطيب في مقال (السيد رشيد رضا) المنشور بصحيفة الفتح: (إني أُقِر بكل صدق بأني وجميع من استعنت بهم وتعاونت معهم من رجالات العرب وشبابهم لم يخطر على بالنا الانفصال عن الدولة العثمانية؛ لا لأن الاستقلال عن دولة ضعيفة مريضة أمر مكروه، ولكن لعلمنا أن تمرُّن الشعوب على أخلاق السيادة يحتاج إلى وقت، فكان من مصلحة العرب في الدولة العثمانية أن تعترف لهم الدولة بلغتهم في الإدارة والتعليم في البلاد التي يتكلم أهلها العربية، وألا تبلغ فيها الحماقة إلى حد أن يكون التعليم في بلادهم بلغة أجنبية عنهم، وإلى حد أن تكون لغتها محرَّماً عليها أن تكون لغة الإدارة والقضاء في صميم الوطن العربي)، ويقول أيضاً: (وكان رجال جمعية الاتحاد والترقي يريدون إسلاماً يخدمهم وتنطبع عليه ألوانهم، لا إسلاماً يخدمونه وتنطبع عليهم ألوانه).

ولعل هذا ما حدا بالأستاذ رشيد رضا أن يؤسس مدرسة (الدعوة والإرشاد)، واختياره الخطيب ليشاركه في التدريس بها، كما حدا بالأخير إلى عدم المشاركة في أيٍّ من أعمال جمعية الاتحاد والترقي وجمعية العربية الفتاة وحزب اللامركزية العثماني، وذلك بعد عودته إلى القاهرة كما صرح بذلك الدكتور محمد عبد الرحمن برج في كتابه (محب الدين الخطيب ودوره في الحركة العربية) قائلاً: (ولا يُعْلَم للخطيب أي دور بعد عودته للقاهرة)، يقصد في أعمال هذه المؤسسات، بل سعى الخطيب إلى تأسيس (المكتبة السلفية ومطبعتها) وجمعية (الشبان المسلمين) التي كانت تُعنَى بنشر مبادئ الإسلام ومحاربة الإلحاد.

وفي أوائل الحرب العالمية الأولى انتدبته إحدى الجمعيات العربية السرية للاتصال بأمراء وزعماء العرب ليتخذوا موقفاً ملائماً مشتركاً يعود على البلاد بالخير، فسافر إلى عدن ثم إلى بومباي ثم إلى الكويت فالعراق فاعتقلته السلطات الإنكليزية في (البصرة) تسعة أشهر ثم أطلقوا سراحه، فعاد إلى مصر دون إتمام مهمته.

تأسيسه المطبعة الأميرية وصحيفة القبلة وصحيفة الارتقاء:

حينما قامت الثورة العربية الكبرى في الجزيرة العربية وفي بلاد الشام سنة (١٩١٦م) التحق بها الخطيب آملاً في أن يجد ضالته التي ينشدها وهي الخلافة العربية الإسلامية الراشدة، فشرع في تأسيس (المطبعة الأميرية)، وأشرف على تحرير صحيفة (القبلة) التي كان يصدرها الشريف حسين بن علي في مكة المكرمة ابتداءً من شوال سنة ١٣٣٤هـ (١٩١٦م)، وكانت صحيفة دينية سياسية واجتماعية وإخبارية تصدر مرتين في الأسبوع، كما أصدر صحيفة (الارتقاء) في شوال سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٧م) وكانت صحيفة أدبية وتاريخية أسبوعية.

ولم يلبث أن أوقف نشاطه في الجريدتين المذكورتين في شعبان سنة ١٣٣٧هـ (مايو ١٩١٩م)، بعدما تبيَّنت حقيقة الشريف حسين وأنه لم يكن يريد ثورة إصلاحية إسلامية، فتخلى عنه؛ إذ لم يكن راضياً عن عمله بصحيفة القبلة، وكان يقول: (إن الشريف حسين وأولاده يريدون الأوطان مزارع للملوك).

إشرافه على صحيفة العاصمة وموقفه من صحيفة الأهرام:

عاد الخطيب إلى دمشق سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) بعدما انجلى عنها العثمانيون، وتولى إدارة صحيفة (العاصمة)، إلى أن دخلت القوات الفرنسية دمشق سنة (١٩٢٠م)، فاضطر الخطيب إلى مغادرتها متخفياً في زي تاجر جمال عربي، حتى وصل إلى القاهرة بجواز سفر مزور حصل عليه من (يافا) في طريقه إلى مصر، ورأى أن يستقر في مصر ويجعل منها منطلَقاً لدعوته وميداناً لجهاده، وفي هذا الوقت كانت معالم شخصية الخطيب – رحمه الله – قد ارتسمت وتحددت مبادئ دعوته، وبرزت آراؤه وأفكاره بشكل واضح، فشرع يدعو لها بعزيمة لا تعرف الكلل، وبهمة لا يثبطها الملل إلى أن وافاه الأجل.

عمل الخطيب عند قدومه إلى مصر محرراً في صحيفة (الأهرام)، وذلك مدة خمس سنين وحتى سنة ١٣٤٤هـ (أواخر عام ١٩٢٥م)، وكان ذلك قبل أن تتكشف له حقيقة تلك الصحيفة وغاياتها المنحرفة ومقاصدها المدخولة، وأنها شر وسيط بين المسلمين والغرب. فلما تكشَّف له ذلك ما برح مهاجمتها، وتقويض مقالاتها، والرد على كُتَّابها؛ مبرراً ذلك في مقال (الأهرام شرٌّ وسيط بين الإسلام وفرنسا) المنشور بصحيفة الفتح بعبارةٍ جزلةٍ بليغة: (لأني رجل عرفتُ ديني قبل أن أعرف جريدة الأهرام ومَن فيها، فلا أخذل صديقي القديم لأحظى برضا غيره).

تأسيسه المكتبة السلفية ومطبعتها ومجلة الزهراء وصحيفة الفتح:

أسس الخطيب (المكتبة السلفية ومطبعتها) بأموال تحصَّل عليها من بيعه منزلاً له بدمشق، فجعلها كبرى وسائله في تحقيق أهدافه؛ إذ جعل ينشر فيها من كنوز التراث الإسلامي عشرات الكتب، ويطبع فيها رسائل من تأليفه وتأليف كبار العلماء والمفكرين من إخوانه، ثم أصدر من خلال مطبعته مجلة (الزهراء) في محرم سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م)؛ وكانت مجلة دينية أدبية واجتماعية تصدر مرتين في الشهر ودامت خمس سنين.

وفي ذي الحجة من عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م) أصدر صحيفة (الفتح) الأسبوعية الشهيرة، وكانت من أقوى الصحف الإسلامية التي ظهرت في العالم العربي، وكانت تُعنَى بالتاريخ والأحداث السياسية والاجتماعية، واستمرت صحيفة الفتح تصدر أكثر من عشرين عاماً في مرحلة من أصعب المراحل التي مرت بها الأمة الإسلامية في تاريخها الحديث، وقد استقطبت هذه الصحيفة أشهر كُتاب العالم الإسلامي آنذاك، وتصدت للدفاع عن حقائق الإسلام وحقوق المسلمين. وقد بيَّن – رحمه الله – سبب إصداره تلك الصحيفة في إحدى افتتاحياتها فقال: (إن الفتح أُنشئت لمناشاة الحركة الإسلامية وتسجيل أطوارها، ولسد الحاجة إلى حادٍ يترنم بحقائق الإسلام مستهدفاً تثقيف النشء الإسلامي وصبغه بصبغة إسلامية أصيلة يظهر أثرها في عقائد الشباب وأخلاقهم وتصرفاتهم وحماية الميراث التاريخي الذي وصلت أمانته إلى هذا الجيل من الأجيال الإسلامية التي تقدمته)، ثم اضطر الخطيب إلى إيقاف إصدار الصحيفة في أواخر سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م)، يقول: (أوقفتها حينما أصبح حامل المصحف في هذا البلد مجرماً يفتَّش ويعاقَب).

تأسيسه جمعية الشبان المسلمين، ودوره في النهوض بالأزهر الشريف:

لم يتوقف الشيخ – رحمه الله – ولم يبرح دعوته؛ وإنما استمر في طريقه الذي اختطه لنفسه؛ فإلى

جانب إصدار الكتب والرسائل العلمية، وتحقيق كتب التراث والتعليق عليها، والإشراف على ما يطبع في مطبعته الكبيرة: أسس (جمعية الشبان المسلمين) بالتعاون مع عدد كبير من علماء مصر وأدبائها وعلى رأسهم المحقق الأديب أحمد تيمور، والشيخ الجليل محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر الأسبق) وغيرهما رحمهم الله، وفي ذلك يقول: (كنت أنا وأحمد تيمور باشا والسيد محمد الخضر حسين حريصين على أن تكون هذه المؤسسة الأُولَى للإسلام في مصر قائمة على تقوى من الله وإخلاص، وكنا حريصين على أن يتولى إدارتها رجال يعرفون كيف يصمدون لتيار الإلحاد الجارف بعد أن استولى المتابعون للاستعمار على أدوات الثقافة والنشر في العالم الإسلامي وفي مصر على الخصوص)، ويقول أيضاً: (وكانت الجمعية حدثاً كبيراً من أحداث الحركة الإسلامية؛ لأن دعاة الإلحاد والتحلل كان قد استفحل أمرهم وظنوا أن قيادة الأمة قد أفلتت من أيدي ممثلي الإسلام وانتظمت إلى أيديهم)، ونهضت الجمعية بنشر مبادئ الإسلام ومحاربة الإلحاد، ولم تزل هذه الجمعية بفروعها المختلفة تؤدي قليلاً من وظيفتها.

ومع تأسيس الشيخ الجمعية المشار إليها، تولى رئاسة تحرير مجلة (الأزهر) التي كانت تصدر عن مشيخة الأزهر، وكانت مجلة دينية وأدبية شهرية، وظل في منصبه هذا طيلة ست سنوات في ما بين عامي (١٩٥٢ - ١٩٥٨م)، وعلى أثر سوء تفاهم مع القائمين على الأزهر استقال من رئاسة تحرير مجلة الأزهر.

اعتزاله الناس ووفاته:

انزوى الشيخ الكبير - رحمه الله - في آخر حياته في مكتبته وقطع صلته بالناس وانكب على التأليف والتحقيق، وكانت نزهته يوم الجمعة بعد صلاة العصر؛ حيث يذهب إلى سوق الكتب المقام على سور حديقة (الأزبكية) في القاهرة ويشتري الكتب المختلفة ثم يحملها بيديه وقد جاوز الثمانين فيتمايل في مشيته ويتعثر حتى يجد سيارة تُقلُّه إلى بيته وقد ثابر على هذه العادة الكريمة إلى ما قبيل وفاته في الثاني والعشرين من شوال سنة ١٣٨٩هـ (الثلاثين من ديسمبر ١٩٦٩م) في القاهرة.

خزانة كتبه ومصنفاته:

كانت لدى الخطيب - رحمه الله - خزانة كتب كبيرة، تواترت الأخبار أنها كانت تضم نحو عشرين ألف مجلد[1] ما بين مخطوط ومطبوع، وبها مجموعة كبيرة من الكتب النادرة، وكانت فهارسها تبلغ خمسة وستين مصنفاً، وكان الخطيب قد جعلها قبل وفاته وقفاً على أهل العلم من ذريته، وقد بنى ولده قُصي - رحمه الله - داراً بناحية (الدقي) خصص الطابق الأول منها لتلك المكتبة.

وأما مصنفاته: فقد كانت تآليفه قيِّمة تمتاز بالتوثيق العلمي والمرجعي، والأسلوب الأدبي الرفيع، والبيان البديع، والقوة في التعبير. أهمها: (١) اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب، (٢) قصر الزهراء بالأندلس، (٣) ذكرى موقعة حطين، (٤) مع الرعيل الأول في الإسلام، (٥) الأزهر: ماضيه وحاضره والحاجة إلى إصلاحه، (٦) الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الإثنى عشرية، (٧) الحديقة: وهي عبارة عن مختارات في الأدب الإسلامي في مختلف العصور وفي مختلف الموضوعات تقع في أربعة عشر سفراً صغير الحجم، جُمعَت في ما بعد في أربعة أسفار، (٨) الغارة على العالم الإسلامي، (٩) توضيح الصحيح: وهو شرح لصحيح البخاري يقع في ثمانية أسفار كبار لم يتمَّه، (١٠) البهائية، (١١) الجيل المثالي، (١٢) حَمَلة رسالة الإسلام الأولون، (١٣) تقويمنا الشمسي، (١٤) تاغور، (١٥) من الإسلام إلى الإيمان: حقائق عن الطائفة التيجانية، (١٦) الإسلام دعوة الحق والخير، (١٧) ذو النورين عثمان بن عفان، (١٨) سيرة جيل: وهو عبارة عن تأريخ لبعض حوادث القرن الرابع عشر.

وأما الكتب التي حققها أو علق عليها بتعليقات قيمة، فأهمها: (١) العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر بن العربي، وهو إخراجه الأهم وإصداره الأعظم، (٢) المنتقى من ميزان الاعتدال للإمام الذهبي، (٣) مختصر التحفة

(١) قال الدكتور يوسف بن عبد الرحمن المرعَشلي في نثر الجواهر (٢ / ١٠٠٦): (ترك مكتبة خاصة تبلغ نحواً من مائتي ألف مجلد، تجاوزت بذلك المكتبة التيمورية التي بلغت مائة وعشرين ألفاً، ومكتبة أحمد زكي وتضم مائة وسبعين ألفاً)، وهذا خلاف أكثر ما وقفت عليه في تراجم الشيخ محب الدين وأحمد تيمور وأحمد زكي رحمهم الله، فلا أدري هل وقع تصحيف للدكتور يوسف المرعَشلي، أم أن ما ذكره أصح؟

الإثنى عشرية للألوسي، (٤) الإكليل للهمداني، (٥) تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب، (٦) أيمان العرب في الجاهلية للنجيرمي، (٧) الخراج لأبي يوسف القاضي، (٨) المَيْسِر والقِداح لابن قُتَيْبَة، رحمهم الله.

وكان - رحمه الله - يجيد اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية، وقد ترجم كتباً منها: (١) سرائر القرآن: ترجمه عن التركية، (٢) الدولة والجماعة لأحمد بك شعيب: ترجمه عن التركية، (٣) مذكرات غليوم الثاني: ترجمه عن التركية، (٤) الغارة على العالم الإسلامي تأليف: أ. ل شاتليه فرانسو: ترجمه إلى العربية.

وله عشرات المقالات التي كتبها في موضوعات شتى في مجلات: الزهراء، الأزهر، ثمرات الفنون، حضارة الإسلام، المقتبس، المسلمون، المنار، الشهاب.

وصحف: الفتح، المؤيد، القبلة، العاصمة، الأهرام، القبس، وغيرها من الصحف والمجلات، ومعظم مقالات هذه الصحف والمجلات غير منشور، بل إن أعداداً كثيرة منها قد فُقدَت بمرور الزمن، مع ما فيها من القيمة العلمية والتاريخية؛ حيث كان يكتب فيها أساطين العلم والثقافة.

عقيدته وصفاته:

كان الخطيب - رحمه الله - من أشد أنصار السلفية النقية في العقيدة والعبادة، ولعلها سمة بارزة في كل كتاباته، بل كان الخطيب - رحمه الله - من أوائل من أظهروا المنهج السلفي في مصر والشام في العصر الحديث؛ فقد ساهم - رحمه الله - في رسم حدوده وتوضيح معالمه والدعوة إليه والذب عنه وعن رموزه، من ذلك تصديه للدفاع والذب عن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وعن دعوته الموسومة من خصومها بالدعوة الوهابية، وأظهر أكثر من مرة في أكثر من موضع أنها دعوة التوحيد الخالصة التي دعا إليها النبي ﷺ وأصحابه، رضوان الله عليهم.

وطالما دأب على حض قرائه على اتباع القرآن والسُّنَّة وطريقة السلف في فهمهما، وذم علم الكلام والفلسفة. من ذلك قوله في مقال تحت عنوان (ذروه الحق): (فإن التفكير في ذات الله من صميم الغيب، وعلم الغيب لا ينال بالفكر والعقل، بل بالنص عن المعصوم، واقتحام العقل في غير ما دل عليه النص خروج به عن دائرة عمله)، ثم أردف قائلاً: (ونصيحتي إلى كل مسلم أن يأخذ إيمانه واعتقاده من نصوص كتاب الله وسُنة رسوله، وما يتعلق من ذلك بالغيب يؤمن به على ما يليق بكمال الله - عز وجل - ويمرره كما ورد؛ لا ينقص منه، ولا يزيد فيه، متبعاً طريقة القرآن في الاستدلال على الخالق ببدائع خلقه).

ومذهبه في الأسماء والصفات هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة. يقول في مقال (ذروة الحق): (وأسماء الله وصفاته نؤمن بها كما وردت من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، وهذه الأسماء والصفات تدل على معاني يجب على المسلم أن يتعبد بالإيمان بها، وبالعبودية لله من ناحية المعنى الذي يدور عليه كل اسم من أسمائه - عز وجل - وكل صفة من صفاته).

ومما يدل على سلفيته ونقاء عقيدته أيضاً معارضته ومناهضته الشديدة لفكرة (التقريب بين أهل السُّنَّة والشيعة)؛ حتى إنه كان يعبر عنها بعبارة (التخريب بين المذاهب)، وقد تسبب هذا في إحداث شيء من الجفاء بينه وبين (الإخوان المسلمين) الذين كانوا ينتصرون لفكرة التقريب، وقد أشار إلى عقيدته تلك وفصَّل فيها في مقال نشره في صحيفة الفتح تحت عنوان: (كلام صريح وكلام مبهم حول خرافة التقريب بين المذاهب).

وكان - رحمه الله - قوي الإيمان بخصائص الأمة العربية وأصالتها واستعدادها للخير وجدارتها بحمل رسالة الله وبطيب عنصرها ونقاء جوهرها، وطالما تغنى بهذه الأمة وباستعداداتها، ومع ذلك لم يفهم من العربية يوماً مَّا شيئاً غير الإسلام، وكان ينال من الكُتاب المسلمين الذين يفرقون بين العروبة والإسلام ويعتبرهم من جملة من ساهم في القضاء على الخلافة الإسلامية.

وقد ظل الخطيب محتفظاً بحيويته حتى قبيل وفاته، وكان يعزو ذلك إلى اعتداله في حياته كلها؛ في مأكله ومشربه ونومه، وكان ذا صبر وجَلَد على العمل لا يعرف معهما السآمة والملل، وكان منظَّماً في شؤونه كلها، عصامياً في تدبير أمره وتكوين ثروته وبناء حياته.

فرضي الله عن الخطيب وأرضاه، وجعل الجنة مأواه، وآخرته خيراً من دنياه.

من بديع فقه
الشيخ محمد بن صالح العثيمين (رحمه الله)

خالد بن صالح الغيص
ksmksmg@hotmail.com

لا أظن أن هناك من يجهل الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله؛ فسُمعَتُه قد بلغت الآفاق، وقد كان رائداً في نشر فقه السنة، ولقد اهتم بالتأليف وتحرير الفتاوى والأجوبة التي تميَّزت بالتأصيل العلمي الرصين، وصدرت له عشرات من الكتب والرسائل والمحاضرات والفتاوى والخطب واللقاءات والمقالات[1].

وهنا أسوق إليكم شيئاً من بديع فقهه لعل الله - تعالى - أن ينفعني وإياكم به، فقد جاء في فتاوى نور على الدرب (٤ / ١٨٦) السؤال التالي:

حفظكم الله فضيلة الشيخ: في زماننا هذا كثرت الشركيات وكثر التقرب إلى القبور والنذر لها والذبح عندها، كيف يصحح المسلم هذه العقيدة؟

(عند قراءتي للسؤال قلت في نفسي: سائل يسأل شيخاً من مشايخ دعوة التوحيد، فلا بد أن يحذِّر الشيخ من الشرك وخطره! لكن لنقرأ بماذا أجاب الشيخ رحمه الله):

الجواب:

الشيخ: (أولاً ندعي هذا السائل بصحة دعواه، أنا في ظني أن هذا الوقت هو وقت الوعي العقلي وليس الشرعي، الوعي العقلي: قلَّ الذين يذهبون إلى القبور من أجل أن يسألوها أو يتبركوا بها، اللهم إلا الهمج الرَّعاع هؤلاء من الأصل، فعندي أن الناس الآن استنارت عقولهم الإدراكية لا الرشدية، فالشرك في القبور وشبهها في ظني بأنه قليل لكن هناك شركٌ آخر وهو محبة الدنيا والانهماك فيها والانكباب عليها فإن هذا نوعٌ من الشرك قال النبي [ﷺ]: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد الخميلة» فسمى النبي من شغف بهذه الأشياء الأربعة سماه عبداً لها، فهي معبودةٌ له أصبح الناس اليوم على انكبابٍ بالغ على الدنيا حتى الذين عندهم شيء من التمسُّك بالدين تجدهم مالوا جداً إلى الدنيا ولقد قال النبي [ﷺ]: «والله ما الفقر أخشى عليكم؛ وإنما أخشى أن تفتح عليكم الدنيا تتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم»، هذا هو الذي يُخشَى منه اليوم. ولهذا تجد الناس أكثر عملهم على الرفاهية، وهذا فيه ترفيه وهذا

(١) اقتباس من موقع الشيخ.

فيه نمو الاقتصاد وهذا فيه كذا وهذا فيه كذا، قلَّ من يقول: هذا فيه نمو الدين هذا فيه كثرة العلم الشـرعي هذا فيه كثرة العبادة، قل من يقول هذا؛ فهذا هو الذي يُخشَـى منه اليوم، أما مسـألة القبور ففي ظنـي أنها في طريقها إلى الزوال[1] سـواءٌ من أجل الدنيا أو من أجل الدين الصحيح) اهـ.

ولا مزيـد على كلام الشـيخ رحمه الله، فقـد كفَّى ووفَّى؛ فالدنيا الآن هي معبودة أغلب الجماهير، وليسـت هي كائناً حيّاً اسـمه الدنيا يشار إليه بالبنان؛ بل هي مظاهرُ ومعانٍ تتمثل بحب الشهوات من النسـاء وغير ذلك، كما قال – تعالى –: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فمـا أهلك أغلبَ الناسِ في يومنا هذا إلا حبُّهم وحرصُهم على الدنيا وزينتها؛ فهذا صاحب سلطة وسلطان أو صاحب تجارة ومال أو صاحب لهو وشـهوة محرَّمة؛ يبيع كلَّ شـيء في سبيل البقاء في منصبه وكرسـيه، أو في سبيل المحافظة على تجارته ونماء ماله، أو في سبيل النَّيل من شهوته المحرَّمة، ولو كان هذا الشيء هو مقدسات الأمة وحرماتها، فلا مقدَّس عنده سوى ما يمليه عليه هواه.

وهـذا يصدِّقه ما رواه ثَوْبَـانَ – رضي الله عنـه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا». فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّـيْلِ. وَلَيَنْزِعَـنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ». فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ». وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُـولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَـلَّطَ اللَّـهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُـمْ»[2]. فالدنيا بزخرفها وزينتها أعظمُ ما حملَ الكفارَ على الكفـر بالله، كما قال – تعالـى –: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّـمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَـدِيدٍ ۝٢ الَّذِينَ يَسْـتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَـبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَـا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢ – ٣]، وقال – تعالى –: ﴿يَا مَعْشَـرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِـنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وهي السـبب الرئيسـي في حَمْل مَن آمن بالله على الـردَّة والكفر بعد الإيمان، كما قال – تعالى –: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِـهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَـرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٦ – ١٠٧].

فالخـوف من ذهاب الدنيا والسـلطان، والخوف من ضياع الأموال والتجارات، والرغبة في التمتع بشهوات الدنيا وزينتها... كل ذلـك حمل كثيراً من الناس على الكفـر بالله – تعالى – أو التفلُّت من أحكام الشـرع، وللمزيد حول هـذا الموضوع أنصح بقراءة مقالي الموسـوم بـ (خدعوك فقالوا: «الدين لا يعمر دنيا ولا يشـبع من خبـز)[3]. ولا حول ولا قوة إلا بالله، وثبَّتني الله وإياكم على البر والتقوى.

(١) قلت: قد يكون قصد الشيخ في عصرنا هذا (عصر الوعي العقلي)، وإلا فالشرك باقٍ إلى يوم القيامة كما أخبر النبي ﷺ.

(٢) رواهما أبوداود، وصححهما الألباني.

(٣) تجده على الرابط التالي: http://www.almoslim.com/node/118814

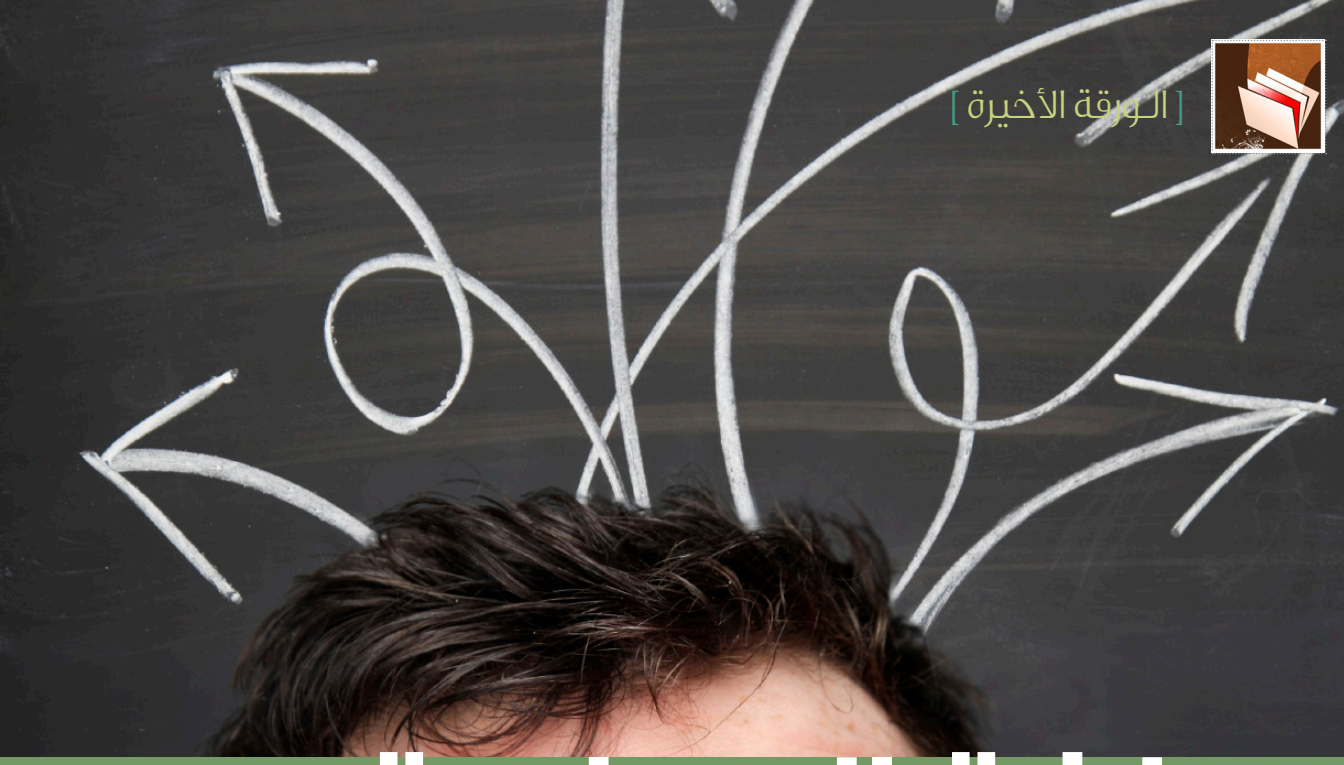

لغة السياسة

التطورات السياسية المتلاحقة في دول الثورات العربية دفعت أعداداً كبيرة من الدعاة إلى ولوج العمل السياسي دون إعداد مسبق أو تدريب عملي؛ وذلك من أجل تلبية الحاجة المتزايدة للأحزاب الإسلامية الجديدة من العناصر والقيادات في مختلف التخصصات.

أحمد فهمي
afahmee@hotmail.com

هذه «النقلة» الهائلة في مجال التخصص والممارسة تعرَّضَت لها بالدرجة الأولى التيارات السلفية التي عزمت على المشاركة الفعلية في العمل السياسي، بدءاً بتأسيس الأحزاب ثم دخول الانتخابات والمشاركة في المجالس النيابية والمحلية، فضلاً عن كافة المناصب الرئيسية في الدولة التي يُختَار شاغلوها بالانتخاب.

أحد تداعيات هذه «النقلة» هو افتقادُ «القادمِ الجديدِ» «لغةَ السياسةِ» التي يحتاجها للتواصل في كافة الميادين؛ سواء مع وسائل الإعلام أو في النقاشات البرلمانية، أو عند مخاطبة الجماهير أو للحديث مع المسؤولين أو للتفاوض مع أطراف وجِهاتٍ مختلفة داخلية وخارجية.

فالخطاب السياسي يختلف كثيراً عن الخطاب الدعوي في نصه وسياقه، ولا يسوغ استخدام أحدهما في مقام يستدعي استخدام الآخر؛ فلكل مقام خطاب، والمخالفة هنا ينتج عنها عجز في التواصل وقصور عن تحقيق الهدف المنشود أياً كان (دعوياً أو سياسياً).

وبقدر ما يسع المقام، يمكن تلخيص «لغة السياسة» مهارةً يحتاجها «السياسي الجديد» في معادلة بسيطة، هي:

لغة السياسة = (إطار نظري + معلومات وأرقام + نتائج، مطالب واضحة) – (استطراد بلاغي + استرسال في التأصيل + مقدمات مشتتة).

وفي ما يلي عرض مبسَّط لمكونات هذه المعادلة:

١ - الإطار النظري:

لا بد للسياسي الإسلامي من الإلمام - ولو بصورة مخففة - بالعلوم السياسية؛ فالسياسة ليست مجرد ممارسة يتميز الإنسان فيها بحسب خبرته وتجربته، وهي أيضاً ليست مجرد موهبة فطرية يحظى بها بعض الأشخاص دون غيرهم، بل هي علم له قواعده ونظرياته ومفاهيمه، ولا يليق بالسياسي الإسلامي أن يعتمد في ممارساته السياسية على «الفهلوة» أو صفات مثل «سرعة البديهة».

وبصورة عملية، يمكن للسياسي أن يتبع هذه الخطوات لتحديد الإطار النظري للقضية التي يريد التحدث بشأنها:

• أن يضع تصوراً عامّاً حول القضية التي يتحدث بشأنها؛ فسواء كانت قضية كليَّة أو جزئية، عليه أن يعرف موقعها وعلاقتها بغيرها من القضايا أفقياً ورأسياً، ووصفها السياسي.

• تحديد الهدف من طرح القضية، هل هو التذكير بأهميتها، أو عرض طريقة للتعامل معها، أو المساومة حول بعض جوانبها.

• اختيار أسلوب الطرح بما يتناسب مع الهدف والمقام؛ فهل هي قضية خلافية مثلاً، فهو يحتاج إلى أسلوب إقناعي، أو توافُقي؟ أم هي قضية متفَق عليها، فهو يحتاج إلى مجرد عرض لاقتراحاته بشأنها؟

• تحديد القيمة المضافة التي يقدِّمها السياسي؛ بحيث لا يكون خطابه مجرَّد تكرار لكلام الآخرين.

• من الأمور المهمة في سياق الإطار النظري، أن السياسي الإسلامي لا بد أن يتميز خطابه السياسي بالربط الواضح مع مرجعيته الإسلامية المستمَدَّة من الكتاب والسنة؛ لا أن يكون كلامه مجرداً عنهما؛ وهذا يعني أهمية تأصيل ما يقول - وَفْقَ مقتضى الحال - بنصوص الكتاب والسنة، على أن يكون استشهاده قوياً بدون استرسال ومتعلقاً بصورة مباشرة بموضوع الكلام؛ فهذا من شأنه أن يُحدِث تأثيراً إيجابياً، كما أنه - في حالة تنفيذه بصورة متقنة - يُعَد تجديداً على صعيد الخطاب السياسي المغرِق في علمانيته في العالم العربي منذ عقود بعيدة.

٢ - معلومات وأرقام:

الكلام المرسل الذي لا ينبني على معلومات دقيقة يُضعف الخطاب السياسي، فلا بد من دعم المقولات النقدية أو الاقتراحات أو الاعتراضات بمعلومات موثقة، وأرقام كاشفة.

هذه المعلومات والأرقام يمكن تعظيم تأثيرها عند وضعها في سياقات مقارنة، مثل:

• المقارنة الزمنية: فعندما يكون الحديث - مثلاً - عن نسبة الأمية المرتفعة في المجتمع، فإن ذكر مستوى التغير في الأمية بين زمنين يعطي إضافة جديدة حول التقدُّم أو التأخر في هذه القضية.

• كذا يمكن استخدام المقارنة مع مثيل أو منافس؛ فيمكن ذكر نِسَب الأمية في دول مجاورة تتشابه في الهوية أو الظرف.

• أيضاً يمكن المقارنة النسبية بين الجزء والكل؛ فإن كان الموضوع - مثلاً - هو ضعف الإنفاق على البحث العلمي، يستحسن ذكر حصة البحث العلمي في الميزانية العامة للدولة.

• وفي بعض الحالات يمكن استخدام هذه السياقات كلها في وقت واحد، كأن يُقارن بين نسبة التغير في حصة الإنفاق على البحث العلمي من إجمالي الموازنة بين نقطتين زمنيتين، مع مقارنة ذلك بدول أخرى.

٣ - نتائج ومطالب واضحة:

من الضروري أن يتضمن الخطاب السياسي نتائج واضحة أو مطالب محدَّدة، ونقطة الضعف الأساسية في الخطاب هي أن يعجز السياسي عن توصيل هدفه ومراده إلى المخاطَبين، أو يقدِّم نتائج أو مطالب غير واقعية، أو لا يمكن تنفيذها والتعامل معها، أو تكون غامضة غير مفهومة، أو تكون مطالب موجَّهة للجهة الخطأ، أو يقدم مطالب لا تراعي متغيرات أخرى فيبدو كمن لا يدرك أبعاد ما يتحدث عنه، وأحياناً يقدم بعض السياسيين مطالب يُكتشف أنها تحققت من قبل... إلخ.

وبالنظر إلى أن السياسي الإسلامي يحمل رؤية تغييرية شاملة لكافة المجالات في المجتمع والدولة،

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات

تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان

دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال: ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

المنطقة الغربية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

فإن من المفاهيم المهمة اتباعُ «التدرُّج والتجزئة» في المطالب السياسية؛ إذ لا تسمح الظروف السياسية - غالباً - بتمرير مطالب كبيرة تتضمن تغيُّراً جذرياً سريعاً؛ مثل المطالبة الفورية بتطبيق الشريعة الإسلامية، نعم هذا المطلب يتوجب رفعه في الخطاب الدعوي، وكذا في البرامج السياسية وعند الحديث عن التوجهات العامة أو المرجعيات، لكن في سياق الممارسة العملية أو التشريعية فإن تبنِّي مفهومي «التدرج والتجزئة» يفيد كثيراً في تحقيق الأهداف العامة في الأمد المنظور.

من أهم الفوائد الناجمة عن استخدام «إستراتيجية التجزئة والتدرج» في عرض المطالب، أنها تكسر الدفاع التلقائي الاحترازي للخصم (تضعف قدرته على المناورة) وتدخله في سلسلة منطقية من التنازلات تحت شعار: من فعل مرة فلا بأس بأخرى.

في بعض الحالات قد يحتاج السياسي إلى المناورة في عرض مطالبه؛ خاصة في مجال المساومات السياسية؛ فقد يفاوض أحياناً على شيء ليدفع الخصم إلى تقديم تنازل عن شيء آخر في سياق مختلف، أو عن شيء أقل في السياق نفسه، أو للحصول على مكسب مؤجَّل، أو للمقايضة... إلخ.

٤ - الاستطراد البلاغي:

التأثُّر بالخطاب الدعوي - الذي تُعَد البلاغة من أهم خصائصه - قد يدفع السياسي الإسلامي إلى المشابهة في توظيف قدراته البلاغية سياسياً، ورغم أن البلاغة والفصاحة من السمات المهمة على صعيد «الزعامة السياسية»، لكن يجب أن نفرِّق بين البلاغة بمفهومها السياسي، والبلاغة بمفهومها الدعوي:

فالبلاغة السياسية لا يسوغ معها الاستطرادات اللفظية والاسترسال في التشبيهات والكنايات وذكر المترادفات؛ بل هي تميل - غالباً - إلى الإيجاز والاختصار، فعلى السياسي أن يختزل عباراته وألفاظَه، فيحذف منها كلَّ ما لا يؤثر في المعنى ولا يقدِّم جديداً، وليعلم أن البلاغة الحقيقية لا تكون بالإطالة بل بالاختصار، وقد أوتي النبي ﷺ جوامع الكلم، فكان يتكلم بعبارات قليلة يُستنبط منها معانٍ غزيرة.

٥ - الاسترسال في التأصيل:

مما يميز الداعية السلفي أنه يبذل جهداً كبيراً في تأصيل كلامه وربطه بصورة حثيثة بالثوابت والمفاهيم الأساسية والمبادئ العامة، وهذه السمة (الإيجابية) تؤثر على خطابه السياسي، فتراه يبدي حرصاً كبيراً على أن يُرجِع كلامه إلى مبادئ عامة وأصول كلية، دون حاجة حقيقية إلى ذلك، وخروجاً عما يقتضيه المقام من اختصار أو تركيز أو إيجاز، فيتشتت مقصوده.

ومما يندرج تحت هذا العنوان، قضية الأولويات؛ فالسياسي بحكم عمله وتخصصه، يرتب القضايا والمواقف بحسب تطورات الأحداث السياسية، وليس بحسب ما يراه هو ويعتقده من ترتيب لهذه القضايا بحسب أهميتها الدينية؛ لذا هو لا يحتاج أن يُذكِّر دائماً بموقع هذه القضية أو تلك على قائمة الأولويات الدينية، أو أن يصرح بعدم أهميتها، أو بتقدم غيرها عليها... إلخ، فهو مقيد في عمله السياسي بتطورات الواقع وتفاعلات الأحداث.

أيضاً يلحق بهذا العنوان تأثيرُ بعض المفاهيم على الخطاب السياسي، مثل: تأخير البيان عن وقت الحاجة؛ فبعض السياسيين الإسلاميين لديه قابلية للاسترسال في خطابه بعيداً عن موضوع الحدث أو الحديث أو النقاش، تتبعاً لقضية يرى أهميتها، طُرِحت بصورة عَرَضية. فهذا الاسترسال يضعف الخطاب السياسي.

٦ - مقدمات مشتتة:

يحتاج السياسي الإسلامي في كثير من مواضع تواصله السياسي أن يُحسن الدخول في الموضوع مباشرة بدون مقدمات. فمن الملاحظات المتكررة على أداء بعض السياسيين الإسلاميين ميلهم إلى التقديم للكلام بمقدمات طويلة تشتت السامع وتضعف التركيز، كما يحدث كثيراً ألا يتناسب النطاق الزمني المتاح للحديث، مع تلك المقدمات الطويلة التي تستغرق أغلب الوقت، فيضطر السياسي إلى الاختصار المخل في بقية النقاط الأكثر أهمية وتعلُّقاً بالقضية محل الحديث.

مجلة البيان وجميع إصداراتها المتنوعة متوفرة
بمتجر آبل الإلكتروني لأجهزة آيباد وآيفون.
(فقط عليك تحميل تطبيق البيان)

هدية لجمهورنا الكريم، عدد المجلة لشهر ربيع الأول 1433هـ

مجاناً على المتجر بالإضافة إلى الأعداد السابقة

وما زالت عروضنا مستمرة
في الأسواق الإلكترونية

www.albayan.co.uk